أخلاق الدعاة إلى الله تعالى

النظرية والتطبيق

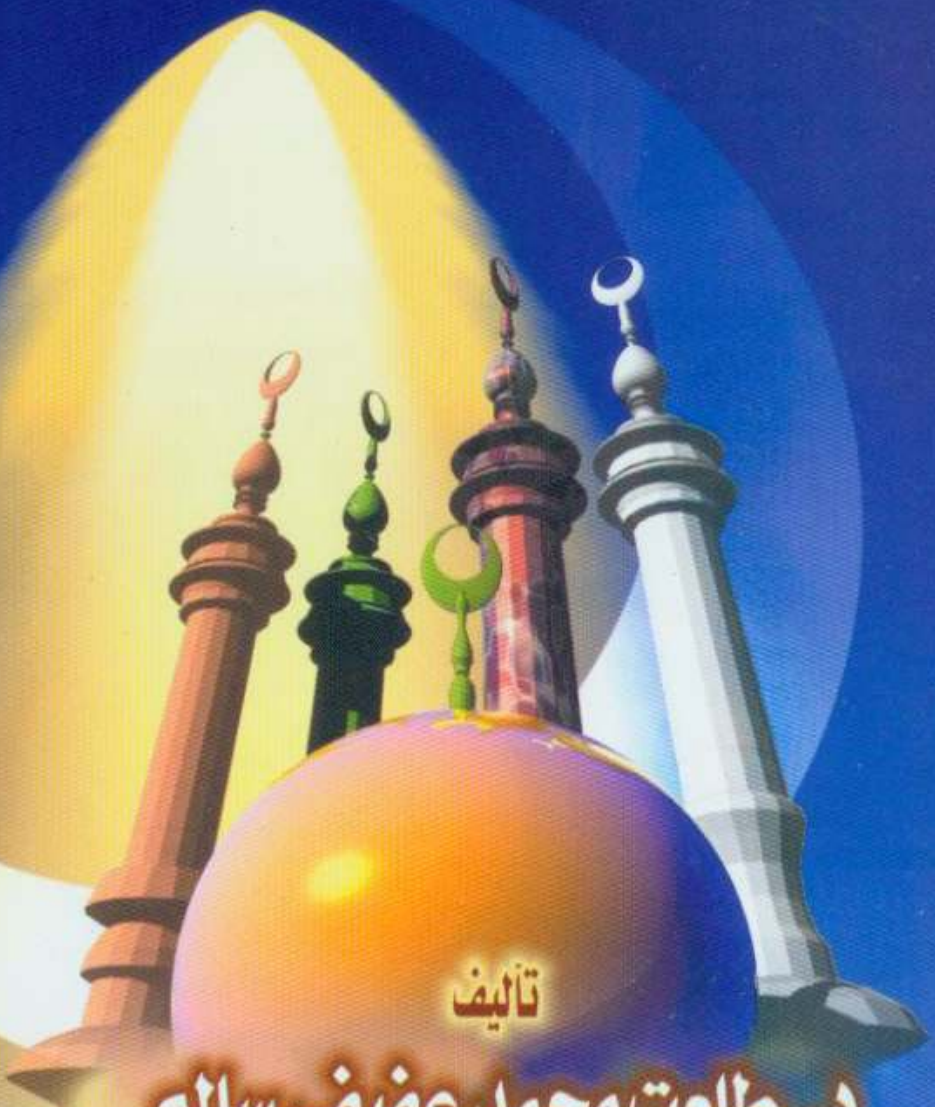

تأليف

د. طلعت محمد عفيفى سالم

عميد كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة

ضياء سعيدة

مكتبة الإيمان

للطباعة والنشر والتوزيع

٤ ش أحمد سوكارنو - العجوزة

ت: ٣٤٥٢٢٣٠٢

أخلاق الدعاة إلى الله تعالى

النظرية والتطبيق

تأليف
أ. د. طلعت محمد عفيفى سالم
عميد كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة

مكتبة الإيمان
للطباعة والنشر والتوزيع
٤ ش أحمد سوكارنو - العجوزة
ت: ٣٤٥٢٣٠٢

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثالثة
١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

رقم الإيداع
٢٠٧٦ / ٢٠٠٣ م

مطبعة المدني

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جعل مقام الدعاة إليه فى أعلى مقام، وأبان عن أن الدعوة الصادقة لا تكتفى بالمقال، بل يضم صاحبها إلى جانب صدق اللسان طهارة الجنان، وصلاح الأبدان، فقال عز من قائل: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين﴾[1].

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أدبه ربه فأحسن تأديبه، وظهرت ثمرات هذا الأدب الربانى فى سلوكه ﷺ فأضحت المعانى المجردة مثلاً واقعية، يلمس فيها المرء صفاء فى القلب، ونظافة فى السلوك، وطهارة فى المنطق.

وصدق الله إذ يقول فى شأنه ﷺ: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[2].

وبعد:

فقد وعد الله المؤمنين بالاستخلاف فى الأرض، والتمكين فيها، وكشف لهم عن طريق تحصيل هذا الشرف مبينًا أنه الإيمان به، والعمل الصالح له، فقال تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا﴾[3].

والآية ـ كما هو واضح من نصها ـ تحتوى على مطلوب هو الإيمان والعمل الصالح، ليتحقق الموعود بالاستخلاف فى الأرض، والتمكين فيها.

ولأنه لا يتيسر للكثير من الناس فهم هذه الحقائق، ولأن البعض ـ رغم فهمه

(١) سورة فصلت (٣٣).

(٢) سورة القلم (٤).

(٣) سورة النور (٥٥).

لها ـ تجذبه الدنيا، وتتنازعه الأهواء بعيدًا عن طريق الله تعالى؛ لأجل ذلك وغيره فقد أوجب الله تعالى على جماعة المسلمين أن تكون فيهم فئة من الدعاة تحمل على كاهلها أمانة تبليغ الإسلام، وتوضيح معالمه للآخرين، ويكون على يديها ـ بإذن الله ـ إنقاذ الهالكين والضائعين، فقال تعالى: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾[1].

وقال أيضًا: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾[2].

ولكى يؤتى عمل هؤلاء الدعاة ثمرته فإن من الواجب على الدعاة أن يكونوا على مستوى المسئولية: إعدادًا، وتثقيفًا، وتربية، وبخاصة فى الجانب الخلقى، باعتباره ثمرة عملية لما تعلموه، ولما يطلب منهم أن يعلموه للناس.

ويسعدنى أن أقدم هذا البحث عن «أخلاق الدعاة إلى الله تعالى ـ النظرية والتطبيق» راجيًا أن أسهم به فى إصلاح حالى وحال رفاقى وإخوانى العاملين فى مجال الدعوة.

وتبدو أهمية هذا الموضوع فى النقاط التالية:

١ ـ أن الداعى إلى الله قدوة للآخرين، فهو بالنسبة لهم كالعود للظل، ولا يستقيم الظل والعود أعوج، فصار الاعتناء بأخلاق الدعاة ـ فى حقيقته ـ اعتناء بإصلاح المجتمع كله.

٢ ـ أن علاقة الداعى بالمدعوين لا تقتصر على مجرد الكلام الذى يسمعونه منه، بل يترقبون أحواله وأخلاقه، فإن تطابق قوله مع فعله أحبوه بقلوبهم، وأقبلوا على دعوته بثقلهم، وإن تعارض القول مع الفعل كانت دعوته فتنة تصد الناس عن طريق الله تعالى.

لهذين السببين ـ وغيرهما ـ أعتمد على الله فى إصدار هذا البحث عن أخلاق الدعاة إلى الله تعالى، راجيًا من المولى الكريم أن يجعلنا من العلماء العاملين،

---

(١) سورة التوبة (١٢٢).

(٢) سورة آل عمران (١٠٤).

وأن يجزى عنا آباءنا وأساتذتنا خير ما يجازى به عباده الصالحين.

هذا؛ وقد قدمت للبحث بمدخل تناولت فيه التأكيد على أهمية وجود الدعاة، وأهمية الجانب الخلقى فى دعوتهم، ونحو ذلك مما يعد تمهيداً للموضوع، ثم أتبعت ذلك بالحديث عن الأخلاق ذاتها فى بابين:

الباب الأول بعنوان: «الأخلاق النفسية للداعية».

الباب الثانى بعنوان: «الأخلاق الاجتماعية للداعية».

وقمت بتقسيم البابين إلى فصول ومباحث حسبما تقتضيه أحوال البحث.

هذا؛ وقد حرصت ـ كما هو واضح من عنوان البحث ـ على أن أجمع فى كلامى بين المنهج النظرى المتمثل فى الآيات والأحاديث وكلام الأئمة، وبين المنهج التطبيقى المتمثل فى أفعال الرسول ﷺ وسلف الأمة الصالح، وذلك تأنيسًا للنفس بذكر أصحاب الهمم الرفيعة لنقتفى آثارهم، ولأن فى ذكر هؤلاء الأعلام اعترافًا بفضلهم، ومجالاً للثناء الجميل عليهم، مما يجعله عبادة يتقرب بها المرء إلى الله.

يقول الإمام أبو حنيفة: «الحكايات عن العلماء ومجالستهم أحب إلىَّ من كثير من الفقه، لأنها آداب القوم وأخلاقهم»[١].

وعن ابن عيينة قال: «عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة»[٢].

وقال محمد بن يونس: «ما رأيت للقلب أنفع من ذكر الصالحين»[٣].

وختامًا أسأل الله العلى القدير أن يجعل هذا العمل فى ميزان حسناتنا، وأن يجعله حجة لنا لا علينا.

وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب

المؤلف

أ.د. طلعت محمد عفيفى سالم

عميد كلية الدعوة بالقاهرة

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (جـ١ ـ ص١٥٣) أبو عمر يوسف بن عبد البر ـ طبعة المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ـ طبعة ثانية سنة ١٩٦٨م.

(٢، ٣) صفة الصفوة (جـ١ ـ ص٤٥) ـ أبو الفرج ابن الجوزى ـ طبعة دار المعرفة ـ بيروت ـ طبعة رابعة سنة ١٩٨٦م.

مدخل للدراسة

ويشتمل على النقاط التالية:

(١) أهمية وجود الدعاة.

(٢) أهمية تكوين الدعاة.

(٣) أهمية الجانب الخلقى فى حياة الدعاة.

١. أهمية وجود الدعاة

أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالدعوة إليه، وتعريف الناس به، فقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[١].

وقال أيضًا: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾[٢].

ولا يقتصر واجب القيام بالدعوة إلى الله تعالى على الرسول ﷺ وحده، بل يشاركه فيه المسلمون فى كل زمان ومكان، كل على قدر طاقته.

وفى الإشارة إلى هذا المعنى يقول رب العزة: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٣].

وتنفيذ المسلمين لهذا الأمر - طاعة لله تعالى - يحمى مجتمعهم من الانهيار، وأخلاق أبنائه من التفسخ والضياع، بل ويجلب لهم النجاح والفلاح.

يقول عبد الله بن أبى جعفر: «العلماء منار البلاد، منهم يقتبس النور الذى يهتدى به»[٤].

وقال أبو مسلم الخولانى: «مثل العلماء فى الأرض مثل النجوم فى السماء، إذا بدت للناس اهتدوا بها، وإذا خفيت عليهم تحيروا»[٥].

وقال كعب: «العلماء قبلتى إذا لقيتهم، وضالتى إذا لم ألقهم، لا خير فى الناس إلا بهم»[٦].

وقال أحمد بن عصفور:

---

(١) سورة النحل (١٢٥).

(٢) سورة القصص (٨٧).

(٣) سورة يوسف (١٠٨).

(٤) جامع بيان العلم وفضله (جـ١ - ص٦٠) ابن عبد البر.

(٥) المجموع شرح المهذب (جـ١ - ص٤٠) الإمام النووى، بتحقيق محمد نجيب المطيعى - بدون تاريخ.

(٦) أخلاق العلماء (ص١٦) أبو بكر الآجرى - طبع دار الدعوة - بدون تاريخ.

ذوو العلم فى الدنيا نجوم هداية إذا غـار نجم لاح بعـدُ جـديد

بهم عـزَّ دين الله طرًا، وهم له معاقل من أعـــدائه وجنـــود[١]

* ونخلص من هذا العرض الموجز إلى أهمية وجود الدعاة، ومن خلال هذه الأهمية نستخلص النتائج التالية:

(أ) إذا كان وجود الدعاة ضمانًا لمسيرة الخير فى المجتمع ـ كما هو واضح من النصوص سالفة الذكر ـ فإن خلو الساحة من الدعاة المخلصين نذير بالهلاك والدمار.

يقول رسول الله ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رءوسًا جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»[٢].

وعن هلال بن خباب قال: «سألت سعيد بن جبير قلت: يا أبا عبد الله: ما علامة هلاك الناس؟ قال: إذا هلك علماؤهم»[٣].

وعن عبد الله قال: «لا يأتى عليكم عام إلا وهو شرٌّ من الذى كان قبله، أما إنى لست أعنى عامًا أخصب من عام، ولا أميرًا خيرًا من أمير، ولكنَّ علماءكم وخياركم وفقهاءكم يذهبون، ثم لا تجدون منهم خلفًا، ويجىء قوم يقيسون الأمور برأيهم»[٤].

وقال أحمد بن غزال:

الأرض تحيا إذا مـا عـاش عالمهـا متى يمت عـالم منهـا يمت طرف

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (جـ٢ ـ ص١٥٥) ابن عبد البر.

(٢) أخرجه البخارى، واللفظ له (جـ١ ـ ص٣٠) ـ كتاب العلم ـ باب كيف يقبض العلم ـ طبعة عيسى الحلبى، وأخرجه مسلم (جـ٤ ـ ص٢٠٥٨) كتاب العلم ـ باب هلك المتنطعون ـ طبعة عيسى الحلبى، وأخرجه الترمذى (جـ٥ ـ ص٣١) كتاب العلم ـ باب ما جاء فى ذهاب العلم ـ طبعة مصطفى الحلبى، وأخرجه ابن ماجه (جـ١ ـ ص٢٠) المقدمة ـ باب اجتناب الرأى والقياس ـ طبعة عيسى الحلبى، وأخرجه أحمد (جـ٢ ـ ص١٦٢) طبعة المكتب الإسلامى.

(٣) سنن الدارمى (جـ١ ـ ص٧٨) المقدمة ـ باب فى ذهاب العلم ـ طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٤) المرجع السابق (جـ١ ـ ص٦٥) المقدمة ـ باب تغير الزمان وما يحدث فيه.

كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها وإن أبى عـــاد فى أكنافهـــا التلف

(ب) إذا كان الدعاة صمام الأمان للمجتمع بأسره، فإن قيمة الفرد فيهم تعدل الكثيرين ممن ليسوا على هذه الصفة، وفقدان أحدهم بالموت يُعَدُّ خسارة لا تقدر بثمن، إذا لم يخلفه غيره.

وفى الدلالة على الشق الأول من هذه الحقيقة يقول أبو جعفر بن محمد بن على بن حسين: «عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد»[١].

وقال جعفر بن محمد: «رواية الحديث وبثه فى الناس أفضل من عبادة ألف عابد»[٢].

وعلة هذا التفضيل أن العابد المقتصر على عبادته لا يتعدى نفعها إلى غيره، بينما يستفيد العالم من العلم لنفسه، ويتعدى منه إلى غيره، فيكون له سنة حسنة حال حياته، وعلمًا ينتفع به بعد وفاته، وكلاهما يتضاعف أجره بعدد المستفيدين منه، والمنتفعين به.

وفضلاً عن ذلك فإن العابد يجاهد نفسه ليسلم من إغواء الشيطان فى خاصة نفسه، بينما يسعى العالم لإفساد وهدم ما يبنيه الشيطان ليصد به الناس عن طريق الرحمن.

لأجل هذا كان أشد شىء على الشيطان بقاء العالم بين الناس، وأحب شىء إليه أن يموت ليتمكن من الفساد والإفساد.

وفى الدلالة على الشق الثانى من الحقيقة المشار إليها آنفًا يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «لموت ألف عابد، قائم الليل، صائم النهار، أهون من موت العاقل البصير بحلال الله وحرامه»[٣].

وقال كعب: «موت العالم نجم طمس، وموت العالم كسر لا يجبر، وثلمة[٤] لا تسد»[٥].

(١، ٢) جامع بيان العلم وفضله (جـ١ ـ ص٣٢) ابن عبد البر.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

(٤) ثلمة: الخلل فى الحائط وغيره. كذا فى مختار الصحاح ـ مادة ثلم.

(٥) أخلاق العلماء (ص١٦) أبو بكر الآجرى.

(جـ) إذا تقرر هذا فإن من الواجب على المرء المسلم أن يسعى حثيثًا للقاء العلماء، والاستفادة منهم، وليكن قدوته فى هذا سلف الأمة الصالح الذين بذلوا النفس والنفيس فى سبيل العلم.

يقول عبد الله بن مسعود: «والذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين أنزلت، وإلا أنا أعلم فيما نزلت، ولو أعلم أن أحدًا أعلم بكتاب الله منى تبلغه المطى لأتيته»(١).

وعن سعيد بن المسيب قال: «إن كنت لأسير الليالى والأيام فى طلب الحديث الواحد»(٢).

وعن بسر بن عبيد الله الحضرمى قال: «إن كنت لأركب إلى المصر من الأمصار فى الحديث الواحد لأسمعه»(٣).

وأخبار السلف الصالح فى هذا المجال كثيرة، وهى تدفع بالمسلم دفعًا إلى الحرص على لقاء العلماء ما أمكن، وبذل الجهد للاستفادة من وجود أحدهم فى أى مكان، ولو اضطر المرء أن يسافر إليهم.

* * *

(١) صفة الصفوة (جـ١ ـ ص٢٠٤) أبو الفرج ابن الجوزى.
(٢) جامع بيان العلم وفضله (جـ١ ـ ص١١٣) ابن عبد البر.
(٣) نفس المرجع والصفحة.

٢. أهمية تكوين الدعاة

من خلال الدراسة السابقة يتضح لنا أن وجود الدعاة أمر ضرورى لصلاح المجتمع.

وإذا كان الأمر كذلك فإن من الواجب على أولى الأمر فى كل قطر إسلامى أن يعملوا على تكوين أجيال من الدعاة، ليكونوا طليعة لصلاح الأمة بكاملها، وأن لا يتهاونوا فى هذا الأمر حتى لا تضيع الأمة بأسرها.

يقول الشيخ محمد الغزالى:

«إن تكوين الدعاة يعنى تكوين الأمة.

وأثر الرجل العبقرى فيمن حوله كأثر المطر فى الأرض، وأثر الشعاع فى المكان المتألق.

والأمم العظيمة ليست إلا صناعة حسنة لنفر من الرجال الموفقين.

إن الشيوعية الكذوب تمارى فى هذه الحقيقة، وتزعم أن الأفراد مهما عظموا لا وزن لهم، وأن الفضل كله للجماهير.

وليت شعرى ما يصنع الرعاع وحدهم فى هذه الدنيا؟

إنهم يظلون فى أماكنهم حيارى حتى يجىء القائد الممتاز فيوجههم هنا وهناك.

ومن ثمَّ فإن سبيل النهضة الناجحة لا يتمهد إلا إذا استطعنا بناء جماعات من الدعاة تكون بمثابة طلائع النور فى أمة طال عليها الليل، وبوادر اليقظة فى أمة تأخر بها النوم، وأمل العالم فى عصر أجدبت فيه الدنيا من رسل الرحمة واليقين، وامتلأت بزبانية الأثرة والإلحاد»[1]. اهـ.

• وحتى يتم تكوين الدعاة على أساس سليم، فإننا نضع أمامنا هذه الحقائق:

(أ) أن عبء الدعوة ثقيل، ومهمة هداية الناس عمل جليل. ومن ثم وجب أن

(١) مع الله ـ دراسات فى الدعوة والدعاة (ص٧: ص٩) بتصرف ـ طبعة رابعة سنة ١٩٧٦ ـ دار الكتب الحديثة.

يختار الدعاة من بين صفوف الأمة وفق معايير معينة، وأن لا يترك هذا الأمر للظروف تفرضه، مما يدفع بالعجزة والقاصرين إلى هذا المجال الحساس فيكون الضرر لا النفع.

يقول الدكتور يوسف القرضاوى:

«إن المشتغلين بالتربية والتعليم يقولون بعد دراسة وخبرة ومعاناة: إن المعلم هو العمود الفقرى فى عملية التربية، وهو الذى ينفخ فيها الروح، ويجرى فى عروقها دم الحياة، مع أن فى مجال التعليم والتربية عوامل شتى، ومؤثرات أخرى كثيرة، من المنهج إلى الكتب إلى الإدارة، إلى الجو المدرسى، إلى التوجيه أو التفتيش، وكلها تؤثر فى التوجيه والتأثير بنسب متفاوتة، ولكن يظل المعلم هو العصب الحى للتعليم.

فماذا يقول المشتغلون بالدعوة والإرشاد فى شأن الداعية ومبلغ أثره، وهو العامل الفذ الذى ينفرد بالتأثير والتوجيه فى عملية الدعوة؟ إذ لا يشاركه فى ذلك - عادة - منهج موضوع، ولا كتاب مقرر، ولا جو، ولا إدارة، ولا توجيه.

فالداعية وحده هو - فى غالب الأمر - الإدارة والتوجيه، والمنهج والكتاب والمعلم، وعليه وحده يقع عبء هذا كله.

وهذا يجعل العناية بتكوين الدعاة، وإعدادهم الإعداد المتكامل، أمرًا بالغ الأهمية، وإلا أصيبت كل مشروعات الدعوة بالخيبة والإخفاق، فى الداخل والخارج، لأن شرطها الأول لم يتحقق، وهو الداعية المهيأ لحمل الرسالة»[1]. اهـ.

• وحتى يتهيأ داعية من هذا الطراز فإن من الواجب مراعاة الآتى فيمن يؤهلون ليكونوا دعاة:

(١) أن تتوفر الرغبة فى نفس المرء لحمل هذه الأمانة، وأن لا ينظر إليها على أنها عبء ثقيل يبغى التفلت منه كلما سنحت الفرصة.

ويستأنس لهذا المعنى بما روى عن عكرمة قال: قال عيسى عليه السلام: «لا تطرح اللؤلؤ إلى الخنزير، فإن الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئًا، ولا تعط الحكمة لمن

(١) ثقافة الداعية (ص٤) طبعة ثامنة - سنة ١٩٨٦ - مكتبة وهبة.

لا يريدها، فإن الحكمة خير من اللؤلؤ، ومن لا يريدها شر من الخنزير»[١].

(٢) أن تجتمع فى نفس المرء ـ إلى جانب الرغبة ـ عدة مؤهلات، بأن يكون المرء صائب النظرة، ليس عليلاً فى تفكيره أو ملكاته النفسية، حتى لا تتحول سلبياته سهامًا توجه إلى الدعوة.

يقول صالح بن عبد القدوس:

لا تؤتين العلم إلا امرءًا يعين باللب على نفسه[٢]

إن المجتمع لا يسند جليل المهام لمغفل أو أحمق، ولا يعرف لهؤلاء فى المجتمع مكان، فهل من اللائق أن ينفوا من دنيا الناس، ليتصدروا فى دين الله؟

إن دين الله أرقى وأشرف من أن نتعامل معه بهذا الأسلوب.

(٣) أن يكون له ـ إلى جانب ما سبق ـ سيرة حسنة، وحرص على المبادرة بالعمل بما يسمع ويقرأ، وذلك حتى لا تؤثر فيه عاداته السيئة بعد انتسابه للدعوة، وانضمامه إلى صفوفها، فيصير فتنة تصدُّ الناس عن طريق الله تعالى.

يقول الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه: «لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ ممن سوى ذلك. لا تأخذ من سفيه معلن بالسفه وإن كان أروى الناس، ولا تأخذ من كذاب يكذب فى أحاديث الناس، إذا جُرِّب ذلك عليه، وإن كان لا يتهم أن يكذب على رسول الله، ولا من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه، ولا من شيخ له فضل وعبادة، إذا كان لا يعرف ما يُحَدِّث»[٣].

ويمكن للأجهزة المعنية بالدعوة أن تعقد اختبارات شخصية للمتقدمين إليها لاختيار أنسب العناصر، والذين تتوفر فيهم الشروط السابقة، والدفع بهم إلى ساحة الدعوة بعد تأهيلهم ثقافيًا وتربويًا.

والملاحظ أن بعض الكليات والمعاهد تنهج هذا النهج مثل: الشرطة، والجيش،

(١، ٢) جامع بيان العلم وفضله (جـ١ ـ ١٣١، ١٣٢) ابن عبد البر.

(٣) الجامع لأخلاق الراوى، وآداب السامع (جـ١ ـ ص١٣٩) الحافظ الخطيب البغدادى ـ طبعة سنة ١٩٨٣ ـ مكتبة المعارف ـ الرياض، وكذا أورد هذا الخبر مع شىء من الاختصار أبو عمر يوسف ابن عبد البر فى كتابه (جامع بيان العلم وفضله) جـ٢ ص٦٠.

والكليات الرياضية، وغيرها، ونتيجة لاختبارات محددة يتم قبول الدارسين أو رفضهم.

وأولى بهذا الإجراء المتقدمون للكليات المتخصصة فى إعداد الدعاة، باعتبار الدعاة هم لسان الأمة، وقلبها النابض، ومظهر عزتها وكرامتها فى الدنيا والآخرة، وذلك بدلاً من التعامل مع الدعوة ـ كما هو حالنا الآن ـ على أنها آخر ما ينظر إليه، وبالتالى نلقى إليها بالطلاب غير المؤهلين نفسيًا أو علميًا أو بدنيًا، مما يجعل الضحية فى النهاية هى الدعوة.

(ب) إذا روعى فى الداعية هذه المواصفات عند اختياره، فإن من الواجب ـ بالإضافة إلى ما سبق ـ مراعاته بالتجارب العملية، واختباره قبل تقليده المسئولية، فإن البعض قد لا ينجح وقتئذٍ، فيكون فشله محدودًا، وعلى حساب نفسه لا على حساب الدعوة.

فإن أمكن تقويم مثل هذا الشخص فبها ونعمت، وإلا فلا حاجة بالدعوة لأمثال هؤلاء.

وفى التأكيد على المعانى المشار إليها سابقًا فى ضرورة الاعتناء باختيار الدعاة، حتى لا تضيع الدعوة، يقول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: «لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم، فإذا أخذوه من أصاغرهم وشرارهم هلكوا»[١].

والأصاغر: أهل البدع والأهواء، وليس المراد بهم صغار السن[٢].

* * *

(١، ٢) جامع بيان العلم وفضله (جـ١ ـ ص١٩٢، ١٩٣).

٣. أهمية الجانب الخلقى فى حياة الدعاة

من خلال النقاط السابقة يتضح لنا أن رسالة الداعية أسمى رسالة، وأن أى عمل ـ مهما بلغت قيمته ـ لا يرقى إلى مستوى عمل الدعوة، وهداية الناس إلى الله.

ومما يؤكد على هذا المعنى أن الله تعالى حين تحدث عن الدعوة والقيام بها صدَّرها بأسلوب الاستفهام المفيد للنفى، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1]. أى: لا أحد أحسن ممن يفعل ذلك.

وجاء فى مأثور الحكم: «جميل أن تَذْكُرَ الله، ولكن الأجمل منه أن تُذَكِّر الناس بالله».

ومما تجدر الإشارة إليه أن عمل الداعية ليس مجرد الكلام والوعظ، فما أيسر أن يعتاد الإنسان ـ بكثرة المران ـ على الألفاظ الجزلة، والعبارت الرصينة، بحيث يطلب منه الحديث فى أى موطن، فيفيض به كأحسن ما يكون.

إن رسالة الداعية هى رسالة الإسلام، بكل ما تحتويه هذه الكلمة من شمول وعموم.

فإن قلنا إن الإسلام يهتم بالفرد: تربية لنفسه، وتهذيبًا لسلوكه، وتوطيدًا لعلاقته بربه، كان الداعية هو القائم ببيان هذه الحقائق، والأخذ بيد الناس إليها.

وإذا قلنا إن الإسلام ينظم شئون المجتمع، ابتداء بالأسرة، وانتهاء بالأمم فيما بينها وبين بعضها، كان الداعية ـ أيضًا ـ هو صاحب الدعوة لهذا الشمول، وهو القوى المحركة التى تحث الناس على أن تأخذ هذه المبادئ صورتها العملية فى واقع المجتمع.

وباختصار، فإن رسالة الداعية هى رسالة الخير للفرد والمجموع على السواء.

---

(١) سورة فصلت (٣٣).

ولا يتأتى للداعية القيام بهذا الواجب الضخم حتى يكون ـ فى نفسه وأهله ـ أحرص الناس عليه، وأقوى الناس التزامًا به.

وصدق الله إذ يقول: ﴿ **فلذلك فادعُ واستقم كما أُمرت** ﴾[١].

يقول ابن جماعة الكنانى: «إن العلماء هم القدوة، وإليهم المرجع فى الأحكام، وهم حجة الله تعالى على العوام، وقد يراقبهم للأخذ عنهم من لا ينظرون، ويقتدى بهديهم من لا يعلمون، وإذا لم ينتفع العالم بعلمه فغيره أبعد عن الانتفاع به»[٢]. اهـ.

ويقول الشاعر محمود بن الحسن الوراق:

إذا أنت لم ينفعك علمك لم تجد ... لعلمك مخلوقًا من الناس يقبله
وإن زانك العلم الذى قد حملته ... وجدت له من يجتنيه ويحمله[٣]

وهكذا تبدو أهمية الجانب الخلقى فى حياة الدعاة، ذلك الجانب الذى بدونه تصبح الدعوة قليلة الفائدة، ضعيفة الأثر.

• ولمزيد التأكيد على أهمية هذا الجانب فى حياة الدعاة أسوق هذا الحقائق:

(١) إن تعلق الناس بأحوال الداعية أقوى من تعلقهم بكلامه، بل إن الداعية قد لا يتكلم كثيرًا، ولكن أخلاقه وسيرته الحسنة تجعل الدعوة تسرى بأقل مجهود يُبذل.

يقول لقمان الحكيم: «إن العالم يدعو الناس إلى علمه بالصمت والوقار»[٤].

وقيل: «من لم تهذبك رؤيته، فاعلم أنه غير مهذب. ومن لم ينعشك عبيره على بُعْدٍ فاعلم أنه لا طيب فيه، ولا تتكلف لشمه»[٥].

---

(١) سورة الشورى (١٥).

(٢) تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم (ص٢١) بتصرف يسير ـ بدر الدين ابن جماعة الكنانى ـ طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ بدون تاريخ.

(٣) جامع بيان العلم وفضله (جـ١ ـ ص١٩٧) ابن عبد البر.

(٤) نفس المرجع (جـ١ ـ ص١٤٠).

(٥) المنطلق ـ محمد أحمد الراشد ـ طبعة ثانية سنة ١٩٧٦ ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

وقال الإمام الشافعى: «من وعظ أخاه بفعله كان هاديًا»[١].

وقيل أيضًا: «من لم ينفعك لحظه لم ينفعك لفظه»[٢].

هذا، ويزخر التاريخ بالكثير من القدوات الصالحة ـ لأفراد وجماعات ـ تدل بشكلٍ قطعى على تأثير الداعية بالقدوة فيمن حوله بصورة أبلغ من الكلام.

وإليك ـ أخى الداعية ـ بعضًا من هذه القدوات:

قال ابن وهب: «ما تعلمت من أدب مالك أفضلُ من علمه»[٣].

وقال يونس بن عبيد: «كان الرجل إذا نظر إلى الحسن انتفع به وإن لم ير عمله، ولم يسمع كلامه»[٤].

هذا على مستوى الأفراد.

وعلى مستوى المجموع رأينا القدوة الصالحة قد راعت نظر كثير من الأمم فى مطلع الدعوة من خلال سلوك السلف الصالح، مما نتج عنه إسلام الكثيرين.

يقول الإمام مالك: «بلغنى أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام قالوا: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا»[٥].

(٢) إن تخلق الداعية بالأخلاق الإسلامية التى يدعو الناس إليها يجعل فى دعوته لها حرارة وحيوية، لأنها تخرج من قلب منفعل بها، ويعبر عنها لسان صادق اللهجة فيها، وبذا تتأثر بكلامه القلوب، وتنفعل بصدق حديثه النفوس.

بعكس ما لو عرى عن هذه الأخلاق، وجاء يدعو الناس إليها، فإن دعوته ـ مهما كان فصيح اللسان، بليغ العبارات ـ لا تعدو أن تكون حرثًا فى ماء، أو نفخًا فى رماد، وبذا يزول أثرها، ولا يدوم نفعها.

يقول مالك بن دينار: «إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلّت موعظته عن القلوب

(١، ٢) المنطلق ـ محمد أحمد الراشد ـ طبعة ثانية سنة ١٩٧٦ ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

(٣) جامع بيان العلم وفضله (جـ١ ـ ص١٥٣).

(٤) البداية والنهاية (جـ٩ ـ ص٢٦٧) الحافظ ابن كثير ـ طبعة ثالثة سنة ١٩٧٨ ـ مكتبة المعارف ـ بيروت.

(٥) من أخلاق السلف (ص٢) أحمد فريد ـ بدون تاريخ وبدون ناشر.

كما يزل القطر عن الصفا»[١].

وقال شهر بن حوشب: «إذا حدث الرجل القوم، فإن حديثه يقع من قلوبهم موقعه من قلبه»[٢].

وسئل الحسن البصرى رحمه الله: ما بالنا نعظ الناس فنبكيهم، وأنت تعظ الناس. فتبكى؟ فقال: ليست النائحة كالثكلى[٣].

(٣) إن صلاح الفرد فى ذاته دافعه ما يتمسك به من أخلاق.

يقول أبو حامد الغزالى: «كل من أراد النجاة لا نجاة له إلا بالعمل الصالح، ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة»[٤].

ويقول الشاعر أحمد شوقى:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه　　فقوِّم النفس بالأخلاق تستقم

ونستنتج من هذه المقدمة أن صلاح الداعية فى خلقه طريق إلى إصلاح نفسه، وأن فساده فى خلقه طريق إلى فساده فى كله.

فلو حدث ـ لا قدر الله ـ أن تولت فئة من الدعاة مهمة الإصلاح وهى تفتقد الأخلاق فإنها ـ والحال هكذا ـ سيفشو فسادها، ويعم خطرها ويستبيح الناس الحرمات وهم يجدون من يبرر أخطاءهم، ويبارك فيها خطواتهم.

ولذا يعظم خطر علماء السوء فى المجتمع.

يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «ثلاث يهدمن الدين: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلون»[٥].

وجاء فى مأثور الحكم: «زلة العالم كالسفينة، تغرق ويغرق معها خلق كثير»[٦].

---

(١) إحياء علوم الدين (جـ١ ـ ص١٠٧) أبو حامد الغزالى ـ طبعة دار الشعب.
(٢) المنطلق (ص٢٥٦) محمد أحمد الراشد.
(٣) هداية المرشدين (ص١٤٥) على محفوظ ـ طبعة دار الشعب.
(٤) إحياء علوم الدين (جـ١ ـ ص١٤٣٨) أبو حامد الغزالى.
(٥) جامع بيان العلم وفضله (جـ٢ ـ ص١٣٥) ابن عبد البر.
(٦) أدب الدنيا والدين (ص٤١) أبو الحسن الماوردى ـ طبعة أولى سنة ١٩٨١ ـ دار اقرأ ـ بيروت.

وقال معاذ رحمه الله: «احذروا زلَّة العالم لأن قدره عند الخلق عظيم، فيتبعونه على زلته»(١).

وقال الشاعر:

وكنا نستطب إذا مرضنا فصار هلاكنا بيد الطبيب

وقال غيره:

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب؟

ونخلص من هذه النقاط الثلاث إلى أهمية الأخلاق فى حياة الداعية، فهى حجر الزاوية فى نجاحه فى دعوته، وبقدر اهتمامه بها، وحرصه عليها، يكون توفيق الله له.

ولذا اهتم سلفنا الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ بهذا الجانب فى حياة الدعاة، وأكدوا ـ مرارًا ـ على وجوب الاعتناء به.

يقول سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه: «من نصَّب نفسه للناس إمامًا فليبدأ بتهذيب نفسه قبل تهذيب غيره، وليكن تهذيبه بسيرته قبل تهذيبه بلسانه، ومعلم نفسه ومهذبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومهذبهم»(٢).

وقال الفرَّاء: «أدب النفس ثم أدب الدرس»(٣).

وقال الليث ـ وقد أشرف على أصحاب الحديث فرأى منهم شيئًا ـ: «أنتم إلى يسير من الأدب أحوج منكم إلى كثير من العلم»(٤).

وعن مالك بن أنس قال: قال ابن سيرين: «كانوا يتعلمون الهدْى(٥) كما يتعلمون العلم».

---

(١) إحياء علوم الدين (جـ١ ـ ص١٠٨).

(٢) ذكر هذا الأثر الأستاذ فتحى يكن فى كتابه (الاستيعاب فى حياة الدعوة والداعية) ص٨٨ ـ طبعة سادسة سنة ١٩٨٥م ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

(٣) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع (جـ١ ـ ص٣٠٣).

(٤) نفس المرجع (جـ١ ـ ص٤٠٥).

(٥) الهدى: الطريقة والسيرة، كما فى المعاجم، مادة: هدى.

قال: «وبعث ابن سيرين رجلاً فنظر كيف هدْىُ القاسم وحاله»[1].

• وختامًا:

أرجو - أخى الداعية - أن أكون قد استوفيت الكلام فى هذا المدخل عن الجانب الخلقى فى حياة الداعية، ويبقى بعد ذلك أن نعرض لبعض هذه الأخلاق بالتفصيل، راجيًا من الله تعالى أن ينفعنا بالعلم والعمل، وأن يجنبنا الزلل.

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب.

* * *

(١) نفس المرجع (جـ١ - ص٧٩).

الباب الأول

الأخلاق النفسية للداعية

ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول: الأخلاق القلبية.

الفصل الثانى: الأخلاق الظاهرية.

• تمهيد:

تتنوع الأخلاق التى يجب على الداعية أن يلتزم بها، ما بين أخلاق يلتزم بها فى نفسه، وأخلاق يتعامل بها مع غيره.

والواقع أن أحدهما لا يمكن فصله عن الآخر، إذ ما من خلق نفسى إلا وله جوانب اجتماعية، وما من خلق اجتماعى إلا وله جذور نفسية.

وإزاء هذا الترابط، ومراعاة للأصول المتبعة فى البحث العلمى، فقد رأيت الآتى:

(١) أن أقوم بتقسيم البحث إلى بابين، يختص كل واحد منهما بجانب من الجوانب.

(٢) عند الحديث عن خلق معين أراعى فيه الجانب الذى يغلب عليه، فأدرجه فى بابه، ولكن لا يمنعنى هذا من تناوله جميعه - بمظهريه النفسى والاجتماعى - وذلك مراعاة للترابط بين الأخلاق بعضها البعض.

والله تعالى من وراء القصد، وهو حسبى ونعم الوكيل.

* * *

الفصل الأول

الأخلاق القلبية

١. الصلة بالله تعالى

يُعَدُّ هذا الخُلق الدعامة الأولى فى حياة الدعاة إلى الله تعالى:

ويرجع السبب فى ذلك إلى ما يلى:

(١) أن الداعى إلى الله يهدف إلى تعريف الناس بربهم، وتوثيق علاقتهم به، فكيف يتأتى له ذلك إذا كان جاهلاً بالله، واهى الصلة به.

إن فاقد الشىء لا يعطيه، ومن لا يملك نصاباً لا يزكى.

(٢) يضاف إلى هذا أن عبء الدعوة ثقيل تعجز قدرة المرء عن تحمله بمفرده، بل ويضيع جهده فيها ما لم يصحبه توفيق الله وعونه.

وفى الإشارة إلى الترابط بين هذين المعنيين يقول نبى الله شعيب: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللَّهِ**﴾[١].

ويقول الشاعر:

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يجنى عليه اجتهاده

ولا يتأتى للمرء أن يصحبه توفيق الله ونصرته - وبالتالى نجاحه - ما لم يكن على صلة وثيقة بربه، وعلاقة وطيدة بمولاه.

يقول قتادة: «من يتق الله يكن معه، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التى لا تغلب، والحارس الذى لا ينام، والهادى الذى لا يضل»[٢].

من أجل هذا - وغيره - حرص سلفنا الصالح - رضوان الله عليهم - على توطيد

---

(١) سورة هود (٨٨).

(٢) جامع العلوم والحكم (ص٢٢٨) ابن رجب الحنبلى - طبع مكتبة الدعوة الإسلامية.

علاقتهم بربهم، وتوثيق صلتهم به، واشتهر الكثيرون منهم بهذا.

وإليك ـ أخى الداعية ـ بعضًا مما ورد عنهم:

(١) عن أبى ضمرة أنس بن عياض قال: «رأيت صفوان بن سليم ولو قيل له غدًا القيامة، ما كان عنده مزيد على ما هو عليه من العبادة»[١].

(٢) وعن شعيب بن حرب قال: «جلست إلى عبد العزيز بن أبى روّاد خمسمائة مجلس، فما أحسب صاحب الشمال كتب شيئًا»[٢].

(٣) وعن الحاكم قال: «صحبت أبا الحسين محمد بن محمد الحجاجى المقرى نيفا[٣] وعشرين سنة، بالليل والنهار، فما أعلم أنى علمت أن الملك كتب عليه خطيئة»[٤].

(٤) وعن عمرو بن مرة قال: «حدثنى رجل من أهل ربيع بن خثيم، فقال: ما سمعنا من ربيع كلمة نراه عصى الله فيها منذ عشرين سنة»[٥].

هذا؛ وتأخذ الصلة بالله تعالى مظهرين يحرص عليهما المسلم ـ وبالأحرى الدعاة ـ وهما:

(أ) ترك المعاصى. (ب) فعل الطاعات.

وفيما يلى بيان إجمالى عن كل منهما:

(أ) ترك المعاصى:

يُعَدُّ فعل المعاصى عقبة فى طريق وصول المرء إلى ربه تبارك وتعالى، كما أنها ـ أى المعاصى ـ مجلبة للشقاء العاجل فى الدنيا والآجل فى الآخرة.

وفى الدلالة على هذا المعنى يقول النبى ﷺ: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت

(١) صفة الصفوة (جـ٢ ـ ص١٥٣) ـ ابن الجوزى.

(٢) المرجع السابق (جـ٢ ـ ص٢٢٨).

(٣) النيف: الزيادة، ويجوز فيها تشديد الياء وتخفيفها ـ انظر (مختار الصحاح) ـ مادة: نيف.

(٤) تذكرة الحفاظ (جـ٣ ـ ص١٤٦) الذهبى.

(٥) الزهد لعبد الله بن المبارك (ص٦) من زوائد نعيم بن حماد على ما رواه المروزى عن عبد الله بن المبارك ـ وهى ملحقة بنفس الكتاب ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ تحقيق الشيخ عبد الرحمن الأعظمى.

فى قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقُل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الرَّان الذى ذكر الله ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[١] الآية»[٢].

وورد عن الإمام الجليل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: «إن للحسنة ضياء فى الوجه، ونوراً فى القلب، وسعة فى الرزق، وقوة فى البدن، ومحبة فى قلوب الخلق. وإن للسيئة سواداً فى الوجه، وظلمة فى القلب، ووهناً فى البدن، ونقصاً فى الرزق، وبغضة فى قلوب الخلق»[٣].

ويطول الحديث عن الآثار السيئة للمعاصى، ولكن فيما ذكرناه كفاية، حيث الإسهاب فى مثل هذه الموضوعات يخرج بنا عن الغرض الأساسى من بحثنا، وهو أخلاق الدعاة.

ونحيل من أراد الاستزادة فى هذا الموضوع إلى كتاب (الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى) للإمام ابن القيم، وقد استفاض فيه الإمام الجليل فى آفات المعاصى، فذكر ما يقارب أربعين آفة تلحق العاصى فى بدنه أو ماله أو نفسه، وفى دنياه أو فى أخراه.

ولكون المعصية بهذه المنزلة من الخطورة وجدنا سلفنا الصالح ـ رضى الله تعالى عنهم ـ يؤكدون على أن ترك المعاصى من أهم ما يجب حرص المرء المسلم عليه، بحيث يفوق اهتمامه بهذا الأمر سائر الاهتمامات.

تقول أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها: «إنكم لن تلقوا الله بشىء خير لكم من قلة الذنوب، فمن سره أن يسبق الدائب المجتهد فليكف نفسه عن كثرة الذنوب»[٤].

---

(١) سورة المطففين (١٤).

(٢) أخرجه الترمذى، واللفظ له (جـ٥ ـ ص٤٣٤) كتاب التفسير ـ باب تفسير سورة المطففين ـ وقال عنه: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه بنحوه (جـ٢ ص١٤١٨) كتاب الزهد ـ باب ذكر الذنوب.

(٣) الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى (ص٤٧) ابن قيم الجوزية ـ مطبعة المدنى ـ تحقيق دكتور محمد جميل غازى.

(٤) صفة الصفوة (جـ٢ ـ ص٣٢) أبو الفرج ابن الجوزى.

وقال سفيان بن عيينة: «لم يجتهد أحد قط اجتهادًا، ولم يتعبد أحد قط عبادة أفضل من ترك ما نهى الله عنه»[١].

هذا؛ وتشير السنة إلى أن هناك تناسبًا طرديًا بين الإيمان والخوف من الذنوب، بمعنى أن زيادة الإيمان يطرد معها زيادة الخوف من فعل الذنب، وقلة الإيمان يصاحبها قلة خوف من فعله.

فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ على أنفه، فقال به: هكذا. قال أبو شهاب: بيده فوق أنفه»[٢].

وفى حياة سلف الأمة الصالح كثير من الأمثلة تدل على ترفع أصحابها عن فعل المعاصى، تأدبًا مع الله، وتمسكًا بمنهجه.

وإليك ـ أخى الداعية ـ هذا المثال من حياة أحد الأئمة العلماء.

روى ابن أبى الدنيا بإسناده عن الحسن قال: «ما نظرت ببصرى، ولا نطقت بلسانى، ولا بطشت بيدى، ولا نهضت على قدمى، حتى أنظر: أعلى طاعة الله، أو على معصيته. فإن كان على طاعة تقدمت، وإن كان على معصية تأخرت»[٣].

ولله در القائل يناجى ربه:

عزمت على أن لا أحس بخاطر ... على القلب إلا كنت أنت المقدَّمَا

وأن لا ترانى عند ما قد نهيتنى ... لأنك فى قلبى كبيرًا معظمًا

ولا أريد الاسترسال مع هذه النقطة، فهى من البداهة بمكان، فمعرفة العامَّة ـ فضلاً عن الدعاة ـ بخطورة المعصية أمرٌ واضحٌ بيِّن.

ولكن الأمر الذى يُطَالب به الداعية ـ فوق ترك المعصى ـ هو الورع، ومعناه:

---

(١) المرجع السابق (جـ٢ ـ ص٢٣٥).

(٢) أخرجه البخارى (جـ٤ ـ ص٩٨) كتاب الدعوات ـ باب التوبة، وأخرجه الترمذى بنحوه (جـ٤ ـ ص٦٥٨) كتاب صفة القيامة ـ باب رقم ٤٩ منه، وأخرجه أحمد (جـ١ ـ ص٣٨٣).

(٣) تحقيق كلمة الإخلاص (ص٢٧) ابن رجب الحنبلى ـ طبعة ثانية سنة ١٩٨٤ ـ دار الفتح ـ بتحقيق الدكتور أسامة عبد العظيم.

جعل الإنسان بينه وبين الحرام جانبًا من الحلال، فيدع ما فيه شبهة خشية أن يكون حرامًا.

يقول رسول الله ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا لما به البأس»[١].

وقال أبو الدرداء: «إن من تمام التقوى أن يتقي العبد في مثقال ذرة، حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حرامًا، حتى يكون حجابًا بينه وبين النار»[٢].

فالداعية ـ باعتباره قدوة ـ يحرص على التورع ما أمكن، ولا يرضى لنفسه بالترخص في كل شيء، اعتمادًا على قول فلان أو فلان[٣].

يقول ابن جماعة الكناني: «على العالم أن يأخذ نفسه بالورع في جميع شأنه، ويتحرى الحلال في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه وفي جميع ما يحتاج إليه هو وعياله، ليستنير قلبه، ويصلح لقبول العلم ونوره والنفع به، ولا يقنع لنفسه بظاهر الحل شرعًا مهما أمكنه التورع، ولم تلجئه حاجة، أو يجعل حظه الجواز، بل يطلب الرتبة العالية، ويقتدي بمن سلف من العلماء الصالحين في التورع عن كثير مما كانوا يفتون بجوازه، فإن أهل العلم يقتدى بهم، ويؤخذ عنهم، فإذا لم يستعملوا الورع فمن يستعمله؟»[٤].

هذا، وللورع منزلة رفيعة تفوق كثيرًا من العبادات المشهورة المعروفة.

يقول الإمام الحسن البصري رضي الله عنه: «مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة»[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي، وحسنه (جـ٤ ـ ص٦٣٤) كتاب صفة القيامة ـ باب رقم ١٩ منه، وأخرجه ابن ماجه (جـ٢ ـ ص١٤٠٩) كتاب الزهد ـ باب الورع والتقوى.

(٢) إحياء علوم الدين (جـ٥ ـ ٨١٧) أبو حامد الغزالي.

(٣) في خطورة الترخص في الأعمال تبعًا للفتوى يقول سليمان التيمي: «إن أخذت برخصة كل عالم اجتمع فيك الشر كله» جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١١٢، وقال إبراهيم بن أدهم: «إذا حملت شاذًّ العلماء حملت شرًا كثيرًا» الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢/ ١٦٠.

(٤) تذكرة السامع والمتكلم (ص٧٥، ٧٦) بتصرف.

(٥) مدارج السالكين (جـ٢ ـ ص١٦) ابن قيم الجوزية ـ طبعة أولى سنة ١٩٨٢ ـ دار التراث العربي.

وعن أبى إسماعيل المؤدب قال: «جاء رجل إلى العمرى (وهو عبد الله بن عبد العزيز العمرى) فقال: عظنى. قال: فأخذ حصاة من الأرض فقال: «زِنَةُ هذه من الورع يدخل قلبك خير لك من صلاة أهل الأرض»[١].

• وحتى يتأكد الكلام المجرد بشواهد الواقع أسوق إليك - أخى الداعية - هذه الأمثلة:

(١) عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ مرَّ بتمرة بالطريق فقال: «لولا أن تكون من الصدقة لأكلتها»[٢].

(٢) وحكى عن أبى حنيفة وسفيان الثورى رضى الله عنهما أنهما قالا: «لأن أخرَّ من السماء أهون علىَّ من أن أفتى بتحريم قليل النبيذ، وما شربته قط ولا أشربه»[٣].

فانظر كيف سلكا مسلك الرخصة فى الفتوى، وسلكا فى العمل مسلك التقوى.

(٣) وعن فاطمة بنت عبد الملك زوج عمر بن عبد العزيز قالت: «اشتهى عمر ابن عبد العزيز يومًا عسلاً، فلم يكن عندنا، فوجهنا رجلاً على دابة من دواب البريد إلى بعلبك بدينار، فأتى بعسل.

فقلت: إنك ذكرت عسلاً، وعندنا عسل، فهل لك فيه؟

قالت: فأتيناه به فشرب، ثم قال: من أين لكم هذا العسل؟

قالت: وجهنا رجلاً على دابة من دواب البريد بدينار إلى بعلبك، فاشترى لنا عسلاً.

فأرسل إلى الرجل فقال: انطلق بهذا العسل إلى الـ ـق فبعه، واردد إلينا رأس مالنا، وانظر إلى الفضل فاجعله فى علف دواب البريد، ولو كان ينفع المسلمين

(١) صفة الصفوة (جـ٢ ـ ١٨٣).

(٢) أخرجه مسلم، واللفظ له (جـ٢ ـ ص٧٥٢) كتاب الزكاة ـ باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ وعلى آله، وأخرجه البخارى بنحوه (جـ٢ ـ ص٤) كتاب البيوع ـ باب ما يتنزه من الشبهات.

(٣) عمدة القارى ـ شرح صحيح البخارى (جـ١ ـ ص٣٣٤) بدر الدين العينى ـ طبعة أولى سنة ١٩٧٢ ـ مصطفى الحلبى.

قيء لتقيأت»[١].

(٤) وذكر الإمام النووى فى مقدمة كتاب «المجموع شرح المهذب»[٢] «أن أبا إسحاق الشيرازى دخل يومًا مسجدًا ليأكل طعامًا على عادته، فنسى فيه دينارًا، فذكره فى الطريق، فرجع فوجده، ففكر ساعة وقال: ربما وقع هذا الدينار من غيرى، فتركه ولم يمسه». اهـ.

ويطول الكلام عن أحوال الورعين، ولكن خير الكلام ما قل ودَلَّ.

ومن أراد مزيدًا من التعرف على أحوالهم فليقرأ ما كتبه الإمام أبو حامد الغزالى فى الإحياء فى كتاب الحلال والحرام، ففيه نفائس حول هذا الموضوع.

فإن أهمل الداعية أخذ نفسه بالورع، وأطلق لنفسه العنان فى مواقعة الشبهات، فقد عرَّض نفسه للوقوع فى الحرام - كما نصَّت على ذلك السنة - وكذلك فإنه يُحْرِم من نور العلم وثمرته، مهما كان علمه كثيرًا، ودرجته فيه راقية.

يقول ابن عيينة: «إذا كان نهارى نهار سفيه، وليلى ليل جاهل، فما أصنع بالعلم الذى كتبت؟»[٣].

• وجدير بالذكر أن على الداعية ضرورة التفريق بين هذه الأشياء:

(١) بين الورع واستعمال الرخص فى مواضعها عند الحاجة إليها ووجود سببها، ففى تلك الحالة ينبغى له استعمال الرخصة ليقتدى به فيها، فإن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه[٤].

(٢) وينبغى كذلك أن يفرق بين الورع والوسوسة، فإن الورع طاعة للرحمن، والوسوسة استجابة للشيطان، والأول مبنى على حكم شرعى، والثانى مبنى على الوهم.

* * *

(١) كتاب الورع (ص٥٠) الإمام أحمد بن حنبل - طبعة ثانية سنة ١٤٠١ هـ - المكتب السلفى.
(٢) المرجع المذكور (جـ١ - ص٣٣).
(٣) أخلاق العلماء (ص٤٩) أبو بكر الآجرى.
(٤) انظر (تذكرة السامع والمتكلم) ص٧٦ - ابن جماعة الكنانى.

(ب) فعل الطاعات:

يحتاج الداعية - بجانب أسلوب الوقاية الذى انتهجه بترك المعاصى - إلى ما يشد أزره، وينهض بهمَّته فى طريق الدعوة إلى الله.

وإنما يكون ذلك بمداومة ذكر الله تعالى، والقيام بكافة وظائف الطاعة.

يقول الإمام ابن القيم فى كتابه «مدارج السالكين»:

«فى القلب شعث لايلمه إلا الإقبال على الله.

وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله.

وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وصدق معاملته.

وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار إليه.

وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه.

وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له.

ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدًا»[١].

هذا، ويحرص الداعية فى هذا المجال على أخذ نفسه بالكمال، فهو إن أدى الفرائض راعى فيها أن تكون فى أكمل صورة.

ويستأنس لهذا المعنى بما ورد فى الحديث عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «يا معاذ: والله إنى لأحبك. فقال: أوصيك يا معاذ لا تدعنَّ فى دبر كل صلاة تقول: اللهم أعنى على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك»[٢].

والشاهد فى الحديث أنه ﷺ وجهه إلى سؤال الله حسن العبادة، وليس مجرد العبادة.

---

(١) نقلاً عن (الخصائص العامة للإسلام) للدكتور يوسف القرضاوى - ص١٢ طبعة أولى ١٩٧٧ - مكتبة وهبة.

(٢) أخرجه أبو داود، وسكت عنه (جـ١ - ص٣٨١) كتاب الوتر - باب فى الاستغفار، وأخرجه النسائى بنحوه (جـ٣ - ص٤٥) كتاب السهو - باب الدعاء بعد الذكر، وأخرجه أحمد (جـ٥ - ٢٤٥).

وكذلك فإن الداعية لا يقتصر على أداء الفرائض، بل يجتهد فى الإكثار من النوافل حتى ينال الحظوة والمنزلة عند الله تعالى، والتى أشار إليها رب العزة فى حديثه القدسى فقال: «من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحبَّ إلىَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه»[١].

هذا؛ وتتعدد ألوان الطاعات، وتتشعب فروعها، مما يجعل الإلمام بها فى هذه الإشارات أمرًا صعبًا، ومن ثم نكتفى بالإشارة إلى بعضها، شحذًا لهممنا، واستنهاضا لعزائمنا.

(١) المحافظة على صلاة الجماعة بالمسجد:

رغبت السنة فى كثير من توجيهاتها فى صلاة الجماعة، وأكدت على ضرورة المحافظة عليها، عملاً بما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام.

ومن أجمع ما روى فى هذا الأمر حديث عبد الله بن مسعود قال: «من سرَّه أن يلقى الله غدًا مسلمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن[٢]، فإن الله شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى. ولو أنكم صليتم فى بيوتكم كما يصلى هذا المتخلف فى بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم. وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة، ويرفعه بها درجة، ويحط عنه بها سيئة. ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق. ولقد كان الرجل يؤتى به يُهَادَى[٣] بين الرجلين حتى يقام فى الصف»[٤].

---

(١) أخرجه البخارى، واللفظ له (جـ٤ ـ ص١٢٩) كتاب الرقاق ـ باب التواضع، وأخرجه أحمد بنحوه (جـ٦ ـ ص٢٥٦).

(٢) يعنى بذلك المسجد.

(٣) يُهادى بين الرجلين، أى يمشى بينهما معتمدًا عليهما من ضعفه وتمايله، من تهادت المرأة فى مشيتها إذا تمايلت. كذا فى النهاية فى غريب الحديث والأثر (جـ٥ ـ ص٢٥٥) مادة: هدى.

(٤) أخرجه مسلم (جـ١ ـ ص٤٥٣) كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ باب صلاة الجماعة من سنن الهدى، وأخرجه أبو داود بنحوه (جـ١ ـ ص١٤٦) كتاب الصلاة ـ باب فى التشديد فى ترك =

بهذا الأسلوب كان حرص الصحابة الأوائل على أداء الصلاة جماعة فى المسجد، وعلى هديهم سار علماء الأمة، ودعاتها المخلصون.

وإليك ـ أخى الداعية ـ بعضًا من الأمثلة فى حرص الدعاة الأوائل على صلاة الجماعة، راجيًا من الله أن يوفقنا لترسم خطاهم، واقتفاء آثارهم.

(١) روى أن الربيع بن خثيم كان ـ بعد أن أصابه الفالج[١] ـ يُهَادَى بين رجلين إلى مسجد قومه، وكان يقال له: يا أبا يزيد: لقد رخص الله لك. لو صليت فى بيتك؟. فيقول: إنه كما تقولون، ولكنى سمعته ينادى: «حى على الفلاح»، فمن سمع منكم فليجبه ولو زحفًا، ولو حبوًا[٢].

(٢) وعن مصعب بن عبد الله قال: سمع عامر بن عبد الله المؤذنَ، وهو يجود بنفسه، ومنزله قريب من المسجد، فقال: خذوا بيدى. فقيل له: إنك عليل. فقال: أسمع داعى الله فلا أجيبه؟. فأخذوا بيده، فدخل فى صلاة المغرب، فركع مع الإمام ركعة ثم مات[٣].

هذا؛ ولم يكن حرص السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ على إدراك الجماعة فى المسجد وحسب، بل كانوا يبادرون بالذهاب إلى المسجد مبكرين قبل صلاة الجماعة بوقت كاف.

يقول سفيان بن عيينة: «إن من توقير الصلاة أن تأتى قبل الإقامة»[٤].

ومن الأمثلة العملية على هذا التبكير ما روى عن بُرد مولى سعيد بن المسيب قال: «ما نودى بالصلاة منذ أربعين سنة إلا وسعيد فى المسجد»[٥].

= الجماعة، وأخرجه النسائى (جـ٢ ـ ص٨٤) كتاب الإمامة ـ باب المحافظة على الصلوات حيث ينادى بهن، وأخرجه ابن ماجه (جـ١، ص٢٥٥) كتاب المساجد والجماعة ـ باب المشى إلى الصلاة، وأخرجه أحمد (جـ١ ـ ص٣٨٢).

(١) الفالج: داء يرخى بعض البدن.

(٢) صفة الصفوة (جـ٣ ـ ص٦٢).

(٣) نفس المرجع (جـ١ ـ ص١٣١).

(٤) نفس المرجع (جـ٢ ـ ص٢٣٥).

(٥) نفس المرجع (جـ٢ ـ ص٨٠).

وكذلك فإن سلف الأمة الصالح ما كانوا يَدَعُونَ أنفسهم من التعزير إذا فاتتهم صلاة الجماعة، فهذا واحد منهم كان إذا فاتته صلاة الجماعة فى الفجر أصبح لله تعالى صائمًا.

وأورد أبو نعيم فى الحلية عن نافع أن ابن عمر رضى الله عنهما كان إذا فاتته صلاة العشاء فى جماعة أحيا بقية ليلته[١]. وورد عنه أيضًا أنه كان إذا فاتته صلاة فى جماعة صلَّى إلى الصلاة الأخرى[٢].

فما أجمل أن يترسم الدعاة هذه الخُطَى، وأن يوقظوا هممهم بمطالعة أحوال هؤلاء المجتهدين.

فإن أبت نفوسهم إلا التكاسل فليسلكوا مسلك التعزير مثلما كان يفعل عبد الله ابن عمر مع نفسه، وليفترض كل منهم ـ عند وجود داعى التكاسل ـ أنه من الصيادين أو العسكريين أو غيرهم، فإن هؤلاء تفرض عليهم طبيعة عملهم التبكير فى الاستيقاظ، والحرص على ضبط المواعيد.

فإذا كان هذا حال طالب لقمة العيش، والحريص على تنفيذ أوامر قادته، أليس الله أحق أن يطاع؟ ومبادرة الوقوف بين يديه أليست أحق أن ينافس فيها العباد؟

فهلمَّ ـ أخى الداعية ـ إلى صلاة الفجر خاصة، واضبط مواعيدك مع سائر الصلوات، فإنه يرجى ـ إن فعلت ذلك ـ أن يبارك الله فى وقتك وجهدك، ويعم النفع بعملك قبل أن يعم بعلمك.

(٢) المحافظة على قيام الليل:

سبقت الإشارة إلى أن الداعية يجتهد فى الإكثار من نوافل الطاعات حتى ينال الحظوة والمنزلة عند الله تعالى.

ولكل لون من ألوان العبادات نوافل من جنسه، يحرص الداعية على أن يأخذ نصيبه من كلٍّ منها قدر المستطاع.

ونوافل الصلاة ـ مثلاً ـ كثيرة جدًا، منها ما هو مرتبط بالفرائض، ومنها ما هو

---

(١) المرجع المذكور (جـ١ ـ ص٣٠٣).

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة (جـ٢ ـ ص٣٤٩) ـ طبعة سنة ١٩٧٨ ـ دار الفكر ـ بيروت.

مرتبط بأحوال ووقائع تطرأ على الناس، ومنها ما هو مطلق لا يقيد بسبب.

وهذه النوافل تتفاوت فى درجة أهميتها ومنزلتها.

وتحتل صلاة قيام الليل أعلى منزلة فى هذه النوافل كلها، ففى الحديث: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»(١).

ويقول عمرو بن العاص رضى الله عنه: «ركعة بالليل خير من عشر بالنهار»(٢).

وفى علة تفضيل هذه النافلة على ما سواها عدة أسباب:

(١) أن الصلاة بالليل يتواطأ فيها القلب مع اللسان لقلة الشواغل، فيكون المرء فى صلاة الليل أكثر تدبراً.

والقرآن يشير إلى هذا المعنى فيقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا**﴾(٣).

(٢) أن أبواب السماء تفتح فى أوقات الليل - وبخاصة قرب الفجر - مما يجعل إجابة الدعاء فى هذا الوقت آكد من غيره، ففى الحديث: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا - حين يبقى ثلث الليل الآخر - يقول: من يدعونى فأستجيب له؟ من يسألنى فأعطيه؟ من يستغفرنى فأغفر له؟»(٤).

---

(١) رواه مسلم (جـ٢ - ص٨٢١) كتاب الصيام - باب فضل صوم المحرم، ورواه أبو داود بنحوه (جـ١ - ص٦١٥) كتاب الصوم - باب فى صوم المحرم، ورواه الترمذى (جـ٢ - ص٣٠١) أبواب الصلاة - باب ما جاء فى فضل صلاة الليل، ورواه النسائى (جـ٣ - ص١٦٨) كتاب قيام الليل، وتطوع النهار - باب فضل صلاة الليل، ورواه أحمد (جـ٢ - ص٣٤٤).

(٢) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف (ص٣٦) ابن رجب الحنبلى - دار الفتح - بدون تاريخ.

(٣) سورة المزمل (١ : ٦).

(٤) رواه البخارى، واللفظ له (جـ١ - ص٢٠٠) كتاب قيام الليل - باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، ورواه أبو داود (جـ٢ - ص٥٨٥)، كتاب السنة - باب فى الرد على الجهمية، ورواه الترمذى (جـ٥ - ص٥٢٦) كتاب الدعوات - باب رقم ٧٩ منه، ورواه أحمد (جـ١ - ص٣٨٨).

(٣) أن صلاة الليل أشق على النفس من سائر النوافل، لكونها تقع فى الليل الذى هو محل الراحة والدعة، فتكون الصلاة ـ وقتئذٍ ـ لونًا من المجاهدة، يتضاعف بسببها الأجر.

من أجل ذلك ـ وغيره ـ ورد الترغيب فى المحافظة على هذه النافلة العظيمة، وبيان أن أصحابها ينالون لأجلها عظيم الأجر.

فالله تعالى يمتدح عباد الرحمن بوصفه لهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾[١].

ويمتدح المتقين من عباده بقوله عنهم: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٢].

ويمتدح المؤمنين بآياته فيقول: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٣].

ونفى الله المساواة بين من يحيون ليلهم بالذكر، ومن هم فى غفلة، فقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ...﴾[٤].

وجاء فى الحديث: «أيها الناس: أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلُّوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[٥].

وعلى نفس الأسلوب الذى اتبعناه سابقًا أسوق إليك ـ أخى الداعية ـ هذه الأمثلة العملية من حياة الدعاة الأوائل:

(١) عن المغيرة قال: «قام النبى ﷺ حتى تورمت قدماه. فقيل له: غفر الله

---

(١) سورة الفرقان (٦٤).

(٢) سورة الذاريات (١٧ ـ ١٨).

(٣) سورة السجدة (١٦).

(٤) سورة الزمر (٩).

(٥) رواه الترمذى، وصححه (جـ٤ ـ ٦٥٢) كتاب صفة القيامة ـ باب رقم ٤٢ منه، ورواه ابن ماجه (جـ٢ ـ ص١٠٨٣) كتاب الأطعمة ـ باب إطعام الطعام، ورواه أحمد (جـ٥ ـ ص٥٤١).

لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. قال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟»[١]. وروى نحو ذلك عن عائشة رضى الله عنها.

(٢) وقال أبو سليمان الدارانى: «أهل الليل فى ليلهم أكثر من أهل اللهو فى لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء فى الدنيا»[٢].

(٣) وعن عبد المنعم بن إدريس عن أبيه قال: «صلى سعيد بن المسيب الغداة (أى الصبح) بوضوء العتمة (أى العشاء) خمسين سنة»[٣].

وقد ذكر أبو حامد الغزالى فى كتابه (إحياء علوم الدين) أن صلاة الفجر بوضوء العشاء قد تواتر عن كثير من التابعين بلغوا أربعين، وذكر منهم: صفوان ابن سليم، وفضيل بن عياض، ووهيب بن الورد، وطاووس، ووهب بن منبه، والربيع بن خثيم، وسعيد بن المسيب وغيرهم[٤].

(٤) وأورد ابن رجب الحنبلى فى كتابه (لطائف المعارف)[٥] أن امرأة حبيب كانت توقظه بالليل، وتقول: «ذهب الليل، وبين أيدينا طريق بعيد، وزادنا قليل، وقوافل الصالحين قد سارت قدامنا، ونحن قد بقينا».

فانظر ـ أخى الداعية ـ كيف حافظ سلف الأمة الصالح على هذه القربات العظيمة، ولم يتخلف أحد منهم عن المشاركة فى هذا الخير، سواء كان رجلاً أو امرأة.

ويبقى دورك أيها الأخ الكريم لتأخذ حظك من هذا الخير، ولتتأسى بسلف الأمة الصالح الذين هجروا لذيذ المنام، ووثير الفراش، ليلوذوا بالوقوف بين يدى الله، يقينًا منهم بأن المحروم من حرم الخير.

---

(١) أخرجه البخارى، واللفظ له (جـ٣ ـ ص١٨٩) كتاب التفسير ـ سورة الفتح (جـ١ ـ ص٤٥٦) كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ـ باب ما جاء فى طول القيام فى الصلوات، وأخرجه أحمد (جـ٤ ـ ص٢٥١).

(٢) إحياء علوم الدين (جـ٤ ـ ص٦٤١)، ولطائف المعارف (ص٤١).

(٣) صفة الصفوة (جـ٢ ـ ص٨٠).

(٤) المرجع المذكور (ص٦٤٢ ـ ص٦٤٣).

(٥) المرجع المذكور (ص٤٥).

يقول الفضيل بن عياض: «أدركت أقوامًا يستحيون من الله فى سواد الليل من طول الهجعة، إنما هو على الجنب، فإذا تحرك قال: ليس هذا لك، قومى خذى حظك من الآخرة»[١].

هذا؛ ومما يحفز همتك أيها الأخ المسلم لهذه العبادة ملاحظة ما يلى:

(١) أن قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[٢]، لا يقتصر على الإنفاق المالى فقط، بل يتعداه إلى جميع ألوان الإنفاق من وقت وجهد وغيرهما، فمن أنفق شيئًا لله ـ كائنًا ما كان ـ عوضه الله خيرًا منه.

وبناء على هذا فإن هجرك للفراش ولذيذ المنام، وسعيك للقاء الله فى صلاة الليل، سيعوضه الله لك بركة فى وقتك، وصحة فى جسدك، ونورًا فى وجهك.

ومما يروى فى هذا أن الإمام الحسن البصرى رضى الله عنه سئل، فقيل له: ما بال المتهجدين بالليل من أحسن الناس وجوهًا؟ قال: لأنهم خلوا بالرحمن، فألبسهم نورًا من نوره[٣].

(٢) أن قول النبى ﷺ (ما نقصت صدقة من مال)[٤] وإن كان صريحًا فى الجانب المالى من الصدقة، فإن البعض يرى أنه ينسحب على المعنويات أيضًا، فقالوا فى قيام الليل إن ساعاته لا تُنْتَقص من وقت الراحة بالليل، بمعنى أن من اعتاد أن ينام ثمانى ساعات، فنام يومًا سبع ساعات، وقام ساعة، كان بمقام من نام الساعات الثمانى كاملة.

وإن من يتابع أحوال المعتكفين بالمساجد ـ فى رمضان على سبيل المثال ـ يرى صدق هذا الكلام، حيث يواصل المعتكفون بالمساجد الصلاة معظم الليل، ويأخذون حظًا قليلاً من الراحة، ومع ذلك لا يبدو عليهم تغير أو إرهاق.

---

(١) صفة الصفوة (جـ٢ ـ ص٢٤١).

(٢) سورة سبأ (٣٩).

(٣) إحياء علوم الدين (جـ٤ ـ ص٦٣٦).

(٤) أخرجه مسلم (جـ٤ ـ ص٢٠٠١) كتاب البر والصلة والآداب ـ باب استحباب العفو، وأخرجه الترمذى (جـ٤ ـ ص٣٧٦) كتاب البر والصلة ـ باب ما جاء فى التواضع، وأخرجه أحمد (جـ٢ ـ ص٢٣٥).

فلتبادر ـ أخى الداعية ـ إلى البدء فى قيام الليل، ولو بالقليل، فإن ما لا يدرك كله لا يترك كله.

وقد ورد فى الحديث عن ابن عباس قال: «تذكرت قيام الليل، فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قال: نصفه، ثلثه، ربعه، فواق حلب ناقة، فواق حلب شاة»[١].

(٣) الإكثار من ذكر الله تعالى:

يحتاج الداعية دائمًا إلى معية الله تعالى، ليستلهم منه التوفيق والسداد فى رسالته فى الدعوة إلى الله تعالى.

وتشير نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة إلى أن أكبر معين للإنسان فى هذا المجال ـ وفى غيره ـ هو كثرة ذكر المرء لله تعالى.

قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[٢].

وقال عليه الصلاة والسلام فيما يروى عن رب العزة فى الحديث القدسى: «أنا مع عبدى حيثما ذكرنى، وتحركت بى شفتاه»[٣].

هذا، ولذكر الله تعالى فوائد جمَّة، ومنافع عظيمة، تكفلت ببيانها كتب المطولات.

وعلى سبيل التذكير ببعض هذه الكتب نشير إلى أن الإمام ابن قيم الجوزية قد ألَّف كتابًا أسماه (الوابل الصيب من الكلم الطيب) ذكر فيه من فوائد الذكر تسعًا وسبعين فائدة، واستوعب حديثه التفصيلى عن هذه الفوائد معظم هذا الكتاب.

ولا أريد الاسترسال فى ذكر ما أورده ابن القيم فى فوائد الذكر، ولكنى أشير ـ فقط ـ إلى فائدتين نصَّت عليهما السنة، وهما من أهم ما يحتاج إليهما الإنسان:

(١) أن الإنسان يخطئ، ويحتاج إلى ما يكفر خطاياه، فإن الحسنات يذهبن

---

(١) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (جـ٢ ـ ص٢٥٢) وقال عنه: رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح ـ طبع مكتبة القدسى ـ بدون تاريخ.

(٢) سورة البقرة (١٥٢).

(٣) أخرجه البخارى (جـ٤ ـ ص٣٠٤) كتاب التوحيد ـ باب قول الله تعالى: ﴿لا تُحَرِّكْ به لسانك لتعجل به﴾، وأخرجه أحمد (جـ٢ ـ ص٥٤٠).

السيئات، وذكر الله تعالى من أعظم الحسنات، فهو - بالتالى - من أعظم مكفرات الخطايا.

وفى الحديث: «ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل..»[١].

(٢) أن الذكر من أعظم الأعمال التى يرفع الله بها العبد درجات، فهو - إلى جانب عظيم فائدته فى غفران الذنوب، وتكفير السيئات - يرقى بالإنسان إلى أسمى المراتب، وأرفع المقامات.

وفى الحديث: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها فى درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والوَرِق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى. قال: ذكر الله تعالى»[٢].

من أجل هذا - وغيره - ورد الأمر بذكر الله تعالى فى كثير من الآيات والأحاديث، موصوفًا بشيئين:

(١) الكثرة.

(٢) الدوام.

فعن الكثرة فى الذكر يقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا**﴾[٣].

وفى الحديث عن عبد الله بن بسر رضى الله عنه: أن رجلاً قال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علىَّ، فأخبرنى بشىء أتشبث به.

---

(١) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (جـ١٠ - ص٧٣) وقال عنه: رواه الطبرانى، ورجاله رجال الصحيح، ورواه الترمذى موقوفًا على معاذ (جـ٥ - ص٤٥٩) كتاب الدعوات - باب ما جاء فى فضل الذكر، ورواه ابن ماجه موقوفًا أيضًا (جـ٢ - ص١٢٥٤) كتاب الأدب - باب فضل الذكر.

(٢) رواه الترمذى، واللفظ له (جـ٥ - ص٤٥٩) كتاب الدعوات - باب ما جاء فى فضل الذكر، ورواه ابن ماجه بنحوه (جـ٢ - ص١٢٤٥) كتاب الأدب - باب فضل الذكر، ورواه أحمد (جـ٥ - ص١٩٥).

(٣) سورة الأحزاب (٤١).

قال: «لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله»[١].

وعن الدوام على الذكر قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾[٢].

قال ابن عباس رضى الله عنهما فى تعليق له على هذه الآية: «أى بالليل والنهار، فى البر والبحر، والسفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال»[٣].

وكما حرص سلف الأمة الصالح من الدعاة إلى الله على السبق فى شتى مجالات الخير، فقد كان لهم دور بارز فى هذا المجال أيضًا.

• وإليك - أخى الداعية - بعضًا مما ورد من أحوال الدعاة إلى الله فى هذا المجال:

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان النبى ﷺ يذكر الله على كل أحيانه»[٤].

(٢) قال الربيع: «ما رأيت البويطى بعد ما فطنت له إلا رأيت شفتيه يتحركان بذكرٍ أو قراءة»[٥].

(٣) يقول الإمام ابن تيمية - فيما رواه عنه تلميذه ابن القيم -: «الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء»؟.

---

(١) أخرجه الترمذى وحسنه (جـ٥ - ص٣٥٨) كتاب الدعوات - باب ما جاء فى فضل الذكر، وأخرجه أحمد (جـ٤ - ص١٩٠).

(٢) سورة النساء (١٠٣).

(٣) تفسير ابن كثير (جـ٣ - ص٤٩٥) طبعة عيسى الحلبى.

(٤) أخرجه البخارى (جـ١ - ص١١٨) كتاب الأذان - باب هل يتتبع المؤذن فاه هنا وهنا، وهل يلتفت فى الأذان، وأخرجه مسلم (جـ١ - ص٢٨٢) كتاب الحيض - باب ذكر الله تعالى فى حال الجنابة وغيرها، وأخرجه أبو داود (جـ١ - ص١٣) كتاب الطهارة - باب فى الرجل يذكر الله تعالى على غير طهر، وأخرجه ابن ماجه (جـ١ - ص١١٠) كتاب الطهارة - باب ذكر الله عز وجل على الخلاء، وأخرجه أحمد (جـ٦ - ص٧٠).

(٥) المجموع شرح المهذب (جـ١ - ص١٥٥) الإمام النووى.

ثم يردف هذا القول بحكاية عن شيخه ابن تيمية تدل على أن هذا الإمام لم يكن يكتفى فى دعوته للإكثار من الذكر بمجرد الكلام، فيقول:

«حضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إلىَّ وقال: هذه غدوتى، ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتى - أو كلامًا قريبًا من هذا - وقال لى مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسى وإراحتها، لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر، أو كلامًا هذا معناه»[١] اهـ.

وكان السلف الصالح - رضوان الله عليهم - يتحينون الأوقات الفاضلة التى ورد ترغيب فى إحيائها بذكر الله، ليكونوا فى طليعة من يسارع إلى هذا الخير.

ومن هذه الأوقات ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس وارتفاعها حتى تزول كراهية الصلاة.

يقول الإمام النووى: «اعلم أن أشرف أوقات الذكر فى النهار الذكر بعد صلاة الصبح»[٢].

وفى فضيلة إحياء هذا الوقت بالطاعة والذكر يقول رسول الله ﷺ: «من صلى الغداة فى جماعة، ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة. قال رسول الله ﷺ: تامة، تامة، تامة»[٣].

ومما يروى فى حرص السلف الصالح - رضى الله عنهم - على إحياء هذا الوقت بالذكر والدعاء، ما روى عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه كان يحيى هذا الوقت بذكر الله، فإذا أحس بالفتور والكسل أخذ يدور فى

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص٣٩ - ص٤٠) ابن قيم الجوزية - طبعة خامسة سنة ١٤٠٠هـ - مكتبة الدعوة الإسلامية.

(٢) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار (ص٧٠) الإمام النووى - طبعة رابعة سنة ١٩٥٥م - طبعة عيسى الحلبى.

(٣) أخرجه الترمذى وحسنه (جـ٢ - ص٤٨١) كتاب الصلاة - باب ذكر ما يستحب من الجلوس فى المسجد بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس، وأخرجه الطبرانى بنحوه بسند جيد (جـ١٠ - ص١٠٤) من مجمع الزوائد.

صحن بيته، ويردد على نفسه قول الشاعر:

وكيف تنام العين وهى قريرة ولم تـدر أىَّ المحليــن تنـزل[١]

هذا؛ ويطول الكلام عن فضائل الذكر، وأنواعه، وأوقاته المختارة، وغير ذلك مما لا يتسع المجال لذكره.

ومن ثم فإنى أكتفى بما ذكرته، وأحيل من يرغب فى الاستزادة من هذا الموضوع إلى الكتب المتخصصة فى هذا المجال، ومن أجمعها كتاب (الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار) للإمام النووى، وغيره، وغيره.

• الخاتمة:

بعد هذه الجولة مع الصفة الأولى من صفات الدعاة، وهى صلة الداعية بالله تعالى، وبيان بعض مظاهرها، أضع أمامك ـ أخى الداعية ـ بعضًا من الوسائل التى تعينك ـ بمشيئة الله تعالى ـ على تحقيق التقدم فى هذا المجال، وغيره.

وهذه الوسائل هى:

(١) محاسبة النفس.

(٢) الإحساس بالتقصير الدائم فى حق الله تعالى.

(٣) الالتزام بالطاعات على هيئة أوراد يومية.

فأما المحاسبة للنفس فإنها ضرورية ليعرف المرء إلى أى مدى وصل، فإن كان خيرًا حمد الله واستزاد، وإن كان غير ذلك استغفر الله وندم.

ولأهمية المحاسبة فى حياة المرء المسلم أوصى بها سلف الأمة الصالح، وتواترت كلماتهم فى هذا.

روى عن سيدنا عمر بن الخطاب قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزينوا للعرض الأكبر، وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه فى الدنيا»[٢].

---

(١) توجيهات نبوية على الطريق (جـ١ ـ ص٤٩) دكتور/ السيد محمد نوح ـ طبعة أولى سنة ١٩٨٦ ـ دار الوفاء.

(٢) سنن الترمذى (جـ٤ ـ ص٦٣٨) كتاب صفة القيامة ـ باب رقم (٢٥) منه.

وقال مالك بن دينار رحمه الله: «رحم الله عبدًا قال لنفسه: ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟، ثم ذمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائدًا»[١].

وقال مسروق: «المرء حقيق أن يكون له مجالس يخلو فيها، فيذكر ذنوبه، فيستغفر الله»[٢].

وحتى تكون محاسبة النفس عملية وليست شكلية يجب أن يكون لك ـ أخى الداعية ـ ورد للمحاسبة، تستعرض فيه أعمال الخير، وأعمال الشر، وترى نفسك بينهما.

• وإليك بعضًا من الأسئلة التى يجب أن تطرحها على نفسك، لتتم على أساسها المحاسبة:

(١) بعد أن عرفت ضرر المعصية، ووقفت على عقوبتها الدنيوية والأخروية، فلتسأل نفسك:

(أ) هل طهرت قلبك من المعاصى الباطنية، كالغل، والحسد، والحقد، والكبر، والعجب، ونحو ذلك؟.

(ب) هل طهرت لسانك من معاصى القول، كالكذب، والغيبة، والنميمة، وخلف الوعد، واللغو، والسباب، ونحو ذلك؟

(جـ) هل طهرت جوارحك من المعاصى الفعلية، كالإيذاء، والقطيعة، والعقوق، ونحو ذلك؟.

(٢) بعد أن عرفت فضيلة الورع، فلتسأل نفسك:

(أ) هل تحريت الحلال فى مطعمك ومشربك وملبسك ومسكنك، وسائر مكاسبك؟

(ب) هل اجتهدت فى أخذ نفسك بالعزائم، ونزهت نفسك عن مواقعة الشبهات؟.

---

(١) إحياء علوم الدين (جـ١٥ ـ ص٢٧٥٨).

(٢) سنن الدارمى (جـ١ ـ ص٩٣) المقدمة ـ باب فى اجتناب الأهواء.

(٣) بعد أن عرفت أهمية صلاة الجماعة، وفضيلة المحافظة عليها، فلتسأل نفسك:

(أ) هل حرصت على أداء الصلوات الخمس - وبخاصة صلاة الصبح - فى جماعة، وبالمسجد؟.

(ب) هل حافظت على التبكير إلى المسجد، وحرصت على أن تكون فى الصفوف الأولى منه؟.

(٤) بعد أن عرفت فضيلة النوافل عمومًا، وقيام الليل خصوصًا، فاسأل نفسك:

(أ) هل حرصت على أن يكون لك ورد من قيام الليل تنضم به إلى قافلة المحبين المشتاقين؟.

(ب) هل حرصت على بقية النوافل الراتبة مع الصلوات الخمس، وغير الراتبة كالضحى، والاستخارة، ونحوهما؟

(٥) بعد أن عرفت فضيلة ذكر الله تعالى، فاسأل نفسك:

(أ) هل قرأت اليوم شيئًا من القرآن؟.

(ب) هل حرصت على أن يكون لسانك دائمًا رطبًا بذكر الله؟.

• **وأخيرًا:**

(أ) هل قمت بواجبك فى الدعوة إلى الله؟

(ب) هل تذكرت الموت والقبر، وأعددت نفسك للقاء الله تعالى بتوبة نصوح تختم بها عملك فى كل يوم؟

أخى الداعية:

إن التساؤلات التى يمكن أن يطرحها كل منا على نفسه كثيرة، ولكنى أكتفى بما ذكرته، وأنبه على أن ثمة أورادًا للمحاسبة بصورة موسعة قام البعض بطباعتها، فإذا تيسر الاطلاع عليها، والاستفادة منها كان خيرًا بإذن الله تعالى.

وفيما يتعلق بالنقطة الثانية، وهى: إحساس المرء دائمًا بالتقصير فى حق الله تعالى، فإنها من أنجح الوسائل لتحقيق السبق فى هذا المجال، فى حين أن استكثار

الطاعة، والاغترار بها يدفع بالمرء إلى القعود والتكاسل.

ويستدل على هذا المعنى بنحو قوله ﷺ: «الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت» الحديث[١].

ومن جميل ما يروى عن السلف الصالح فى هذا المجال ما ذكره ابن الجوزى فى كتابه (صفة الصفوة)[٢] عن محمد بن يزيد بن خنيس قال:

قال رجل لعبد العزيز بن أبى رواد[٣]: كيف أصبحت؟

فبكى وقال: أصبحت ـ والله ـ فى غفلة عظيمة عن الموت، مع ذنوب كثيرة قد أحاطت بى، وأجلٍ يسرع كل يوم فى عمرى، وموئل[٤] لست أدرى علام أهجم؟: ثم بكى. اهـ.

وأما النقطة الثالثة، وهى: التزام الطاعات ـ وبخاصة فى مجال الذكر ـ على هيئة أوراد يومية، فإنه أيضًا وسيلة ترغم أنف الشيطان، وتدفع بالمرء إلى الالتزام بما ألزم به نفسه.

ولنا فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة، وقدوة طيبة فى هذا الترتيب.

فقد ورد عنه ﷺ فى حديث طويل أنه اعتاد ملاقاة قوم والتحدث إليهم، فأبطأ عليهم ليلة، فلما سألوه عن سر إبطائه عليهم قال: «إنه طرأ علىَّ حزبى من القرآن، فكرهت أن أجىء حتى أتمه»[٥].

---

(١) أخرجه الترمذى، وحسنه (جـ٤ ـ ص٦٣٨) كتاب صفة القيامة ـ باب رقم (٢٥) منه، وأخرجه ابن ماجه (جـ٢ ـ ص١٤٢٣) ـ كتاب الزهد ـ باب ذكر الموت والاستعداد له، وأخرجه أحمد (جـ٤ ـ ص١٢٤).

(٢) المرجع المذكور (جـ٢ ـ ص٢٢٩).

(٣) سبق أن ذكرنا فى مطلع حديثنا عن الصلة بالله تعالى قولة شعيب بن حرب: «جلست إلى عبد العزيز بن أبى رواد خمسمائة مجلس، فما أحسب صاحب الشمال كتب شيئًا».

(٤) الموئل: الملجأ. كذا فى مختار الصحاح مادة: وأل.

(٥) أخرجه أبو داود (جـ١ ـ ص٣٥٢) كتاب شهر رمضان ـ باب فى تحزيب القرآن، وأخرجه ابن ماجه (جـ١ ـ ص٤٢٧) كتاب إقامة الصلاة، والسنة فيها ـ باب فى كم يستحب أن يختم القرآن، وأخرجه أحمد (جـ٤ ـ ص٩).

فانظر كيف فرض النبى ﷺ ضربًا معينًا له من القرآن حرص على أن لا يمر يومه دون أن يقوم به.

وله ﷺ إلى جانب هذا جملة من الأحاديث قيدت ألوانًا من الذكر بعددٍ محدد.

وأسوق إليكم بعضًا من هذه الأحاديث:

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شىء قدير فى يوم مائة مرة؛ كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء، إلا رجل عمل أكثر منه»[(١)].

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: سبحان الله وبحمده، فى يوم مائة مرة؛ حطت خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر»[(٢)].

ولا أريد الاسترسال مع هذه الأدلة، فهى كثيرة فى السنة، وإنما سقتها - بين يدى - لأوصى نفسى وإياكم - إخوتى الدعاة - بأن يحاول كل منا الالتزام بالأذكار والدعوات فى شكل أوراد يومية منتظمة، وذلك على النحو التالى كحد أدنى:

(١) قراءة جزء من القرآن يوميًا.

(٢) الاستغفار مائة مرة.

(٣) الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ مائة مرة.

---

(١) أخرجه البخارى (جـ٤ - ص١١٣) كتاب الدعوات - باب فضل التهليل، وأخرجه مسلم (جـ٤ - ص٢٠٧١) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، وأخرجه الترمذى (جـ٥ - ص٥١٢) كتاب الدعوات - باب رقم (٦٠)، وأخرجه ابن ماجه (جـ٢ - ص١٤٨) كتاب الأدب - باب فضل لا إله إلا الله، وأخرجه أحمد (جـ٢ - ص٣٠٢).

(٢) أخرجه البخارى (جـ٤ - ص١١٤) كتاب الدعوات - باب فضل التسبيح، وأخرجه مسلم (جـ٤ - ص٢٠٧١) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، وأخرجه ابن ماجه (جـ٢ - ص١٢٥٣) كتاب الأدب - باب الاستغفار، وأخرجه أحمد (جـ٢ ص٣٧٥).

(٤) التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير مائة مرة.

(٥) قول (سبحان الله وبحمده) مائة مرة.

وبهذا الأسلوب يشعر المرء بالحياة الحقيقية، التى لم تكن - ولن تكون - إلا فى ظل طاعة الله تعالى، ودوام ذكره، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «مثل الذى يذكر ربه، والذى لا يذكره مثل الحى والميت»[1].

* * *

(١) أخرجه البخارى (جـ٤- ص١١٤) كتاب الدعوات - باب فضل ذكر الله عز وجل.

٢. الإخلاص

إذا وثَّق الداعية صلته بالله تعالى انبثق عن هذه الصلة مجموعة من الأخلاق تُعَدُّ بمثابة النتيجة المترتبة عليها.

ولئن كنا قد تحدثنا ـ فى الصفحات السابقة ـ عن مطلوبات الصلة بالله تعالى إجمالاً، فإن ثمت أخلاقًا لا يكفى أن نشير إليها ضمن هذا الموضوع، بل تحتاج إلى مزيد بيان وإيضاح.

وفى متابعة لأخلاق الدعاة إلى الله تعالى نتحدث فى هذا الموضع عن خلق من أهم الأخلاق المنبثقة عن صلة الداعية بالله تعالى، وهو: الإخلاص، سائلين الله تعالى أن يجعلنا من المخلصين، وأن يطهر قلوبنا ـ برحمته ـ من النفاق والرياء وسوء الأخلاق.

• تعريف الإخلاص، وبيان أهميته:

إذا تصورنا شيئًا أمكن أن يشوبه غيره، ثم خلا عن هذا الشوب سمى ـ حينئذ ـ خالصًا.

فالشىء الخالص هو الخالى من الشوائب، والفعل المخلص المصفى يسمى إخلاصًا[١].

ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾[٢].

وفى القرآن الكريم سورة تسمى «الإخلاص» لأنها خالصة فى صفة الله تعالى، أو لأن القارئ لها، المعتقد بصدقها قد أخلص التوحيد لله تعالى[٣].

فإذا نقلنا هذا المعنى إلى أخلاق الدعاة إلى الله تعالى رأينا أن الداعية المخلص

---

(١) انظر (إحياء علوم الدين) جـ١٤ ـ ص٢٧١٢.

(٢) سورة النحل (٦٦).

(٣) انظر (النهاية فى غريب الحديث والأثر) جـ٢ ـ ص٦١ ـ مادة: خلص.

هو الذى يجرد وجهته فى عمله ودعوته من أى مطمع دنيوى، ويؤثر رضا الله تبارك وتعالى على من سواه.

وتحقيق الداعية لهذا الخلق فى دعوته يرقى به إلى أرقى المراتب، وأسمى الدرجات.

عن أحمد بن أبى الحوارى أن رجلاً سأل أبا سليمان الدارانى فقال: «يا أبا سليمان: ما أقرب ما يتقرب به العبد إلى الله»؟ فقال: «أقرب ما تقرب به العبد إلى الله تعالى أن يطَّلع من قلبه على أنه لا يريد من الدنيا والآخرة إلا هو»[١].

والإخلاص - بنص القرآن الكريم - هو الحماية القوية للإنسان من الوقوع فى حبائل الشيطان.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[٢].

• وترجع أهمية الإخلاص إلى ما يلى:

(١) أن قبول العمل عند الله تعالى منوط بالإخلاص فيه، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[٣].

وعن الفضيل بن عياض أنه قال فى قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٤] قال: أخلصه، وأصوبه.

وقال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا وصوابًا.

قال: والخالص إذا كان لله عز وجل، والصواب إذا كان على السنة[٥].

فإذا فقد العمل شرط الإخلاص رُدَّ على صاحبه، ففى الحديث القدسى: «أنا

---

(١) صفة الصفوة (جـ٤ - ص٢٣١) بتصرف - ابن الجوزى.

(٢) سورة ص (٨٢ - ٨٣).

(٣) سورة الكهف (١١٠).

(٤) سورة الملك (٢).

(٥) جامع العلوم والحكم (ص١٤) ابن رجب الحنبلى.

أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه»[١].

وثمت أحاديث أخرى كثيرة فى معنى هذا الحديث، ولكن ـ طلبًا للاختصار ـ نكتفى به فى الدلالة على المطلوب.

(٢) أن التفاضل بين العباد يوم القيامة مردُّه إلى درجة إخلاص كل منهم، وليس إلى كمِّ العبادة التى أداها.

يقول بعض العارفين: «إنما تفاضلوا بالإرادات، ولم يتفاضلوا بالصوم والصلاة»[٢].

وتأييدًا لهذا المعنى فإن السنة تشير إلى أن إخلاص النية يحقق لصاحبه ثواب العمل وإن لم يعمله، ففى الحديث: «من أتى فراشه وهو ينوى أن يقوم يصلى من الليل فغلبته عيناه حتى أصبح، كتب له ما نوى، وكان نومه صدقة عليه من ربه عز وجل»[٣].

هذا؛ فى الوقت الذى تعلمنا فيه السنة أن العمل الظاهر الصلاح يتحول إلى جريمة تستجلب لصاحبها الويل إذا لوثته نية السوء.

وفى الحديث: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه: رجل استشهد، فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار. ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار. ورجل وسَّع

(١) رواه مسلم (جـ٤ ـ ص٢٢٨٩) كتاب الزهد والرقائق ـ باب من أشرك فى عمله غير الله ورواه ابن ماجه بنحوه (جـ٢ ـ ص١٤٠٥) كتاب الزهد ـ باب الرياء والسمعة.

(٢) جامع العلوم والحكم (ص١٤).

(٣) رواه النسائى، واللفظ له (جـ٣ ـ ص٢١٦) كتاب قيام الليل وتطوع النهار ـ باب من أتى فراشه وهو ينوى القيام فنام/ ورواه ابن ماجه نحوه (جـ١ ـ ص٤٢٧) كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ـ باب ما جاء فيمن نام عن حزبه من الليل/ وقال عنه المنذرى فى الترغيب والترهيب (جـ١ ـ ص٤٥) إسناده جيد. طبعة سنة ١٩٦٩م ـ مكتبة الجمهورية العربية.

الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقى فى النار»[١].

(٣) أن إخلاص العمل لله تعالى مدعاة إلى استصحاب سائر الخيرات، وتنقية للمرء من الشوائب والكدورات.

يقول الإمام الجنيد ـ رضى الله عنه ـ: «إن لله عبادًا عقلوا، فلما عقلوا عملوا، فلما عملوا أخلصوا، فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع»[٢].

هذا عن الشق الأول من الفائدة المنصوص عليها فى هذا النقطة.

وأما الشق الثانى من الفائدة فيستدل عليه بقوله ﷺ: «ثلاث لا يغل[٣] عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم فإن الدعوة تحيط من ورائهم»[٤].

قال ابن الأثير: «والمعنى: أن هذه الخلال الثلاث تستصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه من الخيانة والدغل[٥] والشر»[٦].

---

(١) رواه مسلم واللفظ له (جـ٣ ـ ص١٥١٣) كتاب الإمارة ـ باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، ورواه النسائى (جـ٦ ـ ص٢٠) كتاب الجهاد ـ باب من قاتل ليقال فلان جرىء، ورواه أحمد (جـ٢ ـ ص٣٢٢).

(٢) إحياء علوم الدين (جـ١٤ ـ ص٢٧١٢).

(٣) يغل: يجوز فيها ضم الياء وكسر الغين مع تشديد اللام على أنها من الإغلال، وهو: الخيانة فى كل شىء. ويجوز فيها فتح الياء، على أنها من الغل، وهو الحقد والشحناء، ويجوز فيها تخفيف اللام، على أنها من الوغول، وهو الدخول فى الشر. راجع «النهاية فى غريب الحديث والأثر» جـ٣ ـ ص٣٨١. مادة: غلل.

(٤) أخرجه الترمذى (جـ٥ ـ ص٣٤) كتاب العلم ـ باب ما جاء فى الحث على تبليغ السماع، وأخرجه ابن ماجه (جـ١ ـ ص٨٤) المقدمة ـ باب من بلغ علمًا، وأخرجه أحمد (جـ٣ ـ ص٢٢٥).

(٥) الدغل: الفساد. كذا فى مختار الصحاح ـ مادة: دغل.

(٦) النهاية فى غريب الحديث والأثر (جـ٣ ـ ص٣٨١) مادة غلل.

من أجل هذا ـ وغيره ـ ورد التأكيد على الإخلاص، وضرورة العناية به فى كثير من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، بأسلوب صريح أحيانًا وبأسلوب ضمنى أحيانا أخرى.

والأدلة ـ بشقيها ـ تدل على أهمية هذا الخلق للناس عامةً، والدعاة من باب أولى.

وباعتبار أن البحث يتناول أخلاق الدعاة، فلنتناول أهميته للدعاة خاصة، وذلك فى النقطة التالية.

• أهمية الإخلاص للداعية، وأمثلة عليه من حياة المخلصين منهم:

إذا كان الإخلاص مطلبًا من جميع المؤمنين، وشرطًا من شروط قبول الله للعمل ـ كما اتضح من النقاط السابقة ـ فإن الدعاة إلى الله تعالى أحوج الناس إلى هذا الخلق من غيرهم، لكونهم اختصوا بحمل أمانة العلم، وشرفوا بالانتساب إلى القرآن.

أورد الإمام القرطبى فى تفسير قوله تعالى: ﴿**يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾[1]؛ أورد قول بعض الحكماء: «من أعطى العلم والقرآن ينبغى أن يعرف نفسه، ولا يتواضع لأهل الدنيا لأجل دنياهم، فإنما أعطى أفضل ما أعطى أصحاب الدنيا، لأن الله تعالى سمَّى الدنيا متاعًا قليلاً، فقال: ﴿**قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ**﴾[2]، وسمى العلم والقرآن خيرًا كثيرًا»[3].

وتقديرًا من الدعاة إلى الله تعالى لأهمية هذا الخلق رأينا حرصهم عليه، ورفضهم التنازل عن رضوان الله تعالى، مهما كانت قيمة العوض الذى يحصلون عليه.

هذا؛ وللإخلاص فى حياة الدعاة مظاهر عديدة، نجملها ـ مع أمثلة عليها ـ فيما يلى:

---

(١) سورة البقرة (٢٦٩).

(٢) سورة النساء (٧٧).

(٣) تفسير القرطبى (ص١١٣٩) طبعة دار الشعب.

(١) ابتغاؤهم الأجر من الله تعالى وحده:

(أ) فالرسل ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ تردد على لسان الكثيرين منهم: ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾[١].

(ب) وروى عن الإمام الشافعي الذى ملأ طباق الأرض علمًا، والذى قال عنه إمام أهل السنة، الإمام أحمد: «ما مس أحد بيد محبرة إلا وللشافعي ـ رحمه الله ـ فى عنقه منَّة[٢]. روى عنه ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: «وددت أن الناس انتفعوا بهذا العلم، وما نسب إليَّ شيء منه»[٣].

(جـ) وروى أن عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ كان يقسم تفاحًا من الفيء، فتناول ابن له صغير تفاحة، فانتزعها من فيه، فأوجعه، فسعى إلى أمه مستعبرًا[٤]، فأرسلت إلى السوق فاشترت له تفاحًا، فلما رجع عمر وجد رائحة التفاح، فقال: يا فاطمة! هل أتيت شيئًا من هذا الفيء؟ قالت: لا، وقصت عليه القصة. فقال: والله لقد انتزعتها من ابنى لكأنما انتزعتها من قلبى، ولكنى كرهت أن أضيع نصيبى من الله عز وجل بتفاحة من فيء المسلمين»[٥].

(٢) تعففهم عن قبول هدايا تلاميذهم، وعن قيام أحدهم بخدمتهم:

(أ) فعن عطاء بن السائب قال: كان رجل يقرأ على أبى عبد الرحمن السلمى، فأهدى له تلميذه فرسًا، فردها وقال: ألا كان هذا قبل القراءة؟[٦].

(ب) وعن حماد بن شعيب قال: «كان المنصور ـ وهو ابن المعتمر ـ لا يستعين بأحد يختلف إليه فى حاجة، ولا يدع أحدًا يمشى معه فى الطريق. يقول: هو ذا

---

(١) سورة الشعراء (١٠٩ ـ ١٢٧ ـ ١٤٥ ـ ١٦٤ ـ ١٨٠) الآيات.

(٢) إحياء علوم الدين (جـ١ ـ ص٤٥).

(٣) المرجع السابق (جـ١ ـ ص٤٥) وكذا فى (جـ١ ـ ص٥٣) المجموع شرح المهذب ـ الإمام النووى.

(٤) مستعبرًا: «أى يرسل عبراته على خده من البكاء».

(٥) العلم والعلماء (ص٢٦٢) أبو بكر الجزائرى ـ دار الكتب السلفية ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.

(٦) مع الرعيل الأول (٦٠) محب الدين الخطيب ـ طبعة ثامنة سنة ١٤٠٠ هـ ـ المطبعة السلفية بالقاهرة.

(٧) يختلف إليه: يتردد عليه.

أجلس إليكم»[١].

(جـ) وأرسل عبد الله بن إدريس رجلاً يسأل له عن سعر شيء ما، فلما مضى رده، وقال: لا تسل عنه، فإنك تكتب منى الحديث، وأنا أكره أن أسأل من يسمع منى الحديث حاجة»[٢].

(٣) حرصهم على الإسرار بالأعمال حتى لا تشوبها شائبة رياء أو سمعة:

(أ) فعن الأعمش قال: بكى حذيفة فى صلاته، فلما فرغ التفت، فإذا رجل خلفه فقال: لا تعلمن بهذا أحدًا»[٣].

(ب) وعن أبى بكر المروزى قال: «كنت مع أبى عبد الله (يعنى الإمام أحمد بن حنبل) نحوًا من أربعة أشهر، فكان لا يدع قيام الليل، وقراءة النهار، فما علمت بختمة ختمها. كان يسر ذلك»[٤].

(جـ) ويروى أن إبراهيم النخعى ـ رضى الله عنه ـ كان إذا دخل عليه رجل وهو يقرأ فى المصحف غطاه»[٥].

ونكتفى بهذا القدر من الأمثلة على حرص السلف الصالح على الإسرار بالأعمال، مؤكدين على أن هؤلاء الرجال ما كان يدفعهم إلى مثل هذا السلوك سوى رغبتهم فى إخلاص العمل لله وحده، وعدم النظر إلى شيء آخر سواه، حتى قال أحدهم ـ وهو يعقوب المكفوف ـ: «المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته»[٦].

هذا إذا لم يكن هدف الداعية من إظهار عمله أن يتعرف على عمله الناس فيقتدوا به، ويسلكوا مسلكه، فحينئذ يستحب الإظهار للعمل، مع مراعاة شيئين.

---

(١) الجامع لأخلاق الراوى، وآداب السامع (جـ١ ـ ص٣٦٨) الخطيب البغدادى.

(٢) المرجع السابق (جـ١ ـ ص٣٦٩) بتصرف.

(٣) صفة الصفوة (جـ١ ـ ص٦١٤) ابن الجوزى.

(٤) المرجع السابق (جـ٢ ـ ص٣٣٩) بتصرف يسير.

(٥) جامع البيان شرح حديث ما ذئبان جائعان (ص٢٨) ابن رجب الحنبلى ـ مكتبة الفرقان ـ بدون تاريخ.

(٦) إحياء علوم الدين (جـ١٤ ـ ص٢٧١١).

(١) أن يظهر الداعية عمله حيث يعلم أن أحدًا يقتدى به.

(٢) أن يراقب قلبه، بحيث لا يخدعه الشيطان فيسول له أنه يظهر العمل ليقتدى به، بينما ينطوى قلبه ـ فى الحقيقة ـ على حب التجمل بالعمل، وبكونه يقتدى به[١].

فإذا لم يجد من نفسه القوة على ذلك فالإخفاء للأعمال فى حقه واجب.

• الدعاة إلى الله تعالى بين إخلاص العمل لله، وابتغاء الدنيا بعمل الآخرة:

فى الوقت الذى حثت فيه الشريعة على تحرى الإخلاص فى كافة الأعمال ـ كما اتضح لنا من النصوص السابقة ـ حذرت من استخدام الدين، وتطويع مبادئه لتحقيق منافع دنيوية، مبينة أن من يصنع ذلك فقد باء بالخسران، وعرَّض نفسه لمقت الله وغضبه.

وفى الحديث: «بشِّرْ هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر والتمكين فى الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له فى الآخرة نصيب»[٢].

وفى حديث آخر: من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا[٣] من الدنيا، لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة» يعنى ريحها[٤].

ولكون الدعوة قد جاءت ـ فى الأصل ـ للارتقاء بالناس نحو منهج الله تعالى، فإذا استغلها البعض لتحقيق أهداف دنيوية خسيسة فإنها ـ والحال هكذا ـ تصبح انتكاسًا بصاحبها، ورجوعًا به إلى وراء الوراء.

يقول أبو حامد الغزالى: «من طلب العلم بالمال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه، فجعل المخدوم خادمًا، والخادم مخدومًا»[٥].

---

(١) انظر (المرجع السابق) جـ١٠ (ص١٨٩٩: ص١٩٠٣).

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده (جـ٥ ـ ص١٣٤) وقال عنه الهيثمى فى مجمع الزوائد (جـ١٠ ـ ص٢٢٠) رواه أحمد وابنه من طرق، ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٣) عرضًا: قال فى النهاية: العرض بالتحريك: متاع الدنيا وحطامها (جـ٣ ـ ص٢١٤) مادة: عرض.

(٤) رواه أبو داود، وسكت عنه (جـ١ ـ ص٩٣) المقدمة ـ باب الانتفاع بالعلم والعمل به، ورواه أحمد (جـ٢ ـ ص٣٣٨).

(٥) إحياء علوم الدين (جـ١ ـ ص٩٤).

وسئل ابن المبارك:

من الناس؟... فقال: العلماء.

قيل: فمن الملوك؟... قال: الزهاد.

قيل: فمن السفلة؟.... قال: الذين يأكلون الدنيا بالدين[١].

من أجل ذلك رأينا الدعاة المخلصين يرفضون أن تكون دعوتهم سبيلاً إلى تحقيق غايات دنيوية، أو طريقًا إلى اكتساب منافع عاجلة.

يقول الفضيل بن عياض ـ رضى الله عنه ـ: «لأن أطلب الدنيا بطبل ومزمار أحبُّ إليَّ من أن أطلبها بالعبادة»[٢].

ومن الأقوال التى ذكرت فى التفسير فى قصة نبى الله موسى عليه السلام أنه عندما ورد على الرجل الصالح فى مدين وقدم إليه العَشاء ليأكل، تراجع ـ عليه السلام ـ فقال له الرجل الصالح: أما أنت جائع؟ قال: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضًا لما سقيت لهما، وإنا من أهل بيت لا نبيع شيئًا من ديننا بملء الأرض ذهبًا»[٣].

هذا؛ ويأخذ ابتغاء الدنيا بعمل الآخرة عدة صور نجملها فيما يلى:

(١) الحرص على كثرة الأتباع، وذيوع الذكر:

تُعَدُّ هذه الصورة من أقوى الصور التى تنافى الإخلاص وتقضى عليه، حيث يجد الداعية نفسه وسط المجتمع بمختلف طوائفه، مما يدفع به أحيانًا ليكثر أتباعه، ويطير ذكره، إلى أن تقيد دعوته بالناس: نشاطًا، أو فتورًا، قوة، أو ضعفًا، بغية أن ينال الحظوة والمنزلة عندهم.

وأمثال هؤلاء لا يرجى منهم الخير لأنفسهم، ولا لدعوتهم.

وفى الحديث عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يظهر الإسلام حتى يختلف التجار فى البحر، وحتى تخوض الخيل فى سبيل الله.

(١) المرجع السابق (جـ١ ـ ص١٣).

(٢) صفة الصفوة (جـ١ ـ ص٢٤٢).

(٣) انظر (تفسير القرطبى) جـ٧ ـ ص٤٩٨٧ ـ سورة القصص.

ثم يظهر قوم يقرءون القرآن، يقولون: من أقرأ منا؟ من أعلم منا؟ من أفقه منا؟ ثم قال لأصحابه: هل فى أولئك من خير؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: أولئك منكم من هذه الأمة، وأولئك هم وقود النار»[١].

لذا وجب على الداعية ـ حتى يتحقق له الإخلاص ـ أن يجرد قلبه لربه، وأن يخرج منه الرغبة فى تعرف الناس عليه، وذيوع شهرته بين صفوفهم.

يقول بشر الحافى: «ما اتقى الله من أحب الشهرة»[٢].

ويقول الحارث المحاسبى: «الصادق هو الذى لا يبالى لو خرج كل قدر له فى قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب إطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله، ولا يكره اطلاعهم على السيئ من عمله، لأن كراهته ذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم، وليس هذا من أخلاق الصديقين»[٣]..

هذا؛ ويعين الداعية على تحقيق الاستغناء عن الناس أن يضع أمامه الحقائق التالية:

(أ) أن الناس لا يملكون لأنفسهم ـ فضلاً عن غيرهم ـ نفعًا أو ضرًا، فمن الحماقة أن يسعى المرء لمرضاتهم، ويجتنب سخطهم، والرضا منهم لا ينفع، والسخط لا يضر.

وفى الحديث أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله: إن حمدى زين، وإن ذمى شين»[٤]. فقال النبى ﷺ: «ذاك الله»[٥].

---

(١) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (جـ١ ـ ص١٨٦) وقال عنه: رواه الطبرانى فى الأوسط، والبزار. ورجال البزار موثقون.

(٢) صفة الصفوة (جـ٢ ـ ص٣٢٥).

(٣) المجموع شرح المهذب (جـ١ ـ ص٣٧) الإمام النووى.

(٤) يشير الرجل بهذا القول إلى مدح نفسه، بقرينة أنه إن مدح أحدًا فهو عظيم محمود، وإن ذمه فهو مذموم معيب، فبين له الرسول ﷺ أن الذى يزين مدحه ويشين ذمه هو الله وحده لا شريك له.

(٥) أخرجه الترمذى، وحسنه (جـ٥ ـ ص٣٨٧) كتاب تفسير القرآن ـ باب سورة الحجرات، ورواه أحمد (جـ٣ ـ ص٤٨٨).

(ب) وفضلاً عن ذلك فإن مدح الناس للمرء أو ذمهم له ـ قل ذلك أو كثر ـ لا يدوم طويلاً.

يقول أبو حامد الغزالى فى كتابه (الإحياء) فى باب محاسبة النفس:

«. . .ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه. . أو ما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك، فاحسبى أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك؟ وسيأتى زمان لا يبقى ذكرك، ولا ذكر من ذكرك، كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك، فهل تحس منهم من أحد، أو تسمع لهم ركزًا؟.

فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقى؟

هذا إن كنت ملكًا من ملوك الأرض سلم لك الشرق والغرب، حتى أذعنت لك الرقاب، وانتظمت لك الأسباب. كيف ويأبى إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك، بل أمر دارك فضلاً عن محلتك. . .»[1].

(جـ) يضاف إلى ما سبق أن الناس لا يدعون الداعية إن أخطأ ـ والخطأ منه أمر وارد ـ بل يصبون عليه جام غضبهم ويفضحونه دون هوادة.

وأمثال هؤلاء ـ الذين لا يغفرون زلة، ولا يقيلون عثرة ـ يصير العمل لإرضائهم لونًا من الحماقة.

يقول وهيب بن الورد: «خالطت الناس خمسين سنة، فما وجدت رجلاً غفر لى ذنبًا فيما بينى وبينه، ولا وصلنى إذا قطعته، ولا ستر علىَّ عورة، ولا أمنته إذا غضب، فالاشتغال بهؤلاء حمق كبير»[2].

من أجل هذا ـ وغيره ـ حرص الدعاة إلى الله تعالى على أن يوجهوا قلوبهم لربهم دون غيره، وهم على ثقة من أن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن

(١) إحياء علوم الدين (جـ١٥ ـ ص٢٧٨٥).

(٢) صفة الصفوة (جـ٢ ـ ص ٢٢٠).

يقلبها كيف يشاء، فإن رضى عنهم أرضى عنهم عباده، وبالعكس، وإن لم يقتنع بهم من الناس أحد فيكفيهم رضوان الله عليهم.

وهذه بعض أحوالهم:

(١) يقول بعض الحكماء: «خرجت من بطن أمى وحدى، ودخلت إلى قبرى وحدى، وأحاسب بين يدى الله تعالى وحدى، فمالى والناس»؟.

(٢) ويقول الشاعر إبراهيم بديوى:

إنى أويت لكل مأوى فى الحيا ... ة فما رأيت أعز من مأواكا
وتلمست نفسى السبيل إلى النجا ... ة فلم تجد منجى سوى منجاكا
وبحثت عن سر السعادة جاهدًا ... فوجدت هذا السر فى تقواكا
فليرض عنى الناس أو فليسخطوا ... أنا لم أعد أسعى لغير رضاكا[1]

(٣) ومن هذا القبيل كراهية بعضهم لأن يمشى خلفهم أحد، باعتبار ذلك فتنة للمتبوع، وذلة للتابع.

وكذلك كراهية بعضهم أن يطلب منه الدعاء، قائلين: ومن نحن حتى يطلب منا ذلك؟

وكذلك تحقيرهم لأنفسهم، ولفت الأنظار عنهم، بذكر مساوئهم، كقول محمد ابن واسع: «لو أن للذنوب رائحة ما استطاع أحد أن يجالسنى». وغير ذلك من الآثار[2].

(٢) الحرص على الاستكثار من المال:

قد يدفع الداعية إلى القيام بدعوته رغبته فى الاستكثار من المال، بحيث يربط دعوته بمدى العائد المالى قلة أو كثرة.

وهذه أيضًا من أخطر المسائل التى تنخر فى عظام الإخلاص، وتلطخ الدعوة بطين الأرض، وتلوثها بقذارة المادة[3].

---

(١) الشعر مع الله والدرة (ص١٦) طبع دار الاعتصام.

(٢) انظر (جامع البيان ـ شرح حديث ما ذئبان جائعان) ص٢٧، ٢٨، ابن رجب الحنبلى.

(٣) عند الحديث على هذه النقطة يقفز إلى الذهن سؤال مؤداه: ما الحكم فى محفظى القرآن الكريم =

وفى الحديث عن كعب بن مالك الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[١].

والحديث يشير إلى أن حرص المرء على المال والشرف يفسد دينه بصورة لا تقل عن إفساد ذئبين جائعين أرسلا فى غنم غاب عنها رعاؤها، فهما يأكلان فى الغنم ويفترسان فيها[٢].

*** ومما يعين الداعية على تحقيق الإخلاص فى هذا المجال أن يضع أمامه هذه الحقائق:**

(١) أن الدنيا ـ مهما علت فيها درجة المرء، وطال عمره بها ـ مآلها أن تكون كحلم نائم.

يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ: «لو أن الحياة الدنيا ـ

= المتفرغين لهذا العمل، والمعلمين فى الجامعات والمدارس الإسلامية، والخطباء فى المساجد، وغيرهم ممن يتقاضون أجورًا على أعمالهم تلك؟ وهل يعنى تقاضيهم الأجر من هذه المؤسسات القدح فى إخلاصهم؟

والجواب أن الفقهاء تعرضوا لهذه النقطة عند حديثهم على الإجارة، وهم بين مانع ومجوز، ولكل أدلته.

ولست بصدد مناقشة أدلة الفريقين ـ فهذا خارج عن موضوعنا ـ ولكنى أسوق هذه القصة، وهى ـ إن شاء الله ـ كافية فى الدلالة على المطلوب، فقد ذكر فى سيرة عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ أنه بعث يزيد بن أبى مالك، والحارث بن أبى محمد إلى البادية ليعلما الناس السنة، وأجرى عليهما الرزق، فقبل يزيد، ولم يقبل الحارث وقال: ما كنت لآخذ على علم علمنيه الله أجرًا.

ولما ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز قال: «ما نعلم بما صنع يزيد بأسًا، وأكثر الله فينا مثل الحارث» هامش تذكرة السامع والمتكلم ـ (ص١٩).

فهذه القصة تشير إلى أن التعفف عن أخذ الأجر أفضل، فإن تقاضى الداعية الأجر لا يقدح ذلك فى إخلاصه، ما لم يكن تقاضيه للأجر على حساب ذرة من رسالته ودعوته، وإلا ضرب بالدنيا وزخرفها عرض الحائط. والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه الترمذى، وقال عنه: حسن صحيح (جـ٤ ـ ص٥٨٨) كتاب الزهد ـ باب رقم (٤٣) منه، وأخرجه أحمد (جـ٣ ـ ص٤٦٠).

(٢) انظر (جامع البيان ـ شرح حديث ما ذئبان جائعان) ص٧.

من أولها إلى آخرها ـ أوتيها رجل واحد ثم جاءه الموت، لكان بمنزلة من رأى فى منامه ما يسره ثم استيقظ، فإذا ليس فى يده شىء»[١].

فإذا كانت هذه حقيقة الدنيا وما فيها، فكيف يروق للدعاة أن يجعلوها ـ كلها أو بعضها ـ محور حركتهم، ودافع دعوتهم؟

(٢) أن العمل للدنيا ـ أو لشىء منها ـ يكون على حساب الآخرة، فمن أحب آخرته أثر ذلك على دنياه وبالعكس.

يقول أبو حامد الغزالى فى حديثه عن صفات علماء الآخرة:

«... فمنها أن لا يطلب الدنيا بعلمه، فإن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها، وكدورتها وانصرامها، وعظم الآخرة ودوامها، وصفاء نعيمها وجلالة ملكها، ويعلم أنهما متضادتان، وأنهما كالضرتين مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، وأنهما ككفتى الميزان مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى، وأنهما كالمشرق والمغرب مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر.. ومن علم هذا كله ثم لم يؤثر الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان، قد أهلكته شهوته، وغلبت عليه شقوته، فكيف يعد من حزب العلماء من هذه درجته؟»[٢].

(٣) أن الدنيا حلالها حساب، وحرامها عذاب، فكيف يروق للداعية أن يستكثر من الدنيا بأسلوب غير شرعى، فيضل فى نفسه، ويضل غيره، ويعرض نفسه ـ بذلك ـ لمزيد من العذاب؟.

ولأن الدافع للإنسان ـ فى أغلب الأحيان ـ للاستكثار من الدنيا حرصه على أولاده، وابتغاء المنزلة والوجاهة لهم؛ من أجل ذلك رأينا الدعاة إلى الله تعالى يحذرون من هذا المنزلق الخطير، ويذكرون العاملين فى مجال الدعوة بأن أحدًا ـ قريبًا أو غريبًا ـ لن يحمل عنهم شيئًا من الحساب.

يقول أبو الدرداء رضى الله عنه فى رسالة له إلى أحد إخوانه:

«... أما بعد: فلست فى شىء من أمر الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك، وهو

---

(١) مدارج السالكين (جـ٣ ـ ص١٩٠) ابن قيم الجوزية.

(٢) إحياء علوم الدين (جـ١ ـ ص١٠١).

صائر له أهل بعدك، وليس لك منه إلا ما قدمت لنفسك، فآثرها على المصلح من ولدك، فإنك تقدم على من لا يعذرك، وتجمع لمن لا يحمدك، وإنما تجمع لواحد من اثنين: إما عامل فيه بطاعة الله عز وجل فيسعد بما شقيت، وإما عامل فيه بمعصية الله عز وجل فيشقى بما جمعت له. وليس ـ والله ـ واحد منهما بأهل أن تبرد له على ظهرك، وأن تؤثره على نفسك. ارج لمن مضى منهم رحمة الله، وثق لمن بقى منهم برزق الله عز وجل، والسلام»[1]. اهـ.

(٣) الدخول على الأمراء، ومصادقة ذوى الرتب الدنيوية:

من لوازم إخلاص الداعية أن ينأى بنفسه عن مخالطة أصحاب المناصب الدنيوية خشية على دينه ودعوته، فإن السلامة لا يعدلها شيء.

وقد جاء فى الحديث ما يفيد التحذير من هذا المسلك بالنص على النتيجة المترتبة عليه، فيقول عليه الصلاة والسلام: «من بدا جفا[2]، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن»[3].

ولا يقتصر الأمر على فتنة الداعية فى نفسه، بل يتجاوزها إلى نفس السلطان، وإلى العامة.

يقول أبو الفرج بن الجوزى: «ومن تلبيس إبليس على الفقهاء: مخالطتهم الأمراء والسلاطين، ومداهنتهم، وترك الإنكار عليهم مع القدرة على ذلك، وربما رخصوا لهم فيما لا رخصة لهم فيه لينالوا من دنياهم عرضًا، فيقع بذلك الفساد لثلاثة أوجه:

الأول: الأمير، يقول: لولا أنى على صواب لأنكر علىَّ الفقيه، وكيف لا أكون مصيبًا وهو يأكل من مالى؟

---

(١) صفة الصفوة (جـ١ ـ ص٦٣٦) ابن الجوزى.

(٢) من بدا جفا: يعنى من سكن البادية صار فى أخلاقه جفاء وغلظة لقلة مخالطته الناس.

(٣) أخرجه الترمذى: واللفظ له، وقال عنه: حديث حسن صحيح (جـ٤ ـ ص٥٢٣) كتاب الفتن ـ باب رقم (٦٩) منه، وكذا أخرجه أبو داود، وزاد فى روايته: وما ازداد عبد من السلطان دنوًا، إلا ازداد من الله بعدًا (جـ٢ ـ ص١١٠) كتاب الصيد ـ باب فى اتباع الصيد، وأخرجه النسائى (جـ٧ ـ ص١٧٢) كتاب الصيد، وأخرجه أحمد (جـ١ ـ ص٣٥٧).

الثانى: العامى أنه يقول: لا بأس بهذا الأمير ولا بماله ولا بأفعاله، فإن فلانًا الفقيه لا يبرح عنده.

الثالث: الفقيه، فإنه يفسد دينه بذلك»[١].

وفى هذه النقطة كلام كثير للفقهاء، وتحذيرات شديدة من هذا المسلك، ولولا خوف الإطالة لأتيت بها جميعًا، ولكنى أحيل من أراد المزيد إلى الكتب التى أفاضت فى هذا الجانب[٢].

ويكفينا أن نبين موقف الدعاة من هذه النقطة، مع ما يؤيدها من مواقفهم التى تحسب لهم عند الله.

فمن بين ما قالوه على سبيل التحذير من هذا المسلك:

(١) قول ابن مسعود: «إن على أبواب السلاطين فتنًا كمبارك الإبل. والذى نفسى بيده لا تصيبون من دنياهم شيئًا إلا أصابوا من دينكم مثله، أو قال مثليه»[٣].

(٢) ويقول أبو حازم فى رسالة لمن اعتاد الدخول على الأمراء:

«... جعلوك قطبًا، تدور عليه رحا باطلهم، وجسرًا يعبرون بك إلى بلائهم، وسلمًا إلى ضلالتهم. يدخلون بك الشك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهال إليهم، فلم يبلغ أخص وزرائهم ولا أقوى أعوانهم لهم إلا دون ما بلغت من إصلاح فسادهم، واختلاف الخاصة والعامة إليهم، فما أيسر ما عمروا لك فى جنب ما خربوا عليك، وما أقل ما أعطوك فى قدر ما أخذوا منك..»[٤].

وأما عن مواقفهم التى حفظت لهم عزتهم وكرامتهم، وأعلت من قيمة علمهم فى نظر الناس ـ عوامهم وخواصهم ـ فهى أكثر من أن تحصر، وهذه بعضها:

(١) ذكر سعد بن أبى وقاص الصحابى ـ رضى الله عنه ـ أنه كان لا يغشى السلاطين، وينفر عنهم.

---

(١) تلبيس إبليس (ص١٢١).

(٢) انظر (إحياء علوم الدين) جـ١ ـ ص١١٥، وانظر (جامع بيان العلم وفضله) جـ١ ـ ص١٩٨ وما بعدها، وانظر (جامع البيان ـ شرح حديث ما ذئبان جائعان) ص٢٤ وما بعدها.

(٣) جامع بيان العلم وفضله (جـ١ ـ ص٢٠٢) ابن عبد البر.

(٤) صفة الصفوة (جـ٢ ـ ص١٦١ ـ ص١٦٢).

فقال له بنوه: يأتى هؤلاء من ليسوا مثلك فى الصحبة والقدم فى الإسلام، فلو أتيتهم؟.

فقال: يا بنى آتى جيفة قد أحاط بها قوم؟ والله لئن استطعت لا أشاركهم فيها.

قالوا: يا أبانا إذن نهلك هزالاً.

قال: يا بنى لأن أموت مؤمنًا مهزولاً، أحب إلىَّ من أن أموت منافقًا سمينًا[1].

(٢) ذكر فى قصة الإمام أبى حنيفة ـ رضى الله عنه ـ أنه أمر له أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور بعشرة آلاف درهم، فما رضى بأخذها، فجاء إليه بهذا المال رسول الحسن بن قحطبة الوالى فدخل عليه فلم يكلمه، فوضع المال فى جراب فى زاوية البيت.

فكان أن أوصى الإمام أبو حنيفة ابنه قائلاً له: إذا مت ودفنتمونى، فخذ هذا المال واذهب به إلى الحسن بن قحطبة فقل له: خذ وديعتك التى أودعتها أبا حنيفة.

قال ابنه: ففعلت ذلك، فقال الحسن: رحمة الله على أبيك، فلقد كان شحيحًا على دينه[2].

(٣) ونختتم هذه الأمثلة بتلك الأبيات الشعرية التى تقطر عزة وكرامة، وهى لعلى بن عبد العزيز الجرجانى يقول:

يقولون فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما

أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أكرما

ولم أقض حق العلم إن كان كلما ... بدا طمع صيرته لى سُلَّمَا

إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ... ولكن نفس الحر تحتمل الظما

ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى ... لأخدم من لاقيت، لكن لأخدما

---

(١) إحياء علوم الدين (جـ١ ـ ١١٦) بتصرف.

(٢) المرجع السابق (جـ١ ـ ص٤٨) بتصرف.

أأشقى به غرسًا وأجنيه ذلة ... إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه فى النفوس لعُظِّما

ولكن أذلوه فهان، ودنسوا ... محياه بالأطماع حتى تجهما[1]

ونكتفى بهذا القدر من الحديث عن الإخلاص، سائلين الله تعالى أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

* * *

(١) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع (جـ١ ـ ص٣٧١) الخطيب البغدادى.

٣. التواضع

إذا رزق الله تعالى الداعية الإخلاص فى دعوته أثمر ذلك فى أخلاقه التواضع لله تعالى ولعباد الله المؤمنين.

ويدفعه الإخلاص إلى التواضع لعدة اعتبارات هى:

(١) أن الفضل فى العلم والدعوة مرده إلى الله تعالى، لا إلى العبد، بدليل قوله تعالى على لسان نبيه شعيب ـ عليه السلام ـ: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللَّهِ...**﴾[١].

ويقول بعض العلماء: «ينبغى للعالم أن يضع الرماد على رأسه تواضعًا لله عز وجل»[٢].

وهذا الكلام ـ وإن لم يكن ظاهره مرادًا ـ فإنه يشير إلى أن تقدير العبد لنعمة الله فى العلم والتعليم جديرة بأن تحمله على مزيد من التواضع لله تبارك وتعالى.

(٢) أن حصول التأثير فى قلوب المدعوين أو عدمه زمامه بيد الله وحده لا شريك له، وتأليف قلوبهم حول الداعية نعمة من الله وفضل لا يملكه غيره، بدليل قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ...**﴾[٣].

من أجل هذا ـ وغيره ـ يتسم الداعية فى سلوكه بالتواضع، ويترفع عن الاتصاف بالكبر، حين يعقل فيجد أنه بالله يعتبر شيئًا كبيرًا، وبدون الله لا يعتبر أىَّ شىء.

• معنى التواضع، وبيان أهميته للداعية:

التواضع مشتق من الفعل وضع، ودخول التاء عليه ـ وهى دالة على الطلب ـ تعطى إشارة إلى أن المرء الرفيع المنزلة ـ لكى يحقق التواضع ـ فإنه يتنزل عن

---

(١) سورة هود (٨٨).

(٢) أخلاق العلماء (ص٤٩) أبو بكر الآجرى.

(٣) سورة الأنفال (٦٢، ٦٣).

مرتبته، ويلين جانبه حتى يمكن للناس أن يتعاملوا معه.

يقول الجنيد بن محمد فى تعريف التواضع: «هو خفض الجناح، ولين الجانب»[١].

ومن الأئمة من نظر إلى الثمرة الناشئة عن التواضع، فعرَّفها به.

سئل الفضيل بن عياض عن التواضع، فقال: «أن تخضع للحق، وتنقاد له، وتقبله ممن قاله»[٢].

وقال أبو يزيد البسطامى فى تعريف المتواضع: «هو أن لا يرى لنفسه مقامًا ولا حالاً، ولا يرى فى الخلق شرًا منه»[٣].

والتواضع ـ بهذا المفهوم ـ خلاف الضعة والهوان، فإن التواضع دافعه الرغبة فيما عند الله، والهوان دافعه الرغبة فى حظوظ الدنيا.

يقول الإمام ابن القيم: «والفرق بين التواضع والمهانة أن التواضع يتولد من بين العلم بالله سبحانه، ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله، وتعظيمه، ومحبته، وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عملها وآفاتها، فيتولد من بين ذلك كله خلق التواضع، وهو: انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة بعباده، فلا يرى له على أحد فضلاً، ولا يرى له عند أحد حقًا، بل يرى الفضل للناس عليه، والحقوق لهم قِبَلَهُ، وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه ويكرمه ويقربه.

وأما المهانة فهى الدناءة والخسَّة وبذل النفس وابتذالها فى نيل حظوظها وشهواتها، كتواضع السُّفَّل فى نيل شهواتهم، وتواضع المفعول به للفاعل، وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه، فهذا كله ضعة لا تواضع، والله سبحانه يحب التواضع، ويبغض الضعة والمهانة»[٤].

وهذا الفرق الدقيق بين الضعة والتواضع يجب على الداعية أن يلاحظه وهو يتعامل مع الناس، فهو يلين جانبه لمن يقدر ذلك منه، فإن وجد شخصًا يتعامل

(١، ٢، ٣) مدارج السالكين (جـ٢ ـ ص٢٤٥) ابن قيم الجوزية.

(٤) الروح (ص٣١٣) ابن القيم ـ دار أبى بكر الصديق ـ إسكندرية ـ بدون تاريخ.

معه ينظر إلى تواضعه على أنه ذلة وضيم وجب عليه ـ حينئذ ـ أن يظهر عزته وكرامته.

وإلى هذا المعنى يشير المولى تبارك وتعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ [1] أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[2].

ويقول محمد بن زياد الحارثي:

وأرفع نفسي عن نفوس، وربما ... تذللت في إكرامها لنفوس

وإن رامني يومًا خسيس بجهله ... أبى الله أن أرضى بعرض خسيس[3]

• وتبدو أهمية خلق التواضع للدعاة فيما يلي:

(١) أن الداعية يحرص ـ لكي تنجح دعوته ـ على تأليف القلوب، وجمع الشمل حول دعوته.

وللتواضع دور بارز في هذا المجال، فبقدر ما يلين الداعية جانبه يألفه الناس، ويحبون دعوته، وبذا يكثر أتباع الدعوة، وينال الداعية من الله تعالى عظيم الأجر، فإن الدالَّ على الخير كفاعله.

وأما إن تعالى الداعية وتكبر على من حوله فإن الناس تنفر منه، وتنفض الجموع من حوله، مما يجعله حريًا بدراسة فن التثاؤب، بدلاً من الدعوة التي لم يحسن تأليف القلوب حولها.

وصدق الله العظيم إذ يقول ـ في إشارة إلى هذا المعنى ـ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...﴾[4].

---

(١) استعمال حرف الجر (على) بدلاً من اللام، للتفريق بين الذل الذي يقتضي الرحمة والعطف؛ وهو المراد هنا، وبين الذل بمعنى الهوان والضيم، وهو ما يقتضيه حرف الجر (اللام).

(٢) سورة المائدة (٥٤).

(٣) بهجة المجالس، وأنس المجالس (جـ١ ـ ص٤٣١) للإمام أبي عمر يوسف بن عبد البر القرطبي ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ بدون تاريخ.

(٤) سورة آل عمران (١٥٩).

(٢) أن التواضع يرفع من قدر صاحبه عند الله، فيكون بذلك أهلاً لمعونة الله وتوفيقه له، فى حين أن التكبر يعرِّض صاحبه لمقت الله وسخطه، فلا يُنتظر له ـ بمقتضى ذلك ـ أن يعينه الله، أو يسدد على طريق الحق خطاه.

وأىُّ خسارة تعدل خسارة الداعية لنصرة الله له؟ وأى شىء يمكن تصور نجاح الداعية فيه إذا كان الله يخذله ويمقته؟

وفى التأكيد على المعنى السابق يقول أبو يوسف ـ رحمه الله ـ «يا قوم أريدوا بعلمكم الله، فإنى لم أجلس مجلسًا قط أنوى فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم، ولم أجلس مجلسًا قط أنوى فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أفتضح»[١].

من أجل هذا ـ وغيره ـ أكد الدعاة إلى الله تعالى على أهمية التواضع، وضرورة حرص المسلمين عليه، فضلاً عن الدعاة.

وإليك ـ أخى الداعية ـ بعضًا من أقوال الدعاة وأفعالهم فى هذا المجال.

• أقوال الدعاة إلى الله تعالى فى أهمية التواضع، وأمثلة عليه من حياتهم:

وأول ما يطالعنا فى هذا المقام قول سيد الدعاة ﷺ: «إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد»[٢].

وفى بيان للأثر المترتب على التواضع يقول صلوات الله وسلامه عليه: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[٣].

وتقول أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ: «إنكم لتغفلون عن أفضل

---

(١) المجموع (جـ١ ـ ص٥٣) الإمام النووى.

(٢) أخرجه مسلم (جـ٤ ـ ص٢١٩٩) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ـ باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار، وأخرجه أبو داود (جـ٢ ـ ص٦٢٤) كتاب الأدب ـ باب فى التواضع، وأخرجه ابن ماجه (جـ٢ ـ ص١٣٩٩) كتاب الزهد ـ باب البراءة من الكبر، والتواضع.

(٣) أخرجه مسلم (جـ٤ ـ ص٢٠٠١) كتاب البر والصلة والآداب ـ باب استحباب العفو والتواضع، وأخرجه الترمذى (جـ١ ـ ص٣٧٦) كتاب البر والصلة ـ باب ما جاء فى التواضع، وأخرجه أحمد (جـ٢ ـ ص٣٨٦).

العبادات: التواضع»[١].

وقال يوسف بن أسباط: «يجزى قليل الورع من كثير العمل، ويجزى قليل التواضع من كثير الاجتهاد»[٢].

وأما عن التواضع فى حياة الدعاة فله مظاهر عديدة، نجملها ـ مع أمثلة عليها ـ فيما يلى:

(١) احترام الداعية لإخوانه العاملين معه فى مجال الدعوة:

فى تعريف النبى ﷺ للكبر يقول: «الكبر بطر الحق، وغمط الناس»[٣]، أى: احتقارهم وازدراؤهم.

والتكبر على الناس عامَّةً كبيرة من الكبائر، فإذا كان التكبر ـ ومن مظاهره الاحتقار ـ لعالم داعية كانت الجريمة أكبر، فإن الداعية ـ كما يقول الفقهاء[٤] ـ ولىٌّ من أولياء الله، ومن عادى وليًا لله فقد بارز الله بالمحاربة، وحينئذٍ فقد آذنه الله بالحرب كما هو نصُّ الحديث القدسى الصحيح.

وقال الإمام الحافظ ابن عساكر ـ رحمه الله ـ: «اعلم يا أخى ـ وفقنى الله وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته ـ أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله فى هتك أستار منتقصهم معلومة، وأن من أطلق لسانه فى العلماء بالثلب ـ يعنى بالنقص ـ بلاه الله قبل موته بموت القلب»[٥].

من أجل ذلك وجب على الداعية ـ بمقتضى خلق التواضع ـ أن يتبادل مع كل العاملين فى مجال الدعوة الاحترام والإجلال، مهما تباينت طرائق دعوتهم، واختلفت أساليبهم، ومهما قلَّ جهدهم عنه أو كثر، طالما ابتغى الكل بعمله وجه الله، ولم يألُ جهدًا فى توصيل الدعوة إلى كل الناس.

---

(١) إحياء علوم الدين (جـ١١ ـ ص١٩٤٢).

(٢) المرجع السابق ـ نفس الصفحة.

(٣) أخرجه مسلم (جـ١ ـ ص٩٣) كتاب الإيمان ـ باب تحريم الكبر وبيانه، وأخرجه الترمذى بنحوه (جـ٤ ـ ص٣٦١) كتاب البر والصلة ـ باب ما جاء فى الكبر.

(٤) يقول الإمام الشافعى فى الدلالة على هذا المعنى: «إن لم يكن العلماء العاملون أولياء الله، فليس لله ولى» المجموع (جـ١ ـ ص٤١).

(٥) المجموع (جـ١ ـ ص٤٧) الإمام النووى.

وتبدو أهمية هذا الجانب العملى فى حياة الدعاة فيما يلى:

(أ) أن الدعوة عمل وسلوك قبل أى شىء آخر، فإنّ حرص الداعيةُ على حبه لإخوانه نفى من نفسه صفة الحسد، ومن لسانه صفة الغيبة، ومن قلبه صفة الازدراء للآخرين، والإعجاب بالنفس.

يقول عبد الله بن عمر: «لا يكون الرجل عالمًا حتى لا يحسد من فوقه، ولا يحقر من دونه، ولا يبتغى بعلمه ثمنًا»[١].

ويقول الإمام الأوزاعى: «إذا سمعت أحدًا يقع فى غيره فاعلم أنه إنما يقول: أنا خير منه»[٢].

(ب) أن مجالات التعاون بين الداعية وسائر إخوانه كثيرة، فى حين أن مظاهر الخلاف قليلة، ومراعاة الداعية لجانب الحب والتقدير لإخوانه يجعلهم يتعاونون فيما اتفقوا عليه، ويعذر بعضهم بعضًا فيما اختلفوا فيه، وينعكس هذا ـ بالتالى ـ على المدعوين، إذ يشعرون ـ من خلال الدعاة أنفسهم ـ أن الولاء والحب ينبغى أن يكون للإسلام فوق كل شىء، وليس لمذهب بعينه، أو لمنهج بذاته.

والأمثلة على مراعاة الدعاة لهذا الأدب أكثر من أن تحصر، وله فى حياتهم عدة جوانب:

(أ) فإنهم كانوا دائمى الثناء على بعضهم:

يقول الإمام مالك عن الإمام أبى حنيفة: «لو ناظرنى أبو حنيفة فى أن نصف هذه الاسطوانة ذهب أو فضة لقام بحجته»[٣].

ويقول الشافعى فى شأن أبى حنيفة: «الناس عيال على أبى حنيفة فى الفقه»[٤].

ويقول الإمام الشافعى فى شأن الإمام مالك: «إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب»[٥].

---

(١) سنن الدارمى (جـ١ ـ ص٨٨).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (جـ٢ ـ ص٣٦).

(٣، ٤) لزوم اتباع مذاهب الأئمة حسمًا للفوضى الدينية (ص٣٨) محمد الحامد ـ طبعة ثالثة سنة ١٣٩٨ هـ ـ دار الأنصار بالقاهرة.

(٥) إحياء علوم الدين (جـ١ ـ ص٤٦).

ويقول الإمام أحمد فى شأن الإمام الشافعى: «ما مسَّ أحد بيده محبرة إلا وللشافعى ـ رحمه الله ـ فى عنقه منَّة»[١].

وروى عنه أنه قال: «يروى فى الحديث أن الله تبارك وتعالى يبعث على رأس كل مائة عام من يصحح لهذه الأمة دينها[٢]، فنظرنا فى المائة الأولى فإذا هو عمر ابن عبد العزيز، ونظرنا فى المائة الثانية فإذا هو الشافعى»[٣].

وقال الإمام الشافعى فى شأن الإمام أحمد بن حنبل: «خرجت من بغداد وما خلفت بها أورع، ولا أتقى، ولا أفقه، ولا أعلم من أحمد بن حنبل»[٤].

وقال أيضًا: «كل ما فى كتبى: حدثنى الثقة فهو أحمد بن حنبل»[٥].

(ب) وكانوا إلى جانب الثناء العطر باللسان آية فى الاحترام والإجلال بالأسلوب العملى:

يقول الإمام الشعبى: «صلى زيد بن ثابت على جنازة، فقربت إليه بغلته ليركبها، فجاء ابن عباس فأخذ بركابه، فقال زيد: خلِّ عنه يا ابن عمِّ رسول الله ﷺ.

فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء»[٦].

وقال الإمام الشافعى: «كنت أصفح الورقة بين يدى مالك ـ رحمه الله ـ صفحًا رفيقًا هيبة له، لئلا يسمع وقعها»[٧].

ومن أدلة الاحترام المتبادل بين العلماء كذلك ما ذكر أن يحيى بن معين قال فى شأن الإمام أحمد بن حنبل: «والله ما تحت أديم السماء أفقه من أحمد بن حنبل،

---

(١) المرجع السابق (جـ١ ـ ص٤٥).

(٢) الحديث رواه أبو داود (جـ٢ ـ ص٤٦٢) كتاب الملاحم ـ باب ما يذكر فى قرن المائة ـ وقال عنه السيوطى فى الجامع الصغير: صحيح (جـ٢ ـ ص٢٨١) من فيض القدير، وذكر المناوى أن الزين العراقى وغيره صحح إسناده، ووافق الألبانى من صححه فى (صحيح الجامع الصغير) (جـ١ ـ ص١٤٣) طبعة المكتب الإسلامى ـ طبعة ثالثة ـ سنة ١٩٨٢م.

(٣) صفة الصفوة (جـ٢ ـ ص١١٣).

(٤، ٥) صفة الفتوى والمفتى والمستفتى (ص٧٦) أحمد بن حمدان الحرانى الحنبلى.

(٦) إحياء علوم الدين (جـ١ ـ ص٨٤).

(٧) المجموع (جـ١ ـ ص٦٦).

ليس فى شرق ولا غرب مثله»[١].

وعن إجلال وتوقير الإمام أحمد ليحيى بن معين قال العباس الدورى: «رأيت أحمد بن حنبل فى مجلس روح بن عبادة سنة خمس ومائتين يسأل يحيى بن معين عن أشياء، يقول له: يا أبا زكريا كيف حدثت كذا، وكيف حدثت كذا؟ يريد أحمد أن يستثبته فى أحاديث قد سمعوها. فلما قال يحيى كتبه أحمد. وقلَّ ما سمعت أحمد بن حنبل يسمى يحيى بن معين باسمه، إنما كان يقول: قال أبو زكريا، قال أبو زكريا»[٢].

(جـ) وكانوا يكثرون من الدعاء لبعضهم بظهر الغيب:

يقول الإمام أحمد بن حنبل: «ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعى رحمه الله تعالى. فقال له ابنه عبد الله: أى رجل كان الشافعى حتى تدعو له كل هذا الدعاء؟. فقال الإمام أحمد: يا بنى: كان الشافعى ـ رحمه الله تعالى ـ كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، فانظر: هل لهذين من خَلَفٍ؟»[٣].

وعن أبى عبد الله بن الخطيب قال: «كان لأبى حمدون[٤] صحيفة فيها مكتوب ثلاثمائة من أصدقائه، قال: وكان يدعو لهم كل ليلة، فتركهم ليلة فنام، فقيل له فى نومه: يا أبا حمدون! لِمَ لَمْ تسرج مصابيحك الليلة؟ قال: فقعد وأسرج وأخذ الصحيفة، فدعا لواحد واحد حتى فرغ»[٥].

(د) وكانوا يردون الغيبة عن إخوانهم:

والسرُّ فى ذلك أن المؤمن لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وقلَّما وجد إنسان سلم من التكلم عليه، فإن أصغى المرء لقول كل قائل فى أخيه فقد خسر خسرانًا مبينًا، وإن أراد السلامة لدينه فلا يقبل فيمن صحت عدالته،

---

(١) صفة الفتوى والمفتى والمستفتى (ص٧٦).

(٢) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع (جـ٢ ـ ص٧٢) الخطيب البغدادى.

(٣) إحياء علوم الدين (جـ١ ـ ص٤٥).

(٤) أبو حمدون هو أبو محمد الطيب بن إسماعيل بن إبراهيم الذهلى، ويعرف بأبى حمدون الدلال، كان أحد القراء المشهورين، والزهاد الصالحين (جـ٢ ـ ص٣٦٥) صفة الصفوة.

(٥) صفة الصفوة (جـ٢ ـ ٣٦٦).

وعلمت بالعلم عنايته، وكان خيره غالبًا، وشره أقل عمله؛ لا يقبل فيه قول قائل لا برهان له به، بل الواجب عليه أن يرد عنه الغيبة، ويدفع عنه مقالة السوء(١).

قيل لابن المبارك: فلان يتكلم فى أبى حنيفة، فأنشد بيت ابن الرقيات:

حسدوك إن رأوك فضَّلك اللـــــــهُ بمـا فضلـت به النجبـاء(٢)

وقال سفيان بن حسين الواسطى: ذكرت رجلاً بسوء عند إياس بن معاوية(٣)، فنظر فى وجهى وقال: أغزوت الروم؟ قلت: لا. قال: السند والهند والترك؟ قلت: لا. قال: أفسلم منك الروم والسند والهند والترك، ولم يسلم منك أخوك المسلم؟. قال: فلم أعد بعدها(٤). (يعنى لم يذكر أحدًا بعد ذلك بعيب).

(هـ) وكانوا يختلفون فى الرأى مع كامل التقدير والاحترام لبعضهم:

ومرجع الاختلاف - أصلاً - هو تفاوت وجهات النظر حيال الموضوع الواحد تبعًا لما يمنحه الله لكل واحد منهم من توفيق وسداد، وتبعًا لمعايير معينة، بمقتضاها يصح الرأى المعين عند واحد منهم، ولا يصح عند غيره.

وهذا الاختلاف - عند إمعان النظر - مظهر من مظاهر التيسير والرحمة بالأمة، طالما كانت المسألة محل اجتهاد، ولو شاء الله تعالى أن يبين للناس فيها وجهًا واحدًا قاطعًا لفعل، ولكنه ترك ذلك - وهو أعلم - لحكمة التيسير المشار إليها سابقًا.

يقول أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه: «ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا، لأنه لو كانوا قَوْلاً واحدًا كان الناس فى ضيق، وأنهم أئمة يقتدى بهم، فلو أخذ رجل بقول أحدهم كان فى سعة»(٥).

وبناء على ذلك كان الأئمة - رضوان الله عليهم - يتناقشون فى المسائل العلمية،

---

(١) انظر (جامع بيان العلم وفضله) جـ٢ - ص١٩٨ - ص١٩٩.

(٢) المرجع السابق (جـ٢ - ص١٩٨).

(٣) هو إياس بن معاوية بن مرَّة، تابعى جليل ولجده صحبة، تولى قضاء البصرة، وكان يضرب به المثل فى الذكاء - انظر (جـ٩ - ص٣٣٤) البداية والنهاية - الحافظ ابن كثير.

(٤) البداية والنهاية (جـ٩ - ص٣٣٦).

(٥) جامع بيان العلم وفضله (جـ٢ - ص٩٨).

ويختلف كل منهم مع الآخر، فإما أن يجتمعوا على أقل رقعة ممكنة من الخلاف، وإما أن يتمسك كل منهم بما عليه ـ طالما قوى دليله، وأبرز اعتراضه على الرأى المخالف ـ ولكنهم لا يحملون فى قلوبهم حيال بعضهم سوى الاحترام والتقدير، والتماس العذر للمخالف فيما انتهى إليه من الرأى.

وإليك ـ أخى الداعية ـ بعضًا من الأمثلة الدالة على هذا الكلام:

عن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان كانا يتنازعان فى المسألة بينهما حتى يقول الناظر إليهما: لا يجتمعان أبدًا، فما يفترقان إلا على أحسنه وأجمله[١].

وعن العباس بن عبد العظيم العنبرى قال: «كنت عند أحمد بن حنبل، وجاءه على بن المدينى راكبًا على دابة، قال: فتناظرا فى الشهادة، وارتفعت أصواتهما حتى خفت أن يقع بينهما جفاء؛ وكان أحمد يرى الشهادة، وعلىٌّ يأبى ويدفع. فلما أراد علىٌّ الانصراف قام أحمد فأخذ بركابه»[٢].

ونكتفى بهذا القدر من الحديث حول هذه النقطة التى اقتضت أهميتها العملية فى الحياة أن نسهب فى الحديث عنها، آملين أن يتفهم الدعاة هذه الحقائق فيعيشوا سلمًا لبعضهم، حربًا لأعدائهم.

(٢) خدمة الداعية نفسه وغيره:

من مظاهر التواضع فى حياة الداعية أن يتعاون مع الآخرين، فيخدمهم ويعينهم أكثر مما يستخدمهم ويستعين بهم.

ويتأتى هذا السلوك بمحاولة الداعية أن يقوم بخدمة نفسه، وقضاء حوائجه دون اعتماد على الآخرين فى هذا، فإذا وجد من يحتاج إلى الإعانة لم يتأخر فى تقديم العون له، والأولى أن يبادر بنفسه لتقديم العون دون أن يطلب ذلك منه.

ولا يتعارض هذا التصرف مع عزة العالم ومكانته، بل يزيدها ويرقى بها.

يقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ: «لا ينقص الرجل

(١) منتخب كنز العمال بهامش مسند الإمام أحمد (جـ٤ ـ ص٧٢).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (جـ٢ ـ ص١٣٠).

الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله»[١].

وفى حياة الدعاة أمثلة كثيرة على هذا اللون من التواضع، نسوق منها هذه الأمثلة:

فها هو رسول الله ﷺ - وهو سيد الدعاة - تروى عنه أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - حديثين يشيران إلى أنه ﷺ كان يباشر حاجته بنفسه، وينضح بخدماته على الآخرين.

فعن هشام عن أبيه قال: «قيل لعائشة: ما كان النبى ﷺ يصنع فى بيته؟ قالت: كما يصنع أحدكم: يخصف نعله، ويرقع ثوبه»[٢].

وعن الأسود قال: «سألت عائشة: ما كان النبى ﷺ يصنع فى بيته؟ قالت: يكون فى مهنة أهله - تعنى خدمة أهله - فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة»[٣].

وعلى هذا الدرب سار الدعاة إلى الله تعالى دون أن يجدوا فى ذلك غضاضة، أو تنقيصًا من أقدارهم.

روى أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أتاه ليلة ضيف، وكان يكتب، فكاد السراج يطفأ، فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه؟ فقال: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه. قال: أفأنبه الغلام؟ فقال: هى أول نومة نامها، فقام عمر وملأ المصباح زيتًا، فقال الضيف: قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ذهبت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر، ما نقص منى شيء، وخير الناس من كان عند الله متواضعًا»[٤].

---

(١) إحياء علوم الدين (جـ١١ - ص١٩٦٢).

(٢) أخرجه أحمد (جـ٦ - ص١٠٦)، وأورده ابن حجر فى (فتح البارى) جـ٢٢ - ص٢٤٩، وقال عنه: أخرجه أحمد، وابن سعد، وصححه ابن حبان.

(٣) أخرجه البخارى واللفظ له (جـ١ - ص١٢٤) كتاب الأذان - باب من كان فى حاجة أهله فأقيمت الصلاة، وأخرجه كذلك فى (جـ٢ - ص٢٨٨) كتاب النفقات - باب خدمة الرجل أهله، وأخرجه كذلك فى (جـ٤ - ص٥٦) كتاب الأدب - باب كيف يكون الرجل فى أهله، وأخرجه الترمذى (جـ٤ - ص٦٥٤) كتاب صفة القيامة - باب رقم (٤٦) منه، وأخرجه أحمد (جـ٦ - ص٤٩).

(٤) إحياء علوم الدين (جـ١١ - ص١٩٦٤) بتصرف يسير.

وروى أن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ اشترى من السوق لحمًا بدرهم، فحمله فى ملحفته، فقال له أحد أصحابه: أحمل عنك يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل[١].

فما أجدر أن يعيش الداعية على هذه المعانى، مما يكسبه خلق التواضع من جهة، وحب الناس من جهة أخرى، مما يحقق التآلف بين الطرفين، وذلك يُعَدّ أولى خطوات النجاح فى طريق الدعوة.

(٣) الإحساس الدائم بالتقصير، ونفى مظاهر الغرور والعجب:

يتعرض الداعية ـ بحكم موقعه الاجتماعى، وتعرُّف الناس عليه ـ إلى أن يجتهد عليه الشيطان فى هذه المظاهر، فيحاول أن يوقع الداعية فى حبائل الغرور والعجب، ويزين له نفخة الكبر والتعالى.

ومن ثم حذر الدعاة إلى الله تعالى من هذه المزالق الخطيرة التى تجتث بركة العلم والدعوة، وتجعلها كالهشيم تذروه الرياح.

يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ليتواضع لكم من تعلمونه، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم»[٢].

ومما يعين الداعية على تحقيق هذا الجانب أن يشعر دائمًا بالتقصير فى واجبه نحو ربه ودعوته، وأن يبرز ذلك فى اعتراف دائم حتى يكسر حدة العجب من نفسه، ويقتل دافع الغرور فى قلبه.

وللداعية فى رسول الله ﷺ وسلف الأمة الصالح قدوة صالحة فى هذا المجال.

وإليك ـ أخى الداعية ـ بعضًا من الآثار التى ينضح سلوك أصحابها بالتواضع الجمّ رغم ما عرف عنهم من عظيم المنزلة، ورفيع القدر:

عن أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ أنه كان يدعو: «اللهم اغفر لى خطيئتى، وجهلى، وإسرافى فى أمرى، وما أنت أعلم به منى.

---

(١) المرجع السابق (جـ١١ ـ ص١٩٦٥).

(٢) أدب الدنيا والدين (ص٨٣) أبو الحسن الماوردى.

اللهم اغفر لى هزلى وجدِّى، وخطئى وعمدى، وكل ذلك عندى»[١].

وواضح من قوله ﷺ: «وكل ذلك عندى» أن المسألة تتعلق بإظهار التواضع لله تعالى، لا أن ظاهر الكلام مراد، والله أعلم.

وعن الحارث بن سويد قال: قال عبد الله (يعنى ابن مسعود): «لو تعلمون ما أعلم من نفسى حثيتم على رأسى التراب»[٢].

وكان عطاء السلمى ـ رضى الله عنه ـ إذا هبت ريح، أو وقعت صاعقة، يقول: «ما يصيب الناس ما يصيبهم إلا بسببى، ولو مات عطاء لتخلصوا»[٣].

وقال ابن وهب: «جلست إلى عبد العزيز بن أبى رواد فمس فخذى فخذه، فنحيت نفسى عنه، فأخذ ثيابى، فجرّنى إلى نفسه، وقال لى: لم تفعلون بى ما تفعلون بالجبابرة؟ وإنى لا أعرف رجلاً منكم شراً منى»[٤].

والأمثلة على هذا الجانب من حياة الدعاة كثيرة، وهى فى مجموعها تدل على أن المرء كلما ازدادت بالله معرفته، وتوثقت به صلته، شعر بأن أعماله ـ فى جنب واجباته ـ تافهة، وأن عبادته ـ فى جنب نعم الله ـ ضئيلة، فازداد ـ تبعًا لذلك ـ تواضعًا لله، وانكسارًا لعامة الناس.

فإن ارتمى المرء فى أحضان الغرور، واستسلم لدوافع العجب[٥]، فقد عرَّض نفسه وأعماله للرفض من قبل الله تعالى، وكان جزاؤه عند الناس معاملة بالمثل، فينال منهم الاحتقار دون الاحترام، والدعاء عليه دون الدعاء له.

---

(١) أخرجه البخارى، واللفظ له (جـ٤ ـ ص١١٣) كتاب الدعوات ـ باب قول النبى ﷺ اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت، وأخرجه مسلم (جـ٤ ـ ص٢٠٨٧) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ـ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، وأخرجه أحمد (جـ٤ ـ ص٤١٧).

(٢) صفة الصفوة (جـ١ ـ ص٤٠٦).

(٣، ٤) إحياء علوم الدين (جـ١١ ـ ص١٩٥٧، ١٩٦٤).

(٥) من أقبح الأمثلة على غرور المرء وإعجابه بنفسه ما ذكره ابن حجر الهيتمى فى كتابه (الزواجر عن اقتراف الكبائر) جـ١ ـ ص٢٥ نقلاً عن بعض المغرورين قال: «وددت أن قد قامت القيامة حتى أنصب خيمتى على جهنم. فسأله رجل: ولم ذلك؟ فقال: إنى أعلم أن جهنم إذا رأتنى تخمد، فأكون رحمة للخلق» اهـ.

وصدق من قال:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر على صفحات الماء، وهو رفيع

ولا تك كالدخان يعلو بنفسه على طبقات الجو، وهو وضيع

وفقنا الله تعالى لأن نكون من المتواضعين، ونعوذ به من الكبر والمتكبرين، والله أعلم.

* * *

٤. قوة الثقة بالله تعالى

يتحرك الداعية فى حياته العملية بمقتضى مجموعة من الدوافع، منها ـ على سبيل المثال ـ: الحرص على القيام بواجب الدعوة، والرغبة فيما عند الله تعالى من الثواب، وغير ذلك.

وهذه الدوافع كلها لا تؤتى ثمرتها على الوجه الأكمل ما لم تدعمها قوة ثقة الداعية بالله تعالى، ورجاؤه فى حصول النصر والتمكين للإسلام والمسلمين مهما تعاظمت المصاعب، وتطاولت أزمنة العلاج.

وأهمية هذه الصفة فى حياة الداعية تبدو فى كونها المحرِّك الدائم لهمَّة الداعية حتى يعمل دون فتور أو كلال، وأن يقاوم ـ فى نفسه ـ نوازع التقاعد والتخاذل إذا أحس بقوة الباطل وكثرة أتباعه.

إنها صفة تجعل الداعية ـ فى أحرج المواقف ـ يوقن بأن الباطل زهوق، وأن دولته ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة، ومن ثم فهو لا يدخر وسعًا فى استغلال كل الطاقات والإمكانات لنصرة دعوته، فإن حدث ولم يَرَ الداعية ثمرة عاجلة لدعوته لم يتسلل إليه اليأس والإحباط، بل يوقن بأن الثمرة آتية لا ريب فيها، فى الوقت والمكان الذى يريده الله تعالى لا الذى يريده الدعاة.

يقول الأستاذ سيد قطب فى شأن الدعاة:

«إنهم أجراء عند الله، أينما وحيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا عملوا وقبضوا الأجر المعلوم، وليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة إلى أى مصير، فذلك شأن صاحب الأمر لا شأن الأجير»[١].

ويستأنس لضرورة وجود هذه الصفة فى حياة الداعية بقوله تعالى لرسول ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢]. فأثبت له هداية الدعوة والدلالة على طريق الحق.. وفى آية أخرى قال له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ

(١) معالم فى الطريق (ص١٩٧) طبعة تاسعة سنة ١٩٨٢ ـ دار الشروق.
(٢) سورة الشورى (٥٢).

﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾[١]. فنفى عنه هداية التوفيق والأخذ الفعلى بيد الناس إلى طريق الله تعالى.

وملاحظة الداعية للفرق بين الآيتين يعطيه ـ ما سبقت الإشارة إليه ـ من أن عليه أن يعمل، وليس عليه أن يدرك النجاح.

وعلى هذا الهدى سار أئمة الدعوة فى كل عصرٍ ومصرٍ، ولم تقعدهم قلة العدد أو العدة عن القيام بواجبهم حتى تحقق لهم نصر الله.

• أمثلة على قوة الثقة بالله تعالى من حياة الدعاة:

تمتلئ حياة الدعاة بصفحات مشرقة من قوة ثقتهم بالله تعالى وبنصره وتأييده رغم ما عانوه من شدائد، وما اعترضهم من عقبات.

وإليك ـ أخى الداعية ـ بعضًا من هذه الأمثلة:

(١) هذا نبى الله موسى ـ عليه السلام ـ يواجه فى عصره أعظم إمبراطورية على وجه الأرض: غنى فى المال، وقوة فى العتاد، وتمكينًا فى الأرض.

ومع قلة الإمكانات المتاحة لسيدنا موسى عليه السلام إلا أنه مضى ومعه أقوى سلاح، وهو سلاح الثقة بالله، والذى وعده الله به فى قوله: ﴿**إننى معكما أسمع وأرى**﴾[٢].

وفى حوار دار بين نبى الله موسى وعدو الله فرعون كانت الغلبة لموسى ـ عليه السلام ـ فاستدعى فرعون سحرة مملكته ليتباروا مع موسى بعد أن اتهمه بأنه ساحر، فكان أن آمن السحرة كلهم بالله رب العالمين، فقطع فرعون أيديهم وأرجلهم من خلاف، وصلبهم فى جذوع النخل، فلم يثنهم ذلك عن إيمانهم، ولم يلن من عزيمتهم، بل قالوا فى تجلد واحتمال: ﴿**قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاضٍ إنما تقضى هذه الحياة الدنيا**﴾[٣].

وإزاء الحق الواضح أسلم بنو إسرائيل بموسى ـ عليه السلام ـ وكانوا من قبل

---

(١) سورة القصص (٥٦).

(٢) سورة طه (٤٦).

(٣) سورة طه (٧٢).

ضعفاء أذلاء، فازداد حالهم سوءًا، فاشتكوا إلى نبيهم موسى قائلين: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[1].

وبترتيب من الله تعالى يخرج موسى بقومه بنى إسرائيل من أرض مصر، فيدركهم فرعون بجنوده، ويعترضهم البحر، فيرتجفون قائلين: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ فيجيب: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ وهنا يأتى الأمر من الله ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾[2].

وهلك فرعون وقومه الأثرياء، وعاش بنو إسرائيل الفقراء يمتلكون نواصى الأمور، وعزوا بعد أن كانوا أذلاء، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[3].

ترى ـ أخى الداعية ـ لو أن نبى الله موسى كان يفكر بحساب الإمكانات، ويزن كل شىء بميزان الواقع، هل كان سيتقدم بالدعوة خطوة؟ كلا، لقد كان المنتظر ـ بهذا المنطق المتخاذل ـ أن يرضى بالوضع السائد دون مخاطرة بمقابلة فرعون الطاغية، ولقنع بحظه وحظ قومه، ولم يقم بدعوة للإيمان والأخلاق والتقوى بناء على ذلك كله.

ولكنه ـ كنبى وداعية ـ يوقن بأن الضعيف إذا نصره الله فهو قوى، والقوى إذا خذله الله فهو ضعيف، ومن ثم تحرك بثقة الداعية فى نصر الله، فكان أن حقق الله وعده، ولا مبدل لكلمات الله.

(٢) وهناك أيضًا سيدنا محمد ﷺ وظروف بعثته معروفة، فالعالم بين رحى الفرس والروم، وقريش قبيلة صغيرة لا تزن إمكاناتها ذرة إلى جانب هؤلاء، ومع

(١) سورة الأعراف (١٢٩).
(٢) سورة الشعراء (٦١:٦٦).
(٣) سورة الأعراف (١٣٧).

ذلك حاربوا رسول الله ﷺ واضطر إلى الهجرة، ونال ما نال من أذى قومه، فلم يمنعه ذلك ﷺ من القيام بدعوته على الوجه الأكمل، فأرسل بالرسائل إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، واستقبل الوفود، وخاض الحروب، حتى ارتفعت راية الإسلام فى كل مكان.

ولو حسب الرسول ﷺ المسألة بحساب الإمكانات والقدرات لعجز عن التحرك، ولشقيت الإنسانية شقاءً طويلاً، وتأخر أو توقف طلوع الصبح الصادق، ولكان للإنسانية تاريخ غير هذا التاريخ[١].

(٣) وفى العصر الحديث برز من الدعاة من يقوم بواجبه فى ظروف حالكة الظلمة، فأسرع البعض يلومونه على الجهد الضائع، ويوهمونه بأنه لا فائدة من هذا كله، فأنشد الدكتور يوسف القرضاوى ـ جزاه الله خيراً ـ يصوِّر الحوار والردَّ عليه فى أبيات شعرية قائلاً:

عجبت لهم قالوا: تمـــاديت فى المنى
وفى المثل العليا وفى المرتقى الصعب
فأقصر ولا تجهـــــد يراعك[٢] إنما
ستبـذر حبًا فى ثرى ليس بالخصب
فقلت لهم: مهلاً، فما اليأس شيمتى
سأبـذر حبى، والثمـــار من الرب
إذا أنا بلغـت الرســالة جاهـــدًا
ولم أجـد السمع المجيب فمـا ذنبى؟[٣]

ولقد بارك الله فى همَّة هذا الشيخ الجليل وإخوانه حتى رأوا بأعينهم كثيراً من ثمار الصبر على الدعوة، وعدم الكلال واليأس، فجزاهم الله عنا خير الجزاء.

---

(١) انظر (إلى الإسلام من جديد) من (ص٤٥: ص٥٥) الشيخ أبو الحسن الندوى ـ طبعة المختار الإسلامى ـ بدون تاريخ.

(٢) اليراع: القلم.

(٣) نفحات ولفحات (ديوان شعر) الدكتور يوسف القرضاوى ـ ص٥١ ـ طبعة ثانية سنة ١٩٨٨ ـ دار الصحوة بالقاهرة.

• **الدعوة الإسلامية فى مواجهة المتخاذلين:**

عندما يواجه البعض ظروفًا قاسية ـ أحيانًا ـ لا يجد من نفسه قدرة على الاستمرار، فينسحب من الميدان مؤثرًا السلامة، وربما انقلب حاله ـ والعياذ بالله ـ من الخير إلى الشر.

ولقد حارب رسول الله ﷺ هذه الروح الانهزامية، وقاومها بشدة حين أحس بتسللها إلى نفوس بعض أصحابه، فعن خباب بن الأرت ـ رضى الله عنه ـ قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟[١]، فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه. والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[٢].

ومن عجيب الأمر أن يحاول البعض من هؤلاء المتخاذلين تبرير موقفهم هذا بأدلة من كلام النبى ﷺ فهموها على غير وجهها أو وضعوها فى غير موضعها.

ومن ذلك قوله ﷺ: «بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود كما بدأ غريبًا، فطوبى للغرباء»[٣].

وقوله ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: أو من قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء

---

(١) قول خباب بن الأرت ومن معه: «ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟» أسلوب بلاغى يقال عنه الاستبطاء.

(٢) أخرجه البخارى بهذا اللفظ (جـ٤ ـ ص٢٠٠) كتاب الإكراه ـ باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، وأخرجه أبو داود (جـ٢ ـ ص٤٨) كتاب الجهاد ـ باب فى الأسير يكره على الكفر، وأخرجه أحمد (جـ٥ ـ ص١١١).

(٣) أخرجه مسلم، واللفظ له (جـ١ ـ ص١٣٠) كتاب الإيمان ـ باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، وأخرجه الترمذى (جـ٥ ـ ص١٨) كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، وأخرجه ابن ماجه (جـ٢ ـ ص١٣٢٠) كتاب الفتن ـ باب بدأ الإسلام غريبًا، وأخرجه أحمد (جـ١ ـ ص٣٩٨).

السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله فى قلوبكن الوهن. فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا، وكراهية الموت»[١].

يتصور هؤلاء أن هذين الحديثين ـ وأمثالهما ـ يوحيان باليأس من أى عمل، ونفض اليد من أى محاولة لإصلاح الفساد، أو معالجة الأخطاء.

ولا يتصور عاقل ـ مهما قلت درجة ثقافته ـ أن رسول الله ﷺ يقول مثل هذه الأحاديث ليثبط عزائم أمته، أو يقعدهم عن واجب الأمر والنهى إذا لزم ذلك.

كيف يتفق هذا الفهم مع أن الرسول ﷺ وصحابته عاشوا غرباء ـ بنص الحديث ـ ومع ذلك جاهدوا وصبروا، ولم يتخاذلوا.

وكيف يتفق هذا الفهم مع ما ورد فى نهاية هذا الحديث فى بعض الروايات: «فطوبى للغرباء» قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدى من سنتى»[٢].

ألا يفهم من له أدنى عقل أن هذه دعوة صريحة لإصلاح ما يفسده الناس من منهج النبوة، والاجتهاد فى الأخذ بيد الشاردين لردهم إلى المنهج المستقيم؟.

وأما الحديث الثانى فهو إخبار عما سيئول إليه أمر الأمة فى مستقبلها، فيلفت النبى ﷺ نظر الأمة إلى السبب الرئيسى فى الضعف حتى تحاول التغلب عليه، والمعروف أن أول مراحل العلاج معرفة أسباب المرض.

وفضلاً عن ذلك فإن ثمت أحاديث كثيرة تبشر باتساع رقعة الإسلام، وتفيد أن المستقبل للمسلمين، وأن الخير لا ينقطع من هذه الأمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها. ومن ذلك حديث سبقت الإشارة إليه فى صفة التواضع، وهو قوله ﷺ «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود (جـ٢ ـ ص٤٦٤) كتاب الملاحم ـ باب فى تداعى الأمم على الإسلام، وأخرجه أحمد (جـ٢ ـ ص٣٥٩) بنحوه.

(٢) هذه رواية الترمذى (جـ٥ ـ ص١٨).

(٣) سبق تخريجه فى الصفة السابقة (صفة التواضع).

وقوله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين، وإنما أنا قاسم ويعطى الله، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيمًا حتى تقوم الساعة، أو حتى يأتى أمر الله»[١].

فهذه الأحاديث وأمثالها يجب على الداعية أن يسلح بها نفسه فى مواجهة هؤلاء المثبطين، وأن يقوم بدوره فى كشف عورات هؤلاء، حتى لا تسرى عدواهم إلى الآخرين فتصاب الدعوة بالشلل والقعود[٢].

هذا؛ ويجب على الداعية ـ إلى جانب ما سبق، وحتى يمتلئ ثقة فى ربه ـ أن يراعى مسألة التدرج فى العمل، وأن لا يغفل عن سنن الله فى الأنفس والأكوان، فإن ذلك يجعله أوثق خطى، وأجدى دعوة.

ونستأنس لهذا المعنى بما فعله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ من محاولة العودة بالمجتمع إلى هدى الخلفاء الراشدين، فكان يسير بخطى وئيدة فى تغيير ما يجب، فأنكر عليه ابنه عبد الملك عدم إسراعه فى إزالة كل بقايا الانحراف، وقال له: «ما لك لا تنفذ الأمور؟ فوالله ما أبالى، لو أن القدور غلت بى وبك فى الحق. فقال: له أبوه: «لا تعجل يا بنى، فإن الله ذمَّ الخمر فى القرآن مرتين، وحرَّمها فى الثالثة، وإنى أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة، فيدفعوه جملة وتكون من ذا فتنة»[٣].

فعلى الداعية أن يقوم بدوره واثقًا بنصر الله، مطمئنًا إلى تحقيق موعوده، وحسبه أن يبدأ العمل للإسلام فى مجال ليشجع الأجيال اللاحقة على الاستمرار، فإن البدء فى شىء ـ ولو كان عسيراً ـ دليل على إمكان الانتهاء فيه.

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[٤].

---

(١) أخرجه البخارى (جـ٤ ـ ص٢٦٣) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ـ باب قول النبى ﷺ: لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق يقاتلون، وهم أهم العلم، وأخرجه مسلم بنحوه (جـ٣ ـ ص١٥٢٣) كتاب الإمارة ـ باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم».

(٢) انظر (ثقافة الداعية) ص٥٤: ص٥٩ الدكتور يوسف القرضاوى.

(٣) الموافقات للشاطبى (جـ٢ ـ ص٩٣) طبع دار المعرفة ـ بيروت ـ بدون تاريخ.

(٤) سورة الحج الآية: ٤٠.

الفصل الثانى

الأخلاق الظاهرية

• تمهيد:

تحرص تعاليم الإسلام على أن توجد فرداً متكاملاً فى مظهره ومخبره، وسره وعلانيته.

ويستأنس لهذا المعنى بقول رسول الله ﷺ: «. . . ألا وإن فى الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب»[1].

والحديث ـ عند التدقيق فى معناه ـ يشير إلى أن غاية الدعوة الإسلامية إصلاح الكيان الإنسانى كله: قلبًا وقالبًا، وذلك ببيان الترابط بينهما، فصلاح القلب قنطرة لصلاح الجسد كله، وصلاح الجسد مرشح لصلاح القلب.

ولئن كانت الأخلاق القلبية ـ التى مضى الحديث عنها ـ ذات جانب ظاهرى، فإنها ـ بالدرجة الأولى ـ سرّ بين العبد وربه لا يطلع عليه أحد، ولكن تبقى إلى جانبها أخلاق أخرى يغلب عليه الطابع الظاهرى، وإن لم يعْن ذلك أنها مقطوعة الصلة بالقلب.

وكما أفردنا الأخلاق القلبية بحديثنا فيما مضى، نلحقها بحديث عن الأخلاق الظاهرية للدعاة، آملين أن تحقق هذه التوجيهات هدفها الأسمى من إيجاد دعاة على المستوى اللائق قلبًا وقالبًا.

والله تعالى من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

(١) أخرجه البخارى (جـ١ ـ ص١٩) كتاب الإيمان ـ باب فضل من استبرأ لدينه، وأخرجه مسلم (جـ٣ ـ ص١٢١٩) كتاب المساقاة ـ باب أخذ الحلال وترك الشبهات. وأخرجه ابن ماجه (جـ٢ ـ ص١٣١٨) كتاب الفتن ـ باب الوقوف عند الشبهات، وأخرجه أحمد (جـ٤ ـ ص٢٧٠).

١. الحرص على طلب العلم

ينظر الناس إلى الداعية على أنه طبيب قلوبهم، ودواء عللهم، ومن ثمَّ يفصحون له بما يستحيون من ذكره أمام خاصتهم وذويهم.

ولا يلجأ الناس لمثل هذا المسلك إلا إذا علموا بأن لدى الداعية من القدرة العلمية، والبصيرة النافذة، ما يسد خللهم، ويقيل عثراتهم.

فإذا نظر الناس إلى الداعية هذه النظرة ثم وجدوه خاويًا سقط على الفور من أعينهم، وفشلت محاولاته فى جذب الناس إلى الدعوة طالما كان على جهل بمبادئها وأصولها.

ومن ثمَّ كان على الداعية ـ إذا أراد الفلاح والنجاح لدعوته ـ أن يكون على فقه فى دين الله، وأن يستكثر فى فترات عمره كلها من العلم النافع، عملاً بقول الله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[١].

وإذا كان الحكم على الشىء فرعًا عن تصوره، فإنى أستئذنك ـ أخى الداعية ـ فى أن أضع بين يديك هذه النقاط التى بمقتضاها تدرك أهمية العلم، وضرورة تحصيله.

• أهمية طلب العلم، وأمثلة من حياة الدعاة على العناية به:

تتضح أهمية طلب العلم للناس جميعًا ـ فضلاً عن الدعاة ـ فى النقاط التالية:

(١) أن العلم هو العاصم من الزلل للفرد والمجموع على السواء.

ففى شأن الفرد جاء عن الإمام الحسن البصرى قوله: «العامل على غير علم كالسالك على غير طريق»[٢].

وجاء فى الأثر أيضًا: «من سلك طريقًا بغير دليل ضلَّ، ومن تمسَّك بغير أصل زلَّ»[٣].

---

(١) سورة طه (١١٤).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (جـ١ ـ ص١٦٤) ابن عبد البر.

(٣) هداية المرشدين (ص٨٨) على محفوظ.

وفى شأن الجماعة، وصيانة العلم لها من التفكك يقول رسول الله ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رءوسًا جهَّالا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»(١).

وموطن الشاهد فى الحديث أن غياب العلم عن ساحة الناس بغياب حملته إيذان بحلول الفوضى والاضطراب، حيث يكون البديل - وقتئذٍ - جهالاً يفتون بغير علم، فيضلون بأنفسهم، ويُضِلون غيرهم.

(٢) أن دعوة الإسلام إلى العلم لم تأت من فراغ، وإنما لكون العبادة على غير علم يمكن أن ترتد سهامًا فى صدر صاحبها حين لا يكون له من العلم ما يصونه عن الانحراف.

يقول الحسن البصرى - رضى الله عنه -: «العامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلبًا لا تضروا بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبًا لا تضرُّوا بالعلم، فإن قومًا طلبوا العبادة وتركوا العلم، حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ، ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا»(٢).

ولعل ألصق الأمثلة بهذه النقطة ما ذكره رسول الله ﷺ فى شأن الخوارج، حيث يقول ﷺ: «يخرج قوم من أمتى يقرءون القرآن، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشىء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشىء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشىء، يقرءون القرآن، يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية»(٣).

---

(١) أخرجه البخارى، واللفظ له (جـ١ - ص٣٠) كتاب العلم - باب كيف يقبض العلم، وأخرجه مسلم (جـ٤ - ص٢٠٥٨) كتاب العلم - باب هلك المتنطعون، وأخرجه الترمذى (جـ٥ ص٣١) كتاب العلم - باب ما جاء فى ذهاب العلماء، وأخرجه ابن ماجه (جـ١ - ص٢٠) المقدمة - باب اجتناب الرأى والقياس، وأخرجه أحمد (جـ٢ - ص١٦٢).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (جـ١ - ص١٦٤) ابن عبد البر.

(٣) أخرجه مسلم، واللفظ له (جـ٢ - ص٧٤٦) كتاب الزكاة - باب التحريض على قتل الخوارج، وأخرجه البخارى بألفاظ قريبة منه (جـ٢ - ص٢٨١) كتاب المناقب - باب علامات النبوة فى الإسلام، وأخرجه أبو داود (جـ٢ - ص٥٩٥) كتاب السنة - باب فى قتال الخوارج، وأخرجه =

وفى رواية أخرى فى شأن هؤلاء القوم أيضًا: «يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان»[١].

من أجل هذا ـ وغيره ـ كانت توجيهات الإسلام إلى ضرورة طلب العلم، والحرص على الاستكثار منه.

يقول المولى ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[٢].

ويقول رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين..»[٣].

وعن سفيان بن عيينة قال يومًا لأصحابه: «من أحوج الناس إلى طلب العلم؟ قالوا: قل يا أبا محمد. قال: ليس أحد أحوج إلى طلب العلم من العالم، لأنه ليس الجهل بأحد أقبح به من العالم»[٤].

ولسنا بصدد التعرض لما ورد من آيات وأحاديث بهذا الخصوص فهى أكثر من أن تحصر، ويكفى ـ للتدليل على كثرتها ـ أن نشير إلى أن الإمام الجليل شمس الدين ابن القيم قد أفرد فى مقدمة كتابه (مفتاح دار السعادة) العديد من الصفحات للحديث عن فضل العلم وأهله وعموم الحاجة إليه، وذلك من وجوه، وصلت

= النسائى بنحوه (جـ٧ ـ ص١٠٩) كتاب تحريم الدم ـ باب من شهر سيفه ثم وضعه فى الناس، وأخرجه أحمد (جـ١ ـ ص٩٢).

(١) أخرجه البخارى (جـ٢ ـ ص٢٣٢) كتاب أحاديث الأنبياء ـ باب قول الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، وأخرجه مسلم (جـ٢ ص٧٤٢) كتاب الزكاة ـ باب ذكر الخوارج وصفاتهم، وأخرجه أبو داود (جـ٢ ـ ص٥٩٤) كتاب السنة ـ باب فى قتال الخوارج، وأخرجه النسائى (جـ٧ ـ ص١٠٩) كتاب تحريم الدم ـ باب من شهر سيفه ثم وضعه فى الناس، وأخرجه أحمد (جـ٣ ـ ٦٨).

(٢) سورة طه (١١٤).

(٣) أخرجه البخارى (جـ١ ـ ص٢٤) كتاب العلم ـ باب من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين، وأخرجه مسلم (جـ٢ ـ ص٧١٨) كتاب الزكاة ـ باب النهى عن المسألة، وأخرجه الترمذى (جـ٥ ـ ص٢٨) كتاب العلم ـ باب إذا أراد الله بعبد خيرًا فقهه فى الدين، وأخرجه ابن ماجه (جـ١ ـ ص٨٠) المقدمة ـ باب فضل العلماء، والحث على طلب العلم، وأخرجه أحمد (جـ١ ـ ص٣٠٦).

(٤) تقريب كتاب الفقيه والمتفقه (ص٣٠٤) الحافظ الخطيب البغدادى ـ الناشر زكريا على يوسف، بدون تاريخ.

عنده إلى أكثر من مائة وخمسين وجهًا.

وتقديرًا من الدعاة لهذا الجانب فى حياتهم حفلت كتب العلم بالكثير من الأمثلة عن عنايتهم بالعلم، وحبهم له، وتفانيهم فى تحصيله.

وإليك ـ أخى الداعية ـ هذه الأمثلة لعلها تكون حافزًا لنا على اقتفاء أثر أئمتنا، وسلوك منهجهم، فيتحقق للإسلام ـ من خلال دعاته الفاقهين ـ ما تصبو إليه الآمال:

(١) عن عكرمة عن ابن عباس قال: «لما قبض رسول الله ﷺ ـ وأنا شاب ـ قلت لشاب من الأنصار: يا فلان، هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ، ولنتعلم منهم، فإنهم كثير. قال: العجب لك يا ابن عباس، أترى الناس يحتاجون إليك وفى الأرض من ترى من أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: فتركت ذلك وأقبلت على المسألة، وتتبع أصحاب رسول الله ﷺ، فإن كنت لآتى الرجل فى الحديث يبلغنى أنه سمعه من رسول الله ﷺ، فأجده قائلاً[١]، فأتوسد ردائى على بابه تسفى الريح على وجهى حتى يخرج، فإذا خرج قال: يا ابن عم رسول الله ﷺ: ما لك؟ فأقول: بلغنى حديث عنك أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ، فأحببت أن أسمعه منك. قال: فيقول: فهلا بعثت إلىَّ حتى آتيك؟ فأقول: أنا أحق أن آتيك. فكان الرجل بعد ذلك يرانى ـ وقد ذهب أصحاب رسول الله ﷺ، واحتاج الناس إلىَّ ـ فيقول: كنت أعقل منى»[٢].

(٢) قال إسماعيل بن يحيى المزنى: قيل للشافعى: كيف شهوتك للعلم؟ قال: أسمع بالحرف مما لم أسمعه، فتود أعضائى أن لها أسماعًا تتنعم به مثلما تنعمت به أذناى. قيل له: فكيف حرصك عليه؟ قال: حرص الجموع المنوع فى بلوغ لذته للمال. قيل له: فكيف طلبك له؟ قال: طلب المرأة المضلة ولدها ليس لها غيره[٣]. اهـ.

---

(١) فأجده قائلاً: راقدًا وقت القيلولة.

(٢) جامع بيان العلم وفضله (جـ١ ـ ص١٠٢) ابن عبد البر، وذكره أيضًا بنحوه الحافظ البغدادى (جـ١ ـ ص١٥٨) الجامع لأخلاق الراوى، وآداب السامع.

(٣) مع الرعيل الأول (٦٥) محب الدين الخطيب ـ طبعة ثامنة سنة ١٤٠٠هـ ـ المكتبة السلفية.

(٣) جاء فى كتاب (ذيل طبقات الحنابلة)[١] عن ابن عقيل النحوى الفقيه الحنبلى أنه قال: «إنى لا يحل لى أن أضيع ساعة من عمرى، حتى إذا تعطل لسانى عن مذاكرة ومناظرة، وبصرى عن مطالعة، أعملت فكرى فى حال راحتى وأنا مستطرح» اهـ.

(٤) ومن الأمثلة الدالة على ذلك أيضًا رحلاتهم المتكررة بين البلاد طلبًا للعلم، وبحثًا عن الفائدة. وفى تقديرهم لهذه الوسيلة يقول أحدهم، وهو الإمام الشعبى: «لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن فى كلمة تدله على هدى، أو ترده عن رَدَى، ما كان سفره ضائعًا»[٢].

ومن الأمثلة العملية فى هذا المجال ما يلى:

(أ) أورد الإمام البخارى فى صحيحه أن الصحابى الجليل جابر بن عبد الله رحل مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس فى حديث واحد[٣].

(ب) وقال الإمام سعيد بن المسيب ـ رضى الله عنه ـ: «إن كنت لأسير الليالى والأيام فى طلب الحديث الواحد»[٤].

(جـ) وقال الإمام أحمد بن حنبل ـ رضى الله عنه ـ: «رحلت فى طلب العلم والسُّنة إلى الثغور، والشامات، والسواحل، والمغرب، والجزائر، ومكة، والمدينة، والحجاز، واليمن، والعراقين جميعًا، وفارس، وخراسان، والجبال، والأطراف، ثم عدت إلى بغداد»[٥].

هذا ويطول الكلام فى شأن حرص السلف الصالح على طلب العلم، وتفانيهم فى سبيله، ولكن خشية الإطالة أكتفى بما ذكرت، وأحيل من أراد الزيادة إلى الكتب المتخصصة فى هذا المجال[٦].

---

(١) المرجع المذكور (جـ١ ـ ص١٤٦)، (جـ٢ ـ ص٣٦١).

(٢) إحياء علوم الدين (جـ٦ ـ ص١٠٨١) وذكره ابن عبد البر بنحوه (جـ١ ـ ص١١٤) جامع بيان العلم وفضله.

(٣) صحيح البخارى (جـ١ ـ ص٢٥) كتاب العلم ـ باب الخروج فى طلب العلم.

(٤) جامع بيان العلم وفضله (جـ١ ـ ص١١٣).

(٥) صفة الفتوى والمفتى والمستفتى (ص٧٨) الإمام أحمد بن حمدان الحرانى الحنبلى.

(٦) راجع كتاب (الرحلة فى الحديث) للحافظ الخطيب البغدادى.

• **توجيهات للداعية فى مجال طلبه للعلم:**

بقدر ما يحرص المرء على أن تكون المقدمات فى أى عمل سليمة تكون النتائج ـ بإذن الله تعالى ـ سليمة.

ولئن كان النظام فى كل شىء مدعاة إلى تحقيق النجاح، والوصول إلى الكمال ـ أو القرب منه ـ فإن مراعاة الداعية لهذا فى مجال طلبه للعلم يعينه على تحقيق المراد إن شاء الله تعالى.

وإليك ـ أخى الداعية ـ بعضًا من التوجيهات المتعلقة بالكيفية السليمة لطلب العلم، راجيًا من الله تعالى أن ينفعنا جميعًا بالعلم النافع، والعمل الصالح:

(١) تحديد الأولويات فى أثناء الطلب:

لا يتسع العمر لطالب العلم كى ينال كل شىء، وقد جاء فى الأثر: «منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب مال».

فإذا لم يكن إلى الإحاطة بجميع العلوم سبيل، فإن من الواجب صرف الاهتمام إلى العناية بأفضل العلوم وأهمها، وتقديمها على ما سواها.

يقول الإمام الجليل عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ:

ما أكثر العلم وما أوسعه ... من ذا الذى يقدر أن يجمعه

إن كنت لا بد له طالبًا ... محاولاً فالتمس أنفعه[1]

وإليك ـ أخى الداعية ـ ترتيب العلوم حسب أهميتها:

(١) أول ما يجب صرف عناية الداعية إليه حفظ كتاب الله تعالى، وتقديم ذلك على ما سواه.

يقول ابن عبد البر: «طلب العلم درجات ومناقل ورتب لا ينبغى تعديها، ومن تعداها جملة فقد تعدى سبيل السلف رحمهم الله، ومن تعدى سبيلهم عامدًا ضل ومن تعداه مجتهدًا زل، فأول العلم حفظ كتاب الله جل وعز وتفهمه...»[2].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (جـ١ ـ ص١٢٧).

(٢) المرجع السابق (جـ٢ ـ ص٢٠٤).

ويقول الإمام النووى: «كان السلف لا يعلمون الحديث والفقه إلا لمن يحفظ القرآن»[١].

وباستيعاب القرآن الكريم وآياته يكون الداعية قد حصَّل من المعارف ما يصعب جمعه فى كتاب آخر سواه، إذ يشتمل القرآن ـ فيما يشتمل ـ على العقائد، والعبادات، والأخلاق، والقصص، ومناهج التشريع، وأساليب التربية.. إلخ.

فإذا خلا الداعية من حفظ القرآن الكريم صار فى مجال الدعوة عاجزًا عن تقديم الأدلة واستحضارها، مما يجعله ضعيف الحجة.

هذا، وقد مُثِّل الداعية الذى لا يحفظ القرآن بالرجل يتحلى بثوب حسن فى الظاهر، ولكنه لا يكتسى تحته بإزار، فإذا لفحته الريح كشفت عورته، وأبانت عن سوءته.

فليبادر الدعاة إلى استدراك هذا القصور فى سبيل عرض الدعوة مشفوعة بالحجة القوية، والبراهين والأدلة الحاضرة.

ومما يعين الداعية على حفظ القرآن وإتمامه فى وقت وجيز أن يضع أمامه هذه التوصيات:

(أ) أن يرتبط بشيخ.

(ب) أن يديم مطالعة القرآن بانتظام حتى لا يعرض ما يحفظه للنسيان، وأجدى الأساليب للمراجعة أن يقرأ ما يحفظه فى الصلاة.

(جـ) أن يجتهد فى تحفيظ الآخرين ما يحفظه من القرآن، فقد قيل: «من أراد أن يحفَظ القرآن فليحفِّظ القرآن».

(د) أن يقوم بأداء صلاة الحفظ التى أوردها الإمام الترمذى فى سننه وحسَّن إسنادها[٢]، مشيرًا إلى أن الرسول ﷺ قد أوصى بها سيدنا على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ حين شكا إليه أن القرآن يتفلت منه. وصفة الصلاة كالآتى:

أن يأتى المرء ليلة الجمعة فيصلى فى وقت متأخر ـ ما أمكنه ـ أربع ركعات،

(١) المجموع ـ شرح المهذب (جـ١ ـ ٦٩).

(٢) سنن الترمذى (جـ٥ ـ ص٥٦٣) كتاب الدعوات ـ باب فى دعاء الحفظ.

يقرأ فى الأولى بالفاتحة وسورة يس، وفى الثانية بالفاتحة والدخان، وفى الثالثة بالفاتحة والواقعة، وفى الرابعة بالفاتحة والملك. . فإذا فرغ من الصلاة حمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على رسول الله ﷺ وعلى سائر النبيين، واستغفر للمؤمنين والمؤمنات وللذين سبقوا بالإيمان.

ثم يقول بعد ذلك كله: «اللهم ارحمنى بترك المعاصى أبدًا ما أبقيتنى، وارحمنى أن أتكلف ما لا يعنينى، وارزقنى حسن النظر فيما يرضيك عنى، اللهم بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام والعزة التى لا ترام، أسألك يا الله يا رحمان بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبى حفظ كتابك كما علمتنى، وارزقنى أن أتلوه على النحو الذى يرضيك عنى. اللهم بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام والعزة التى لا ترام، أسألك يا الله يا رحمان بجلالك ونور وجهك أن تنور بكتابك بصرى، وأن تطلق به لسانى، وأن تفرِّج به عن قلبى، وأن تشرح به صدرى، وأن تُعْمِل به بدنى، لأنه لا يعيننى على الحق غيرك، ولا يؤتيه إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم» اهـ.

ويفعل المرء ذلك ثلاث جمع أو خمس أو سبع، وسيجد بعدها الأثر الطيب بإذن الله تبارك وتعالى.

وقد وفقنى الله تبارك وتعالى لإصدار بحث حول حفظ القرآن الكريم وتحفيظه والوسائل المعينة عليه، فليرجع إليه من أراد المزيد.

(٢) إذا أتم الداعية حفظ القرآن الكريم أخذ من كل فن ما يعينه على الوقوف على قدميه فيه.

والعلوم التى يجب على الداعية أن يعتنى بها كثيرة، ولكن بعضها أهم من بعض، وذلك على الترتيب التالى:

(١) الفقه.

(٢) النحو.

(٣) الحديث.

(٤) التفسير.

(٥) الثقافة الإسلامية المعاصرة.

(٦) التاريخ الإسلامى والسيرة النبوية... إلخ.

ولا يتسع المجال للحديث عن أهمية كل علم من هذه العلوم للداعية، ومصادره التى ينبغى الاعتماد عليها، والتحذيرات التى لابد من الاحتياط لها عند القراءة فى كل مجال منها.

ولكنى أحيل الدعاة إلى بحث جيد فى هذا المجال توفر عليه الدكتور يوسف القرضاوى ـ جزاه الله خيراً ـ وعنوانه «ثقافة الداعية» ففيه نفائس لا يتيسر الحصول عليها فى غيره.

وأضع أمامك ـ أخى الداعية ـ هذه النصائح المتعلقة بالعلوم الإسلامية الواجب تعلمها:

(١) أن تحذر التنقل من علم إلى آخر دون إتقان الأول.

يقول الإمام الشافعى لمُؤدِّب أولاد الرشيد: «... ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام فى السمع مضلة للفهم»[(١)].

ويقول ابن جماعة الكنانى: «... وليحذر الطالب فى ابتداء طلبه من المطالعات فى تفاريق المصنفات فإنه يضيع زمانه، ويفرق ذهنه، بل يعطى الكتاب الذى يقرؤه، أو الفن الذى يأخذه كُلِّيته حتى يتقنه، وكذلك يحذر من التنقل من كتاب إلى كتاب من غير موجب فإنه علامة الضجر وعدم الإفلاح.

أما إذا تحققت أهليته، وتأكدت معرفته، فالأولى ألا يدع فنًا من العلوم الشرعية إلا نظر فيه، فإن ساعده القدر وطول العمر على التبحر فيه فذاك، وإلا فقد استفاد منه ما يخرج به من عداوة الجهل بذلك العلم، ويعتنى من كل علم بالأهم فالأهم»[(٢)].

(٢) ألا تتعجل تحصيل العلم، بل تبذل ما فى وسعك مع طول النفس فى هذا المجال حتى لا تبتلى بالإحباط واليأس.

---

(١) صفة الصفوة (جـ٢ ـ ص٢٥٦).

(٢) تذكرة السامع والمتكلم (ص١١٧ : ص١٢٠) بتصرف.

يقول ابن شهاب الزهرى ليونس بن يزيد: «يا يونس، لا تكابر العلم، فإن العلم أودية، فأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالى، ولا تأخذ العلم جملة، فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة، ولكن الشىء بعد الشىء مع الأيام والليالى»[١].

(٢) الحرص على تلقى العلم على يد العلماء:

من الأشياء الهامة التى ينبغى التفطن لها أثناء طلب الداعية للعلم أن يكون ذلك على يد الشيوخ المتخصصين فيه.

وتبدو أهمية العناية بهذا الأمر فى كون الشيخ أوسع دراية ومعرفة بالفن الذى تخصص فيه، بحيث يحيط بأطرافه، وبالتالى يمكنه أن يفسِّر غوامضه، ويجمع بين ما ظاهره التعارض، ويبين من الأدلة أقواها مع التعليل لذلك، ويرد الفروع إلى أصولها، والنظائر إلى أشباهها.

ولجوء المرء إلى خوض هذا الغمار وحده لا يُؤْمَن عليه فيه الزلل، وصدق من قال:

ومن أخـذ العلوم بغير شيخ ... يضـل عن الصـراط المستقيـم

وكم من عائب قولاً صحيحًا ... وآفتـــه مـن الفهـم السقيـم

ويقول الإمام النووى فى حديثه عن آداب المتعلم: «... ويعتنى بتصحيح درسه الذى يتحفظه تصحيحًا متقنًا على الشيخ، ثم يحفظه حفظًا محكمًا.. ولا يحفظ ابتداء من الكتب استقلالاً، فإن ذلك من أضر المفاسد، وإلى هذا أشار الشافعى ـ رحمه الله ـ بقوله: «من تفقه من بطون الكتب ضيع الأحكام»[٢].

ويروى أن الإمام أبا حنيفة قيل له: «فى المسجد حلقة ينظرون فى الفقه، فقال: ألهم رأس[٣]؟ فقيل له: لا، قال: لا يفقه هؤلاء أبدًا»[٤].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (جـ١ ـ ص١٢٥).

(٢) المجموع شرح المهذب (جـ١ ـ ص٦٩) بتصرف.

(٣) ألهم رأس؟: يعنى ألهم شيخ يرجعون إليه؟.

(٤) تذكرة السامع والمتكلم (ص٤٦).

ولئن كان الأمر كذلك ـ كما يرى أئمة العلم وأساطينه ـ فمن الواجب عليك ـ أخى الداعية ـ أن تبادر إلى تلقى العلم على يد الشيوخ والعلماء، ولتحرص فى هذا على أمرين:

(١) أن تتلقى عمَّن عُرِفَ بصلاحه وتقواه، حيث ورد عن السلف الصالح أنهم كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى صلاته، وإلى سنته، وإلى هيئته[١].

(٢) أن ترتبط بشيخ تلقى عمن سبقه من المشايخ لا ممن أخذ من بطون الكتب وفقط.

وإلى هذا المعنى أُشير بقول الناصح: «لا تأخذ العلم من صُحُفِىٍّ، ولا القرآن من مصحفى»[٢].

ويقول آخر: «من أعظم البليَّة تمشيخ الصُّحُفِية»، أى يصير القارئ من الصحف شيخًا يُرْجَع إليه فى الفتوى.

(٣) الاستكثار من الحفظ، وعدم الاعتماد الكلى على الكتابة:

فى مطلع حديثنا بينَّا أهمية العلم وضرورته للداعية.

ولا يقدَّر علم الداعية بما يقتنيه من كتب يزخرف بها مكتبته، وإنما بقدر ما يحفظه منها، ويستحضره عند الحاجة إليه. يقول الخليل بن أحمد:

ليس بعلم ما حوى القِمَطْر ما العلم إلا ما حواه الصدر[٣]

ومن ثم وجبت عناية الداعية بحفظ العلم، وضرورة الحرص عليه، حتى لا يكون شكلاً بلا مضمون.

يقول الأعشى: «احفظوا ما جمعتم، فإن الذى يجمع ولا يحفظ كالرجل كان جالسًا على خوان[٤]، يأخذ لقمة لقمة، فينبذها وراء ظهره، فمتى تراه يشبع؟»[٥].

---

(١) سنن الدارمى (جـ١ ـ ص١١٢).

(٢) ذكره الدكتور يوسف القرضاوى (ص٨٩) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ـ طبعة أولى ـ كتاب الأمة سنة ١٤٠٢هـ.

(٣) جامع بيان العلم وفضله (جـ١ ـ ص٨٢).

(٤) الخوان: مائدة الطعام.

(٥) الجامع لأخلاق الراوى، وآداب السامع (جـ٢ ـ ص٢٤٨).

ومن ثم كان حرص الدعاة الأوائل على الحفظ، وعنايتهم به أمرًا واضحًا فى سلوكهم جميعًا.

وإليك ـ أخى الداعية ـ بعضًا من سلوك الدعاة فى هذا الجانب:

(١) عن مُطَرِّف قال: «كان قتادة إذا سمع الحديث يختطفه اختطافًا، وكان إذا سمع الحديث ولم يحفظه أخذه العويل والزويل[١] حتى يحفظه، وإن كان الحديث طويلا ـ بحيث لا يمكن حفظه فى مجلس واحد ـ حفظ نصفه، ثم عاد فى مجلس آخر فحفظ بقيته»[٢].

(٢) يروى «أن أبا زُرْعَة قيل له: من رأيت من المشايخ المحدثين أحفظ؟ فقال: أحمد بن حنبل، حُزِرَتْ كتبه (يعنى قدرت) اليوم الذى مات فيه، فبلغت اثنى عشر حملاً وعِدْلاً[٣]، ما كان على ظهر كتاب منها حديث فلان، ولا فى بطنه حديث فلان، وكل ذلك كان يحفظه عن ظهر قلبه»[٤].

(٣) وفى حرص الإمام الشافعى على حفظ العلم ورد قوله:

علمى معى حيثمـــا يممـــت ينفعـنى

قلبى وعـــاء له لا بطـن صنـــــدوق

إن كنت فى البيت كان العلم فيه معى

أو كنت فى السوق كان العلم فى السوق[٥]

(٤) ومما يؤكد كذلك بأسلوب عملى ـ على أهمية الحفظ ـ ما حدث للإمام أبى حامد الغزالى حين كان عائدًا من رحلته العلمية فى جرجان، وكان نتاج رحلته مجموعة كراريس سماها (التعليقة) حوت مجموع الفوائد التى سجلها الإمام عن أستاذه، وفى الطريق حين عودته إلى بلده طوس خرج عليه قطاع الطريق هو ومن

---

(١) العويل والزويل: القلق والانزعاج بحيث لا يستقر على المكان ـ هكذا فى لسان العرب ـ مادة: زول.

(٢) الجامع لأخلاق الراوى، وآداب السامع (جـ١ ـ ص٢٣٥).

(٣) العدل: نصف الحِمْل يكون على أحد جنبى البعير ـ لسان العرب ـ مادة: عدل.

(٤) صفة الصفوة (جـ٢ ـ ص٣٣٧).

(٥) ديوان الإمام الشافعى (ص٦٧) جمع وتعليق: محمد عفيف الزعبى.

معه، فأخذوا جميع ما فى القافلة، بما فى ذلك تعليقة الشيخ.

ويحكى الإمام أبو حامد الغزالى ما حدث بعد ذلك فيقول: «. . . فتبعتهم فالتفت إلىَّ كبيرهم، وقال: ويحك ارجع، وإلا هلكت، فقلت: أسألك بالذى ترجو السلامة منه أن ترد علىَّ تعليقتى فقط، فما هى بشىء تنتفعون به. فقال لى: وما هى تعليقتك؟ قلت: كتب فى مِخْلاَة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها. فضحك وقال: كيف تدَّعى أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم؟ ثم أمر بعض أصحابه فسلَّم إلىَّ المخلاة.

قال أبو حامد: فقلت: هذا مُسْتَنْطَق أنطقه الله ليرشدنى به أمرى، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علَّقته، وصرت بحيث لو قُطِع على الطريق لم أتجرَّد من علمى»[١].

وإليك ـ أخى الداعية ـ هذه النصائح لتكون عونًا لك على تيسير الحفظ بمشيئة الله تعالى:

(١) من أقوى أسباب الحفظ للعلم كثرة النظر فيه، والاطلاع عليه.

يقول أبو مسعود أحمد بن الفرات: «لم نزل نسمع شيوخنا يذكرون أشياء فى الحفظ، فأجمعوا أنه ليس شىء أبلغ فيه إلا كثرة النظر»[٢].

(٢) وينبغى أن يكون النظر مصحوبًا بالتكرار للشىء الذى يراد حفظه، فإن التكرار أمان من النسيان.

يروى عن الحسن قال: «إن فقيهًا أعاد الدرس فى بيته مرارا كثيرة، فقالت له عجوز فى بيته: قد ـ والله ـ حفظته أنا. فقال: أعيديه، فأعادته، فلما كان بعد أيام قال: يا عجوز، أعيدى ذلك الدرس، فقالت: ما أحفظه. قال: أنا أكرر عند الحفظ لئلا يصيبنى ما أصابك»[٣].

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى (جـ١ ـ ص١٩٥).

(٢) الجامع لأخلاق الراوى، وآداب السامع (جـ٢ ـ ص٢٦٥).

(٣) الحث على حفظ العلم، وذكر كبار الحفاظ (ص٢١) أبو الفرج بن الجوزى ـ طبعة أولى سنة ١٩٨٥ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ومن ثَمَّ كان بعض الأئمة ـ وهو أبو إسحاق الشيرازى ـ يعيد الدرس مائة مرة، وروى عن غيره قريبًا من هذا العدد[١].

(٣) عند القراءة لأجل الحفظ يستحسن أن تكون القراءة بصوت مرتفع، ليتعاون السمع والبصر فى إيصال المعلومة إلى مركزها.

عن الزبير بن بكار قال: «دخل علىَّ أبى وأنا أُرَوِّى فى دفتر ولا أجهر ـ أرَوِّى فيما بينى وبين نفسى ـ فقال لى: إنما لك من روايتك هذه ما أدى بصرك إلى قلبك، فإذا أردت الرواية فانظر إليها، واجهر بها، فإنه يكون لك ما أدى بصرك إلى قلبك، وما أدى سمعك إلى قلبك»[٢].

(٤) أن يستعين على حفظ ما لديه بتدريسه للآخرين، فإن حياة العلم مدارسته.

عن إبراهيم النخعى قال: «من سرَّه أن يحفظ الحديث فليحدث به، ولو أن يحدث به من لا يشتهيه، فإنه إذا فعل ذلك كان كالكتاب فى صدره»[٣].

(٥) وأخيرًا فإن عليه استمداد التوفيق والعون من الله تعالى، وذلك بالأشياء التالية:

(أ) تحسين النية فى طلب العلم، فقد قال ابن عباس: «إنما يحفظ الرجل على قدر نيته»[٤].

(ب) إحياء المحفوظ بالعمل به، فقد قال بعض السلف: «كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به»[٥].

(جـ) التخلى عن المعاصى، فإنها تعمى البصيرة، وتحول دون وصول الخير إليها، وقد قال الإمام الشافعى مشيرًا إلى هذا المعنى:

---

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) الجامع لأخلاق الراوى، وآداب السامع (جـ٢ ـ ص٢٦٦).

(٣) نفس المرجع (جـ٢ ص٢٦٨).

(٤) نفس المرجع (جـ٢ ـ ص٢٥٧).

(٥) نفس المرجع (جـ٢ ـ ص٢٥٩).

شكوت إلى وكيع سوء حفظى ... فأرشدنى إلى ترك المعاصى
وأخبرنى بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصى(١)

(٤) تفريغ الأوقات، وقطع الشواغل:

يحتاج العلم - فى سبيل تحصيله وجمعه - إلى بذل أقصى الجهد، واستغلال كافة الإمكانات والقدرات. يقول قاضى القضاة أبو يوسف - رضى الله عنه -: «العلم شىء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، وأنت إذا أعطيته كلك من إعطائه البعض على غرر»(٢).

ولئن كان الأمر كذلك فإن الواجب على الداعية المبادرة إلى حشد كافة الإمكانات، وتهيئة كل الظروف ليستفيد فى حياته كل يوم جديداً.

ولتحقيق هذا نوجه عناية كل داعية إلى مراعاة النقاط التالية:

(أ) أن يبادر الداعية فى كل لحظة إلى استفادة جديد على طريق العلم، وألاّ يدع الساعات تمضى من عمره، فإن ما يمضى لا بدل له، ولا عوض عنه، ولأن الفرص سريعة الفوت، بطيئة العود.

يقول الإمام النووى فى حديثه عن آداب المتعلم: «ومن آدابه أن تكون همته عالية، فلا يرضى باليسير مع إمكان الكثير، وألاّ يسوّف فى اشتغاله، ولا يؤخر تحصيل فائدة - وإن قلت - إذا تمكن منها، وإن أمن حصولها بعد ساعة، لأن للتأخير آفات، ولأنه فى الزمن الثانى يُحَصِّل غيرها»(٣).

(ب) أن يبادر إلى استغلال وقت الشباب، ونباهة الفكر، قبل عوارض البطالة، وارتفاع المنزلة الدنيوية.

يقول الإمام الشافعى:

ومن لم يذق مُرَّ التعلم ساعة ... تجرع ذل الجهل طول حياته
ومن فاته التعليم وقت شبابه ... فكبِّر عليه أربعًا لوفاته

(١) ديوان الإمام الشافعى (ص٥٤).

(٢) الجامع لأخلاق الراوى، وآداب السامع (جـ٢ - ص١٧٤).

(٣) المجموع شرح المهذب (جـ١ - ص٦٨) بتصرف يسير.

وذات الفتى ـ والله ـ بالعلم والتقى إذا لم يكـــونا لا اعتبـــار لذاتـه[١]

ويقول أيضًا: «تفقه قبل أن ترأس، فإذا ترأست فلا سبيل إلى التفقه»[٢].

(جـ) أن يبذل الداعية جهده فى تحصيل العلم، وأن يقنع ـ فى سبيل ذلك ـ باليسير من وسائل العيش: أكلاً، وشربًا، ونومًا فإن النفس تنزع إلى المزيد من كل شىء، ولا تكاد تشبع من شىء أبدًا.

يقول عبد الله بن يحيى بن أبى كثير: سمعت أبى يقول: «لا يُستطاع العلم براحة الجسم»[٣].

وقال سحنون: «لا يصلح العلم لمن يأكل حتى يشبع، ولا لمن يهتم بغسل ثوبه»[٤].

ومن الأمثلة العملية الدالة على أن الرضا باليسير طريق إلى تحصيل العلم ما يلى:

(١) عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: «إن الناس يقولون: أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان فى كتاب الله: ما حدثت حديثًا، ثم يتلو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٥].

إن أخواننا المهاجرين كان يشغلهم الصفق[٦] بالأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل فى أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشبع بطنه، ويحضر ما لا يحضرون، ويحفظ ما لا يحفظون»[٧].

---

(١) ديوان الإمام الشافعى (ص٢٩).

(٢) المجموع شرح المهذب (جـ١ ـ ص٦٩).

(٣) صحيح مسلم (جـ١ ـ ص٤٢٨) كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ باب أوقات الصلوات الخمس.

(٤) جامع بيان العلم وفضله (جـ١ ـ ص١١٧).

(٥) سورة البقرة (١٥٩ ـ ١٦٠).

(٦) الصفق: قال فى النهاية: (ألهاهم الصفق بالأسواق) أى التبايع (جـ٣ ـ ص٣٨) مادة: صفق.

(٧) أخرجه البخارى (جـ١ ـ ص٣٤) كتاب العلم ـ باب حفظ العلم، وأخرجه مسلم بنحوه (جـ٤ ـ ص١٩٣٩) كتاب فضائل الصحابة ـ باب من فضائل أبى هريرة الدوسى رضى الله عنه، وأخرجه أحمد (جـ٢ ـ ص٢٤٠).

(٢) وقال الربيع: «لم أرَ الشافعى آكلاً بنهار، ولا نائمًا بليل، لاهتمامه بالتصنيف»[١].

وما من شك فى أن قدرة الناس على التحمل تختلف من فرد لآخر، فليراع الداعية بذل ما يمكنه من جهد دون أن يحمِّل نفسه ما لا يطيق خشية الملل.

(د) أن يجتهد الداعية فى إزالة ما يعترضه فى سبيل تحصيل العلم من شواغل وقواطع - وما أكثرها - ليصل إلى استجماع الفكرة، وليستمر فى الأخذ حتى يتمكن من العطاء. يقول الإمام الشافعى:

لا يدرك الحكمة مَنْ عُمْرُه ... يكدح فى مصلحة الأهل

ولا ينال العلم إلا فتى ... خال من الأفكار والشغل

لو أن لقمان الحكيم الذى ... سارت به الركبان بالفضل

بُلِى بفقر وعيال لما ... فرَّق بين التبن والبقل[٢]

ويقول الإمام الشافعى أيضًا: «لو كلِّفت شراء بصلة لما فهمت مسألة»[٣].

ونظرًا لأهمية هذه الخصلة لمن أراد التعلم رأينا بعض السلف يؤكد عليها بشدة، حتى تبدو فى كلماته المبالغة والتهويل، فيقول: «لا ينال هذا العلم إلا من عطَّل دكانه، وخرَّب بستانه، وهجر إخوانه، ومات أقرب أهله إليه فلم يشهد جنازته»[٤].

• أخى الداعية:

ويطول الكلام حول حاجة الداعية الملحة لطلب العلم، والاستكثار منه، لكنى أشعر بأن كلامى حول هذه النقطة قد طال، ويبقى أن يستنهض كل منا همَّة أخيه ليرى هذا الكلام النور، ويخرج من حيز المقال إلى حيز الفعال.

اللهم علِّمنا ما جهلنا، وعلمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، واجعله حجة لنا لا علينا.

---

(١) المجموع شرح المهذب (جـ١ - ص٦٩).

(٢) ديوان الإمام الشافعى (ص٧١).

(٣) تذكرة السامع والمتكلم (ص٧١).

(٤) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع (جـ٢ - ص١٧٤).

٢. الحرص على العمل بالعلم

في الوقت الذى تؤكد فيه تعاليم الإسلام على أهمية العلم، وضرورة العناية بتحصيله ـ كما وضح لنا فى المبحث السابق ـ فإنها تنظر إلى العلم على أنه وسيلة لا غاية، فهو وسيلة إلى تزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتقويم السلوك.

ويستأنس لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[1] حيث ربط الله بين الفلاح وبين التزكية للنفس ارتقاء بها إلى الأخلاق الحميدة، وارتفاعًا بها عن الأخلاق المذمومة، ولو كان العلم بهذه الأشياء كافيًا لقال ربنا: قد أفلح من تعلم كيف يزكى نفسه، وإن قصر فى التزكية أو أهملها.

وانطلاقًا من هذا المعنى وجب على الدعاة إلى الله تعالى أن يستكثروا من العمل بقدر ما يستكثرون من العلم، فإن الله سائل كل عالم عن علمه ماذا عمل فيه.

ولمزيد البيان والإيضاح لأهمية هذه الصفة، وضرورة العناية بها، فإنى أستئذنك ـ أخى الداعية ـ فى أن أضع بين يديك هذه الحقائق التى تريك أهمية هذا الجانب فى حياة المسلم ـ فضلاً عن الداعية ـ راجيًا من الله تعالى أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أهمية العمل بالعلم، وأمثلة من حياة الدعاة على العناية به:

تتضح أهمية العمل بالعلم فى النقاط التالية:

(١) أن قيمة العلم فى العمل به، فإن عُمِل به كان نافعًا، وإن لم يُعْمل به كان حجة على صاحبه.

ويتفرَّع عن هذه النقطة ما يلى:

(أ) أن استفراغ المرء لجهده فى طلب العلوم والمعارف دون غير يجعل علمه كأن لم يكن، وصارت صفة الجهل ألصق به دون نظر إلى ما يحفظه من العلم قلَّ أو كثر.

---

(١) سورة الشمس (٩).

يقول سفيان بن عيينة: «إن أنا عملت بما أعلم فأنا أعلم الناس، وإن لم أعمل بما أعلم فليس فى الدنيا أحد أجهل منى»[١].

ويقول الفضيل بن عياض: لا يزال العالم جاهلاً بما علم حتى يعمل به، فإذا عمل به كان عالمًا»[٢].

ويقول الإمام الشافعى: «ليس العلم ما حُفِظَ، العلم ما نَفَع»[٣].

(ب) إذا كان العلم وسيلة والعمل غايته فإن اقتصار المرء على تحصيل العلم دون الاستفادة منه يُعَدُّ تضييعًا لهما معًا، فالغاية - وهى العمل - تضيع لأنه لم يعمل لها، والوسيلة - وهى العلم - تضيع لأنه لم يستخدمها فيما وُضِعَت لأجله.

يقول الصحابى الجليل أبو هريرة - رضى الله عنه -: «مثل علم لا يُعْمَل به كمثل كنز لا يُنْفَق منه فى سبيل الله عز وجل»[٤].

وللتنبيه على خطورة هذا التصرف يقول بعض الحكماء: «العلم خادم العمل، والعمل غاية العلم، فلولا العمل لم يُطْلَبْ علم، ولولا العلم لم يُطْلَب عمل، ولأنْ أدع الحق جهلاً به أحبُّ إلىَّ من أن أدعه زهدًا فيه»[٥].

يشير بهذه الجملة الأخيرة إلى أن الجاهل قد يعذر بجهله، أما العالم بالحق التارك له فإنه لا يعذر، بل تتضاعف عقوبته، إذ ليس من علم كمن جهل.

(٢) أن الناس تأخذ الداعية قدوة صالحة لها، وهم - لأجل ذلك - يرقبون أحواله، ويرمقون بأعينهم سلوكه، ويكون انتفاعهم من علمه بقدر ما ينتفع به لنفسه.

يقول شهر بن حوشب: «إذا حدَّث الرجل القوم، فإن حديثه يقع من قلوبهم موقعه من قلبه»[٦].

---

(١) الجامع لأخلاق الراوى، وآداب السامع (جـ١ - ص٩٠) الخطيب البغدادى.

(٢) اقتضاء العلم العمل (ص٣٧) الخطيب البغدادى - طبعة رابعة سنة ١٣٩٧هـ - المكتب الإسلامى - بتحقيق محمد ناصر الدين الألبانى.

(٣) تذكرة السامع والمتكلم (ص١٥) ابن جماعة.

(٤) اقتضاء العلم العمل (ص٢٤) الخطيب البغدادى.

(٥) نفس المرجع (ص١٥).

(٦) المنطلق (ص٢٥٦) محمد أحمد الراشد.

ويقول محمود بن الحسن الورّاق:

إذا أنت لم ينفعْك علمك لم تجد ... لعلمك مخلوقًا من الناس يقبله

وإن زانك العلم الذى قد حملته ... وجدت له من يجتنيه ويحمله[١]

ولا يقتصر ضرر المرء ـ حينئذ ـ على قلة الانتفاع بعلمه، بل إن الناس ترى فى سلوكه مشجعًا على اقتراف الآثام، وارتكاب الخطايا، باعتبار أن القدوة لهم قد حاد عن الطريق المستقيم، فهم لهذا أعجز عن الالتزام به.

يقول الإمام ابن القيم: «علماء السوء جلسوا على باب الجنة، يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس: هلمُّوا، قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقًا كانوا أول المستجيبين له، فهم فى الصورة أدلاَّء، وفى الحقيقة قطاع طرق»[٢].

(٣) أن العمل بالعلم يستبقى بركة العلم، ويتيح الفرصة لتحصيل المزيد منه.

يقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ: «هتف العلم بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل»[٣].

يقول سيدنا عيسى ـ عليه السلام ـ: «من عمل بما يعلم ورَّثه الله علم ما لم يعلم»[٤].

(٤) أن طلب العلم بنيَّة العمل به يكسو صاحبه تواضعًا وجمالاً، وطلبه لغير ذلك يزيده فجورًا وطغيانًا.

يقول مالك بن دينار: «إن العبد إذا طلب العلم للعمل كسره علمه، وإذا طلبه لغير ذلك ازداد به فجورًا أو فخرًا»[٥].

من أجل هذا ـ وغيره ـ كانت توجيهات الإسلام إلى ضرورة الحرص على

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (جـ١ ـ ص١٩٧).

(٢) هداية المرشدين (ص٩٢) على محفوظ.

(٣) اقتضاء العلم العمل (ص٣٦).

(٤) حلية الأولياء (جـ١٠ ـ ص١٥) أبو نعيم الأصبهانى.

(٥) اقتضاء العلم العمل (ص٣٢).

العمل بالعلم، والاستفادة بكل شىء فيه: تهذيبًا للسلوك، وارتقاء بالأخلاق.

يقول الله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾[١].

ويقول رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»[٢].

وسُئل الإمام أحمد بن حنبل عن رجل يكتب الأحاديث فيكثر، فقال: «ينبغى أن يكثر العمل به على قدر زيادته فى الطلب» ثم قال: «سُئل العلم مثل سبل المال، إن المال إذا ازداد ازدادت زكاته»[٣].

وتقديرًا من الدعاة لهذا الجانب المهم فى حياتهم حفلت سيرتهم العطرة بالكثير من الأمثلة على عنايتهم بتنفيذ ما تعلموه حتى يكون حجة لهم لا عليهم.

وإليك ـ أخى الداعية ـ بعضًا من الأمثلة من حياة سلفنا الصالح عسى أن تكون حافزًا قويًا لنا كى ننهج نهجهم، فنسعد كما سعدوا:

(١) يقول الإمام أحمد بن حنبل: «ما كتبت حديثًا عن النبى ﷺ إلا وقد عملت به، حتى مرَّ بى الحديث أن النبى ﷺ احتجم وأعطى أبا طيبة دينارًا، فأعطيت الحجام دينارا حتى احتجمت»[٤].

(٢) عن أبى عمرو محمد بن أبى جعفر بن حمدان قال: «كان والدى أبو جعفر يصلى المغرب مع أبى عثمان ـ يعنى سعيد بن إسماعيل ـ وربما أقام فى بعض الليالى حتى يصلى معه صلاة العشاء الآخرة، فإذا أبطأ علينا خرجت إلى مسجد أبى عثمان، فخرجت ليلة من الليالى إلى مسجد أبى عثمان، فخرج علينا لصلاة العشاء الآخرة ـ وعليه إزار ورداء ـ فصلى بنا، ثم دخل داره. ورجعت مع

(١) سورة النجم (٣٩ ـ ٤١).

(٢) أخرجه الترمذى، وقال عنه: حديث حسن صحيح (جـ٤ ـ ص٦١٢) كتاب صفة القيامة ـ باب فى القيامة.

(٣) اقتضاء العلم العمل (ص٨٩ ـ ٩٠).

(٤) الجامع لأخلاق الراوى، وآداب السامع (جـ١ ـ ص١٤٤).

أبى إلى البيت، فقلت لأبى: يا أبت، أبو عثمان قد أحرم؟ فقال: لا، ولكنه هو ذا يسمع منى المسند الصحيح الذى خرَّجته على كتاب مسلم، فإذا سمع بسنة لم يكن استعملها فيما مضى أحب أن يستعملها فى يومه وليلته، وإنه سمع فى جملة ما قُرئ علىَّ أن النبى ﷺ صلَّى فى إزار ورداء، فأحبَّ أن يستعمل تلك السنة قبل أن يصبح»[١].

(٣) عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: «قدم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر فنزل على ابن أخيه الحرِّ بن قيس بن حصن، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته ـ كهولا كانوا أو شبانًا ـ فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخى هل لك وجه عند هذا الأمير فتستأذن لى عليه؟ قال: سأستأذن لك عليه.

قال ابن عباس: فاستأذن لعيينة، فلما دخل قال: يا ابن الخطاب، والله ما تعطينا الجزل[٢]، وما تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتى همَّ بأن يقع به، فقال الحرُّ: يا أمير المؤمنين: إن الله تعالى قال لنبيه: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾[٣]، وإن هذا من الجاهلين.

فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقَّافًا عند كتاب الله»[٤].

هذا، وتحفظ لنا الكتب الكثير من الأمثلة على عمل السلف الصالح بما يعلمون فى شتى المجالات، ولا يتسع المجال لذكر ألوان الطاعات كلٌّ على حِدَة، ومن ثم أكتفى بما ذكرته من أحوالهم ـ فى هذا المجال ـ على سبيل الإجمال، وأحيل من أراد الاستزادة إلى الكتب المتخصصة فى ذكر أصناف الطاعات مقرونة بأحوال العاملين بها، ومن أجمعها كتاب «حياة الصحابة» للشيخ محمد يوسف الكاندهلوى، جزاه الله خيرًا، وطيب ثراه.

---

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) الجَزْلُ: العطاء الكثير ـ كذا فى لسان العرب ـ مادة: جزل.

(٣) سورة الأعراف (١٩٩).

(٤) أخرجه البخارى بهذا اللفظ (جـ٤ ـ ص٢٥٨) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ـ باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، وكذا أخرجه فى (جـ٣ ـ ص١٣١) كتاب التفسير ـ باب سورة الأعراف.

ويبقى دورك ـ أخى الداعية ـ لتنضم إلى قافلة السائرين إلى الله تعالى على هدى وبصيرة، وذلك بألاَّ تدع بابًا من الخير علَّمكه الله إلا وتلجه ـ ولو قليلاً ـ فقد قيل: «إذا بلغك شىء من الخير فاعمل به ولو مرة تكن من أهله»[١].

• **بين الدعاة والأدعياء:**

يقوم الداعية بواجبه فى دعوة الآخرين إلى الله وهو يضع نصب عينيه أنه مقصود بالكلام قبل غيره، ومدعو إلى تنفيذه قبل أن يحمل الآخرين عليه.

ويُستأنسُ لهذا المعنى بما ذكره الله تعالى فى قوله: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾[٢].

والشاهد فى الآية الكريمة أن الله تبارك وتعالى قرن بين القيام بواجب الدعوة والالتزام بمبادئها حتى تستحق ثناء من الله على صاحبها.

ولكن الدعوة تبتلى أحيانًا ببعض الأدعياء ممن يجيدون فن الكلام، ويتجردون من أبسط قواعد الالتزام.

وهؤلاء الأدعياء خطر على الدين وعارٌ عليه، وهم آفة الإيمان وسقام الحياة، وبهم تهوى المثل العليا إلى الحضيض، وتتمرغ فى الأوحال.

يقول الأستاذ سيد قطب: «الدعوة إلى البر والمخالفة عنه فى سلوك الداعين إليه هى الآفة التى تصيب النفوس بالشك، لا فى الدعاة وحدهم ولكن فى الدعوات ذاتها، وهى التى تبلبل قلوب الناس وأفكارهم، لأنهم يسمعون قولاً جميلاً، ويشهدون فعلاً قبيحًا، فتتملكهم الحيرة بين القول والفعل، وتخبو فى أرواحهم الشعلة التى توقدها العقيدة، وينطفئ فى قلوبهم النور الذى يشعه الإيمان، ولا يعودون يثقون فى الدين بعد ما فقدوا ثقتهم برجال الدين»[٣].

ومن هنا شدد الله النكير على من يسلكون مثل هذا المسلك، فقال: ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾[٤]، وقال أيضًا: ﴿**يَا**

(١) الجامع لأخلاق الراوى، وآداب السامع (جـ١ ـ ص١٤٤).

(٢) سورة فصلت (٣٣).

(٣) فى ظلال القرآن (جـ١ ـ ص٦٨) طبعة عاشرة سنة ١٩٨١ ـ دار الشروق.

(٤) سورة البقرة (٤٤).

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[١].

وبينت السنة أن صاحب هذا التصرف الأحمق يستأهل عليه أكبر العقاب، فقال عليه الصلاة والسلام: «يُجَاءُ بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار، فتندلق أقتابه[٢] فى النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أى فلان، ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[٣].

وفى سبيل التأكيد على خطورة هذا التصرف المتناقض يقول أبو العتاهية:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهمًا ... إذ عبت منهم أمورًا أنت تأتيها

تعيب دنيا وناسًا راغبين لها ... وأنت أشد منهم رغبة فيها

كالملبس الثوب من عرى، وعورته ... للناس بادية ما إن يواريها

وأعظم الإثم بعد الشرك نعلمه ... فى كل نفس عَمَاها عن مساويها

عرفانها بعيوب الناس تبصرها ... منهم، ولا تبصر العيب الذى فيها[٤]

فلتبادر - أخى الداعية - إلى أن تكون الدعوة فى حياتك بشكلها ومضمونها، واحرص على اغتنام الفرص فإنها سريعة الفوت، بطيئة العود، واحذر التسويف فى الرجوع إلى الله، وفى الإكثار من الخيرات، فإنه أمضى سلاح يستخدمه الشيطان ليصيب المرء بالتقهقر والتقاعس، بدلاً من الإقدام والتنافس.

وصدق الإمام الحسن البصرى - رضى الله عنه - إذ يقول مشيرًا إلى هذا المعنى:

---

(١) سورة الصف (٢ - ٣).

(٢) فتندلق أقتابه: قال فى النهاية: الأقتاب: الأمعاء، واحدها: قِتْب بالكسر (جـ٤ - ص١١) مادة: قتب. والاندلاق خروج الشىء من مكانه.

(٣) أخرجه البخارى (جـ٢ - ص٢٢٠) كتاب بدء الخلق - باب صفة النار، وأنها مخلوقة، وأخرجه مسلم (جـ٤ - ص٢٢٩١) كتاب الزهد والرقائق - باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله، وأخرجه أحمد (جـ٥ - ص٢٠٥).

(٤) جامع بيان العلم وفضله (جـ٢ - ص١٩٤) ابن عبد البر - والأبيات بكاملها مذكورة فى هذا الكتاب عدا البيت الثانى.

«إياك والتسويف فإنك بيومك ولست بغدك، فإن يكن غدٌ لك فكن فى غدٍ كما كنت فى اليوم، وإن لم يكن لك غدٌ لم تندم على ما فرطت فى اليوم»[١].

اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا، وغدنا خيراً من يومنا، واجعل خير أيامنا يوم لقائك، وخير أعمالنا خواتيمها.

هذا آخر ما تيسر من الحديث عن الأخلاق النفسية للداعية، ونلحقها ـ بمشيئة الله تعالى ـ بحديث آخر عن الأخلاق الاجتماعية.

والله تعالى من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

(١) اقتضاء العلم العمل (ص١١٣) الخطيب البغدادى.

الباب الثانى

الأخلاق الاجتماعية للداعية

ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول: الأخلاق فى مجال الدعوة القولية.

الفصل الثانى: الأخلاق فى مجال التعامل العام مع الناس.

• تمهيد:

في المباحث السابقة تعرضنا للحديث عن أهم الصفات التى يجب أن يلتزم بها الداعية فى نفسه، بشقيها القلبى والظاهرى.

والصفات التى يجب أن يلتزم بها الداعية ليست خاصة بنفسه فحسب، بل إنها - فى أغلبها - عمل اجتماعى، يشعر الداعية من خلاله أنه فى حاجة إلى الناس، والناس فى حاجة إليه، وأن الدعوة تشق طريقها بتعاون كل منهما مع الآخر.

يقول محمد أحمد الراشد: «وشأن الداعية أن يترصد أخيار الرجال فى المجتمع فيحتك بهم، ويتعرف عليهم، ويزورهم، ويعلمهم طريق ضم الجهود الإسلامية وتنسيقها».

ثم يقول: «ولا يكون داعية - اليوم - إلا من يفتش عن الناس، ويبحث عنهم، ويسأل عن أخبارهم، ويرحل للقائهم، ويزورهم فى مجالسهم ومنتدياتهم، ومن انتظر مجيء الناس إليه فى مسجده أو بيته فإن الأيام تبقيه وحده، ويتعلم فن التثاؤب»[١].

والداعية فى هذا المجال يتفانى فى قيامه بواجبه نحو دعوته - ولو على حساب نفسه - ويقيس نجاحه بمدى ما يكتسبه من أعضاء ينضمون لقافلة الدعوة فى كل يوم، وإلا صار كمن يحرث فى الماء، أو ينفخ فى الهواء.

يقول الأستاذ فتحى يكن: «إن الداعية بحق هو الذى يعيش لسواه لا لنفسه، ويكون ديدنه الدوران حول مجتمعه وحول المسلمين وليس حول ذاته، وهو الذى يعمل على توفير الراحة للآخرين ولو على حساب راحته.. فإذا قامت هذه الوشائج بين الداعية وبين الناس تحقق الوصال والاتصال، وتحقق التأثر والأثر، ونجحت المهمة، وآتت الدعوة أكلها بإذن ربها، وإن كان غير ذلك لم تكن دعوة ولا داعية»[٢].

وانطلاقًا من هذا المعنى حرص الدعاة إلى الله تعالى على أن يكونوا وسط المجتمع داعين فيه إلى الله، ومتفانين فى أداء الواجب المنوط بأعناقهم.

(١) المطلق (ص١٢٦ - ص١٢٧).

(٢) الاستيعاب فى حياة الدعوة والداعية (ص٦٤).

ومن خلال هذه المشاركة الاجتماعية من جانب الداعية تتحقق عدة فوائد:

(١) مواجهة الداعية للمذاهب الباطلة، والدعاوى الزائفة التى تتعاون جميعها على تحويل الأرض إلى بؤرة للكفر والإلحاد، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾[١].

فإن تخلَّى الداعية عن واجبه فى مواجهة هذه الحركات الهدّامة، فإنه ـ بهذا الصنيع ـ قد أعطاها النور الأخضر كى تعربد ـ كيفما شاءت ـ فى بلاد المسلمين. وصدق من قال:

ومن رعى غنمًا فى أرض مسبعة ونام عنهـا تولى رعيهـا الأسـد

ولئن حدث ـ لا قدر الله ـ وأصيب المسلمون ببلاء عام بسبب تقاعسهم عن القيام بواجبهم فإنه ـ حينئذ ـ لن يدع أحدًا إلا وأصابه، وعلى رأس هؤلاء من شاهد المنكر فرضى به، وسكت عليه.

وصدق رسول الله إذ يقول: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقَوْا من الماء مرُّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ولم نؤذ مَن فوقنا؟. فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوْا ونجوا جميعًا»[٢].

(٢) استغلال الداعية كافة طاقاته وإمكاناته لخدمة دعوته، فى حين أن البعد عن المشاركة الاجتماعية يوجد كثيرًا من أوقات الفراغ، ويعطل كثيرًا من الإمكانات، مما يهيئ الفرصة لفوات الكثير من المنافع التى تعود ـ بالأصالة ـ على المجتمع كله، ومن وراثه الإنسانية بأكملها.

يقول الأستاذ البهى الخولى: «لا يصح للداعية أن يطاوع نفسه فى العزلة ـ مهما تزين له المقاصد والأسباب ـ فصومعة الداعية ميدان دعوته، ومحرابه الذى يستنزل

---

(١) سورة البقرة (٢١٧).

(٢) أخرجه البخارى (جـ٢ ـ ص٧٥) كتاب الشركة ـ باب هل يقرع فى القسمة، والاستهام فيه، وأخرجه الترمذى بنحوه (جـ٤ ـ ص٤٧٠) كتاب الفتن ـ باب رقم ١٢ منه، وأخرجه أحمد (جـ٤ ـ ص٢٦٨).

فيه من الله الهدى والمعونة هو العمل لخير الناس، وإن الله يتجلى على العاملين فى ميادينهم بأفضل مما يتجلى على العابدين فى محاريبهم. وما أبعد الفرق - يا أخى - بين من ينهض إلى الله يوم القيامة ومعه أمة، ومن ينهض إليه وليس معه أحد»[١].

وفى إطار العمل الاجتماعى ينبغى أن يراعى الداعية هذه المسائل:

(١) أن النظرة ينبغى أن تكون إلى الحق، لا إلى القلة أو الكثرة، فينبغى التمسك بالحق وإن كان أهله قلة، ومخالفوه كثرة.

ويستأنس لهذا المعنى بما وصف الله به خليله إبراهيم - عليه السلام - حيث وصفه وهو فرد بأنه أمة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[٢].

ومراعاة هذا الأمر تجعل الداعية يشعر بالأنس فى ظل إيمانه بالحق الذى يدعو إليه، وأن الناس جميعًا فى ضلالهم هم الغرباء الضائعون.

(٢) أن ينظر الداعية إلى الدعوة على أنها صاحبة الفضل عليه، فهو بها جليل القدر، عظيم الشأن.

ومن روائع الأمثلة على ذلك ما روى أن رجلاً قال لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز: «جزاك الله عن الإسلام خيراً. فقال له عمر بن عبد العزيز: بل جزى الله الإسلام عنى خيراً»[٣].

ومراعاة الداعية لهذا الأمر تجعله لا يدخر وسعًا فى بذل أقصى الجهد فى سبيل الدعوة، وهو على يقين بأنه إن أحسن فلنفسه، وإن أساء فعليها، وبالتالى لا يستكثر جهدًا يبذله، ولا يمُنُّ على أحد من الناس بعلم أو بفضل له عليه، بل يرى الفضل للمدعوِّ عليه حيث مكنه من زراعة العلم فى قلبه، وتحقيق الخير على يديه.

يقول عبد الله بن عباس: «أكرم الناس علىَّ جليسى الذى يتخطى رقاب الناس

---

(١) تذكرة الدعاة (ص٢١٣) طبعة ثامنة سنة ١٩٨٧ - دار التراث.

(٢) سورة النحل (١٢٠).

(٣) الزهد (ص٢٩٧) الإمام أحمد بن حنبل - طبعة سنة ١٩٧٨ - بدون اسم مطبعة.

إلىَّ، لو استطعت ألاَّ يقع الذباب عليه لفعلت» وفى رواية: «إن الذباب ليقع عليه فيؤذينى»[١].

فلتحرص - أخى الداعية - على الاقتداء بالسلف الصالح من الدعاة فى هذا المجال حتى تسعد كما سعدوا، ويكون لك لسان صدق فى الآخرين كما كان لهم.

وبعد هذا العرض المجمل لأهمية العمل فى المجال الاجتماعى أستئذنك - أخى الداعية - فى أن نعرض للأخلاق التى يجب أن يلتزم بها الداعية فى هذا المجال، وذلك فى فصلين:

(١) أخلاق فى مجال الدعوة القولية.

(٢) أخلاق فى مجال التعامل العام مع الناس.

والله أسأل أن ينفعنا بالعلم والعمل، وأن يجعل هذا الكلام حجة لنا لا علينا، إنه نعم المولى ونعم النصير.

* * *

(١) تذكرة السامع والمتكلم (ص٤٩) ابن جماعة.

الفصل الأول

الأخلاق فى مجال الدعوة القولية

١. حرص الداعية على دعوة الآخرين وتعليمهم[١]

لا يعيش المؤمن فى هذه الحياة وحده، بل يشاركه فيها أفراد آخرون، القليل منهم مؤمن، والأكثر على غير الإيمان، وصدق الله إذا يقول: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

وتشير آيات القرآن الكريم إلى أن المؤمنين بالله أنفسهم قلَّ فيهم من يَسلَمُ إيمانه من آفة الشرك، فيقول تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[٣].

وإزاء هذا الوضع المتردى تفرض تعاليم الإسلام على المنتمين إليها ضرورة القيام بواجب دعوة الآخرين إلى الله، لتخليصهم من ربقة الجهل والكفر، ونقلهم إلى نور العلم والإيمان، وفى هذا يقول عز من قائل: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٤].

وتتبوأ هذه الصفة فى حياة الداعية المكانة السامقة باعتبارها رسالته التى من أجلها وُجِدَ، وفى سبيلها يتحرك، ولولاها لم تكن دعوة ولا داعية.

ولمزيد البيان والإيضاح لأهمية هذه الصفة فى حياة الداعية أسوق هذه الحقائق بين يدىَّ، سائلاً الله تعالى أن يجعلنا مفاتيح لكل خير.

---

(١) جمعت فى العنوان بين الدعوة والتعليم لما بينهما - فى حس الداعية - من تلازم، فهو يُعلِّم بنية الدعوة، ولا يدعو إلا عن علم. مع ملاحظة أن الدعوة أعم، والتعليم أخص، فالدعوة تجتذب الأفراد، والتعليم يتعهدهم، والدعوة تخاطب الجميع، والتعليم يرقى بمستوى المستجيبين منهم، وهكذا.

(٢) سورة يوسف (١٠٣).

(٣) سورة يوسف (١٠٦).

(٤) سورة آل عمران (١٠٤).

• أهمية دعوة الآخرين وتعليمهم، وأمثلة عليها من حياة الدعاة:

تتضح أهمية هذه الصفة من خلال ملاحظة ما يلى:

(١) أن تعليم العلم، ونشر الدعوة يُعَدُّ من قبيل الصدقات الجارية التى يظل أجرها موصولاً لا ينقطع وإن مات صاحبه، ففى الحديث: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم يُنْتَفع به، أو ولد صالح يدعو له»[١].

وعن الإمام أبى حنيفة عن حماد بن إبراهيم فى قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[٢]. قال: «يجاء بعمل الرجل فيوضع فى كفة ميزانه يوم القيامة فتخف، فيجاء بشىء أمثال الغمام ـ أو قال مثل السحاب ـ فيوضع فى كفة ميزانه فيرجح، فيقال له: أتدرى ما هذا؟ فيقول: فيقال له: هذا فضل العلم الذى كنت تعلمه الناس، أو نحو هذا»[٣].

(٢) أن الانشغال بتعليم العلم ـ فوق أنه صدقة جارية ـ فإنه حياة للعلم يحافظ المرء من خلاله على الموجود منه، ويستكثر من المفقود.

يقول عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: «تذاكروا هذا الحديث لا ينفلت منكم، فإنه ليس مثل القرآن مجموع محفوظ، وإنكم إن لم تذاكروا هذا الحديث ينفلت منكم، ولا يقولن أحدكم: حدثت أمس فلا أحدث اليوم، بل حدِّث أمس، ولتحدث اليوم، ولتحدث غداً»[٤]. ويضيف قائلاً: فى بيان علة التكرار، وأنه ليس بعيب: «... ولا يقولن رجل لحديث قد حدثه: قد حدثته مرَّة، فإنه من كان سمعه يزداد به علماً، وسمع من لم يسمع»[٥].

---

(١) رواه مسلم (ج٣ ـ ص١٢٥٥) كتاب الوصية ـ باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، ورواه أبو داود (جـ٢ ـ ص١١٧) كتاب الوصايا ـ باب فيما جاء فى الصدقة عن الميت، ورواه الترمذى (جـ٣ ـ ص٦٥١) كتاب الأحكام ـ باب فى الوقف، ورواه النسائى (جـ٦ ـ ص٢١٠) كتاب الوصايا ـ باب فضل الصدقة عن الميت، ورواه أحمد (جـ٢ ـ ص٣٧٢).

(٢) سورة الأنبياء (٤٧).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (جـ١ ـ ص٥٥).

(٤، ٥) سنن الدارمى (جـ١ ـ ص١٤٧).

وعلى العكس من ذلك فإن عدم التحديث مجال للنيسان، ولضياع الفائدة.

يقول سفيان الثورى: «من بخل بعلمه ابتُلِى بثلاث: إما أن ينساه ولا يحفظ، وإما أن يموت ولا يُنتفع به، وإما أن تذهب كتبه»[١].

(٣) أن تعليم العلم يتعدى النفع فيه صاحبه إلى غيره، فيكثر بذلك عدد المستمسكين بالحق، والسائرين عليه، ويكون الأجر عائدًا على الداعية بقدر ما انتُفع به.

وفى الحديث: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقُصُ ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»[٢].

ومن ثمَّ عُدَّ تعليم العلم وبثه فى الناس أفضل من الصلاة النافلة باعتبار نفعها يقتصر على صاحبها، ونفع العلم له ولغيره.

عن جعفر بن محمد قال: «رواية الحديث وبثه فى الناس أفضل من عبادة ألف عابد»[٣].

وقال وهب بن منبه: «مجلس علم يُتنازَعُ فيه العلم أحب إلىَّ من قدره صلاة، لعل أحدهم يسمع الكلمة فينتفع بها سنة، أو ما بقى من عمره»[٤].

من أجل هذا - وغيره - حرصت تعاليم الإسلام على ضرورة قيام المسلمين بالدعوة إلى الله تعالى، والأخذ بيد الناس نحو المنهج الأقوم، والسبيل الأرشد.

يقول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ

(١) الجامع لأخلاق الراوى، وآداب السامع (جـ١ - ص٢٤٠)، المجموع شرح المهذب (جـ١ - ص٧١).

(٢) رواه مسلم (جـ٤ - ص٢٠٦٠) كتاب العلم - باب من سن سنة حسنة أو سيئة، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، ورواه أبو داود (جـ٢ - ص٥٥٤) كتاب السنة - باب لزوم السنة، ورواه الترمذى (جـ٥ - ص٤٣) كتاب العلم - باب ما جاء فيمن دعا إلى هدى فاتُبع أو إلى ضلالة، ورواه ابن ماجه (جـ١ - ص٧٥) المقدمة - باب من سن سنة حسنة أو سيئة، ورواه أحمد (جـ٢ - ص٣٩٧).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (جـ١ - ص٣٢).

(٤) سنن الدارمى (جـ١ - ص٩٥).

الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[١].

وقال عليه الصلاة والسلام: «. . . فوالله لأن يهدىَ الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن يكون لك حُمْر النَّعم»[٢].

وقال عبد الله بن عباس: «معلم الخير يستغفر له كل شىء حتى الحوت فى البحر»[٣].

وقال سلمان الفارسى: «إنما مثل العالم كمثل رجل حمل سراجًا فى طريق مظلم يستضىء به من مرَّ به، وكلٌّ يدعو له بالخير»[٤].

وهذه الآثار ـ وإن لم تتضمن صريح الإشارة إلى نشر العلم ـ إلا أنها تدل على ذلك بطريق ضمنى، وذلك لأن الأجر العظيم لا يكون إلا لشىء عظيم مثله، وذلك بالتالى دليل على أهميته بالنسبة لغيره.

وكما هى عادتنا معك ـ أخى الداعية ـ فإننا دائمًا نورد لك عقب كل فقرة ما يؤيدها من سلوك الدعاة إلى الله تعالى مما يدل على حرصهم على العمل بكل ما يعلمون.

وعلى هذا النسق أورد لك بعضًا من سيرة أئمتنا مما يدل على حرصهم على دعوة الآخرين، وتعليمهم وتوجيههم:

(١) عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: «إن الناس يقولون: أكثَر أبو هريرة، ولولا آيتان فى كتاب الله ما حدَّثت حديثًا، ثم يتلو: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ**. . .﴾ إلى قوله: ﴿**الرَّحِيمُ**﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠]»[٥].

---

(١) سورة آل عمران (١١٠).

(٢) أخرجه البخارى (جـ٢ ـ ص٣٠٠) كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ ـ باب مناقب على بن أبى طالب، وأخرجه مسلم (جـ٤ ـ ص١٨٧٢) كتاب فضائل الصحابة ـ باب من فضائل على بن أبى طالب رضى الله عنه، وأخرجه أحمد (جـ٥ ـ ص٣٣٣).

(٣) سنن الدارمى (جـ١ ـ ص٩٩).

(٤) المرجع السابق (جـ١ ـ ص١٣٩).

(٥) أخرجه البخارى (جـ١ ـ ص٣٤) كتاب العلم ـ باب حفظ العلم، وأخرجه مسلم بنحوه (جـ٤ ـ ص١٩٤٠) كتاب فضائل الصحابة ـ باب من فضائل أبى هريرة الدوسى رضى الله عنه، وأخرجه أحمد (جـ٢ ـ ص٢٤٠).

(٢) وجاء فى قصة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ حين طعنه أبو لؤلؤة المجوسى وعرف الصحابة أنه ميت، قال عمرو بن ميمون الأودى: «فدخلنا عليه، وجاء الناس فجعلوا يثنون عليه، وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى لك من صحبة رسول الله ﷺ وقدم فى الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة قال: وددت أن ذلك كفاف، لا علىَّ ولا لى. فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض، قال: ردوا علىَّ الغلام، قال: «يا ابن أخى، ارفع ثوبك، فإنه أنقى لثوبك، واتقى لربك»[(١)].

فانظر ـ أخى الداعية ـ إلى حرص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ على تقديم النصيحة لمن احتاج إليها رغم أنه ـ رضى الله عنه ـ على مشارف الموت، وبينه وبين الآخرة لحظات.

(٣) ويروى عن زهير بن نعيم البانى قال: «لوددت أن جسدى قُرِض بالمقاريض، وأن هذا الخلق أطاع الله»[(٢)].

وكان السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ ربما بذل الواحد من ماله ومتاعه ليرغّب الناس فى الاستماع إلى نصائحه، والاستفادة بتوجيهاته.

وفى هذا يروى عن الزهرى قال: «كان عروة (يعنى ابن الزبير) يتألَّف الناس على حديثه»[(٣)].

وكانوا ـ رضوان الله عليهم ـ إذا صادفوا من الناس رغبة عن العلم وزهدًا فيه حملهم ذلك على طلب التحول عنهم إلى غيرهم.

وفى هذا يروى عن سفيان الثورى ـ رحمه الله ـ أنه قدم عسقلان، فمكث لا يسأله إنسان، فقال: اكروا لى لأخرج من هذا البلد (يعنى أجِّروا لى مركبًا أخرج به) هذا بلد يموت فيه العلم[(٤)].

---

(١) أخرجه البخارى (جـ٢ ـ ص٢٩٨) كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ ـ باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان رضى الله عنه.

(٢) صفة الصفوة (جـ٤ ـ ص٨).

(٣) نفس المرجع (جـ٢ ـ ص٨٥).

(٤) إحياء علوم الدين (جـ١ ـ ص١٩).

فاحرص ـ أخى الداعية ـ أن تترسَّم خطى هؤلاء السلف ـ رضوان الله عليهم ـ فتكون كالغيث أينما وقع نفع، ولتظهر ثمرات جهدك على الرجال والنساء والأطفال على السواء، ولا تدع فرصة يمكن أن تكتسب فيها عضواً جديداً ينضم إلى قافلة الدعوة إلا وقمت بواجبك فيها، حتى لا تتكاسل أنت عن واجبك فتفترس الناس مذاهب الإلحاد والشرك، وما أكثرها فى عالم اليوم.

فإن قصَّر الداعية فى القيام بواجبه نحو دينه ودعوته، وعاش لا يسمع به ولا يراه أحد فقد أساء إلى نفسه ودعوته، واستحق من الله ـ على غلمه الذى كتمه ـ عظيم العقوبة.

وفى الحديث: «من سئل[١] عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»[٢].

ومما يروى عن الصحابى الجليل أنس بن مالك رضى الله عنه أنه كان يقول: «بلغنى أن العلماء يُسألون يوم القيامة كما تُسأل الأنبياء (يعنى عن تبليغه)»[٣].

هذا فضلاً عن فوات المنفعة بهذا العلم، ففى الحكَم عن ابن عباس قال: «مثَل علم لا يظهره صاحبه كمثل كنز لا ينفق منه صاحبه»[٤].

وروى أيضًا من كلام الحكماء: «من كتم علمًا فكأنه جاهله»[٥].

فلتحرص ـ أخى الداعية ـ على القيام بواجبك، والله نسأل أن يرعانا ويرعاك، ويسدد على طريق الحق خطانا وخطاك.

---

(١) لا يشترط أن يتوجه أحد بالسؤال إلى العالم فيكتم علمه فيستحق العقوبة لذلك، بل هروب الداعية من الميدان، وانطواؤه على نفسه فى الوقت الذى تهتف به أحوال المسلمين البائسة قائلة له: هلُمَّ إلينا، كل هذا يجعله كاتمًا للعلم، ومستحقًا للعقاب على تخاذله وتقهقره.

(٢) رواه أبو داود، وسكت عنه (جـ٢ ـ ص٣١٥) كتاب العلم ـ باب كراهية منع العلم، ورواه الترمذى وحسنه (جـ٥ ـ ص٢٩) كتاب العلم ـ باب ما جاء فى كتمان العلم، ورواه ابن ماجه (جـ١ ـ ص٩٨) المقدمة ـ باب من سئل عن علم فكتمه، ورواه أحمد (جـ٢ ـ ص٢٦٣).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (جـ١ ـ ص١٤٩).

(٤) نفس المرجع (جـ١ ـ ص١٤٨).

(٥) نفس المرجع (جـ١ ـ ص٦).

• **توجيهات للداعية فى مجال دعوته الآخرين وتعليمهم:**

سبق أن ذكرنا ـ فى صدر هذا المبحث ـ أن دعوة الآخرين وتعليمهم تحتل ـ من بين سائر الأخلاق ـ مكانة سامقة، وأنه لولاها لم تكن دعوة ولا داعية.

ومن المُسلَّم به أن نجاح المقدمات فى أى عمل مدعاة إلى تحقيق نتائج طيبة بإذن الله.

ولذا فقد رأيت ـ أخى الداعية ـ أن أضع بين يديك عدة توجيهات تتعلق بالدعوة والتعليم، وهى ـ فى نظرى ـ حماية ووقاية لهذا الخلق من الانحراف، وسبيل لأن تؤتى الدعوة أكلها بإذن ربها.

هذا، وتنقسم التوجيهات التى أريد التحدث بها معكم ـ إخوتى الدعاة ـ إلى ثلاثة أقسام:

(أ) قسم يتعلق بمنهج الدعوة.

(ب) قسم يتعلق بأسلوب الدعوة.

(جـ) قسم يفيد الداعية فى أداء رسالته على وجه أكمل، وصورة أتمّ.

وحسب هذا الترتيب نبدأ فى عرض توجيهاتنا، سائلين الله تعالى أن يلهمنا الصواب والسداد.

أولاً: القسم الذى يتعلق بمنهج الدعوة:

(١) القيام بواجب الدعوة مصحوبًا بالأمل فى قبول الناس لها:

يتحرك الداعية وفق ما أمره الله ـ عز وجل ـ فى كتابه، وما دعاه إليه الرسول ﷺ فى سنته من الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر.

ويقوم الداعية بهذا العمل باعتباره عبادة فى ذاته، سواء وجد الآذان الصاغية، والقلوب المفتوحة، أم لم يجد، وسواء آمن الناس أم لم يؤمنوا، فهو على ثقة من أن ما لديه هو الحق، واستجابة الناس أو عدمها شىء آخر.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «عُرضت عَلَىَّ الأمم، فرأيت النبى ومعه الرهيط[١]،

(١) الرهيط: تصغير الرهط، وهى الجماعة دون العشرة.

والنبى ومعه الرجل والرجلان، والنبى ليس معه أحد..»[١].

والشاهد فى الحديث أن قلة أو عدم إيمان أحد بنبىٍّ ما من الأنبياء لا يقدح فى أن ما جاء به هو الحق.

ولكن نظرة الداعية إلى مجموع الأدلة القرآنية والنبوية تحيطه علمًا بأن الله خلق الناس جميعًا على فطرة سويَّة، فإذا اعترى هذه الفطرة بعض الصدأ لم يكن معناه أن الفطرة ذاتها فسدت، بل يظل إمكان الإصلاح فيها موجودًا بإذن الله.

ويُستأنس لهذا المعنى بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[٢].

ويُستأنس لذلك أيضًا بما فعله الله مع نبييه: موسى وهارون، حين أرسلهما إلى فرعون الطاغية، قائلاً لهما: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[٣].

وعلى هذا الترتيب يتحرك الداعية بثقة ورجاء فى إيمان الناس كلهم، ورغبة الجميع فيما لديه من الخير.

يقول الأستاذ البهى الخولى: «الداعية الفقيه يستقبل الناس جميعًا وهم لديه فى حسن الاستعداد سواء، وكله رجاء - بل يقين - فى أن يجد من الجميع أعوانًا له على الخير الذى يدعو إليه، فإذا أعرض عنه إنسان أو ردَّه بسوء فإنه لا يتوقع الشر من الآخرين أبدًا، إذ هو يدرك أنهم ينطوون على فطرة الحق، والحق مبعث الأمل والرجاء، بل مبعث الثقة واليقين، ولهذا تراه يستقبل الآخرين برجاء جديد، ويقين جديد، كأن له فى كل فطرة وفى كل وجه هاتفًا يهتف به: هنا النصير، فلا يفوتنك هذا النصير»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم، واللفظ له (جـ١ - ص١٩٩) كتاب الإيمان - باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، وأخرجه البخارى بلفظ قريب منه (جـ٤ - ص١١) كتاب الطب - باب من اكتوى أو كوى غيره، وفضل من لم يكتو، وأخرجه الترمذى بنحوه (جـ٤ - ص٦٣١) كتاب صفة القيامة - باب رقم (١٦) منه، وأخرجه أحمد (جـ١ ص٢٧١).

(٢) سورة الأعراف (١٦٤).

(٣) سورة طه (٤٤).

(٤) تذكرة الدعاة (ص٢٨٣).

وما من شك فى أن مراعاة الداعية لهذا الجانب تجعله دائم العطاء، وحياته حافلة بجلائل الأعمال، فإن استغنى أحد من الناس عما فى يديه كانت سلوته أنه أحوج إليه من غيره، والله لن يضيع له جهده، مصداقًا لقوله تعالى فى كتابه الكريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾[١].

(٢) استغلال كافة الإمكانات لنشر الدعوة:

تَجْمع أعداء الإسلام غاية واحدة ذكرها ربنا تبارك وتعالى فى قوله: ﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾[٢]، وفى قوله: ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾[٣].

ومع وضوح هذه الغاية، وعمل القدامى والمحدثين منهم على تحقيقها، إلا أن الوسائل تتجدد وتتطور مع عجلة التطور السائدة فى كل شىء.

وإن نظرة إلى دور التعليم، ووسائل الإعلام فى العصر الحديث لتُرينا إلى أى مدى كيف استُغلت هذه الإمكانات لتقرير الباطل، وإذاعة أدوات الفساد والإفساد.

وإزاء هذا لا يليق بالداعية أن يعيش فى إطار وسائل قديمة، وإن كان جهده لا يستغنى عنها، لكن فى ظل المبادئ الباطلة التى تتزيًا بكل الوسائل الفعالة يصير جهد الداعية ضعيف الأثر إن لم يستفد من هذه الوسائل العصرية لتحقيق أهداف الدعوة، وصدق من قال:

وألْف بانٍ خلفهم هــــادم كـفى   فكيف ببانٍ واحد خلفه ألف هادم؟

لذا وجب على الداعية أن يجتهد فى أن تكون للدعوة مؤسسات تعليمية تحمل رايتها، وخدمات اجتماعية تُعرِّفُ للناس باسمها، ومواد تعليمية وإعلامية وفق الأساليب العصرية تعرِّف الناس بمبادئ هذا الدين، وتحيط المسلم علمًا بأحوال إخوانه المسلمين فى شتى بقاع الأرض.

وأضرب هنا مثالاً لشىء واحد من هذه الأشياء هو التعليم، لما لهذا الأمر من أهمية.

---

(١) سورة الكهف (٣٠).

(٢) سورة البقرة (٢١٧).

(٣) سورة الممتحنة (٢).

لا يخفى على أحد ما للثقافة والعلم من أثر فى تكوين أجيال مستنيرة، تزن الأمور بميزان يتفق مع سعة الأفق ورحابة الفكر.

وإذا كان الأمر كذلك فإنه لم تكن لتفوت أعداء الإسلام فرصة الاستفادة من هذا الجانب المهم لتحقيق الغاية التى يعملون لها جميعًا وهى: إقصاء الإسلام من واقع الناس.

وفى الدلالة على هذه النقطة يقول أحدهم، وهو المبشر تكلى: «يجب أن نشجع إنشاء المدارس على النمط الغربى العلمانى، لأن كثيرًا من المسلمين قد زعزع اعتقادهم بالإسلام والقرآن حينما درسوا الكتب المدرسية الغربية، وتعلموا اللغات الأجنبية»(١).

ويقول زويمر زعيم المبشرين النصارى: «ما دام المسلمون ينفرون من المدارس المسيحية فلابد أن ننشئ لهم المدارس العلمانية، ونسهل التحاقهم بها. هذه المدارس التى تساعدنا على القضاء على الروح الإسلامية عند الطلاب»(٢).

ولا أريد الاسترسال فى ذكر ما قاله هؤلاء وغيرهم من الهدف الأصلى لإنشاء المدارس الأجنبية، وإغراق العالم الإسلامى بالكثير منها، مع العناية الفائقة بمظهر هذه المدارس، والارتقاء الفكرى والسلوكى بهيئة التدريس فيها، والسعى الحثيث لأن يكون خريجوها فى أرقى المناصب، وأعلى المراتب.

ولئن كانت الغاية من تخريج أجيال من هذه المدارس قد وضحت من كلماتهم ـ التى ذكرنا بعضها ـ فماذا ينتظر من أحد هؤلاء الخريجين إذا اعتلى منصبًا قياديًا سوى التنكر لتعاليم الإسلام، والتهكم والاستهزاء من المنتمين إليها، والمنادين بها.. إلا من رحم ربى.

أترى ـ أخى الداعية ـ أن خطبة على منبر كافية لإبطال ما خطط له المستشرقون والمبشرون منذ قرون؟.

إن المسئولية جسيمة، والخطب جليل، ولا يعفى أحدٌ منا من المسئولية أمام الله تعالى إلا أن يبذل أقصى ما فى وسعه لملاحقة أساليب الأعداء التى لا تفتأ تتجدد

(١) التبشير والاستعمار (ص٨٨).

(٢) الغارة على العالم الإسلامى (٨٢).

وتتطور مع كل يوم، وكل ساعة.

وعلى سبيل الاعتراف بالفضل لأهله أذكر أن كثيراً من المؤسسات الإسلامية بدأت تتنبه لهذا الأمر، فأنشأت المدارس الإسلامية على أسلوب حديث، وكانت بادرة طيبة أن هرع إليها المسلمون من كل صوْب، مما يدل على أصالة الفطرة فى نفس المسلم، وحبه لأن يكون الإسلام واقعًا عمليًا فى حياته وحياة أولاده.

وعلى الرغم مما يُوجَّه إلى هذه المدارس من نقد ـ سواء فى العملية التعليمية، أو فى أسلوب الإدارة ـ فإنها خطوة على الطريق: طريق العودة إلى الحياة الإسلامية، والتى بدت كثير من مظاهرها ـ والحمد لله ـ فى حياتنا المعاصرة.

(٣) الدعوة إلى الجوانب العملية فى الدين، والتخلى عما لا ينفع:

كان من دعاء بعض الصالحين: «اللهم اجعلنى من غرسك الذين تستعملهم بطاعتك»[١].

حول هذه الغاية يتحرك الداعية مقدِّرًا لكل كلمة يقولها، وكل خطوة يخطوها حتى لا تضيع سدى، فإن من اشتغل بغير المهم أضرَّ بالمهم.

ومن ثم ينتخب الداعية ما يقوله للناس بحيث يشتمل على جوانب عملية تطبيقية، ويتخلى عن السفسطة والعلم غير النافع.

وأضرب هنا مثالين على كل نوع لتكون بمثابة التوضيح لما أقصده:

فمثلاً يحرص الداعية على تعليم الناس الأحكام الفقهية المتعلقة بأمور العبادات والمعاملات لتكون هذه الأمور مؤدَّاة على وجه صحيح.

يقول الصحابى الجليل أبو هريرة: «لأن أفقه ساعة أحب إلىَّ من أن أحيى ليلة أصليها حتى أصبح، والفقيه أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شىء دِعامة، ودعامة الدين الفقه»[٢].

وكذلك يحرص الداعية على ترغيب الناس فى فضائل الأعمال، ويحثهم على ذكر الله وقراءة القرآن، ونحو ذلك.

---

(١) مفتاح دار السعادة (جـ١ ـ ص١٤٨) ابن قيم الجوزية.

(٢) الجامع لأخلاق الراوى، وآداب السامع (جـ٢ ـ ص١١٠).

قال عمرو بن قيس: «وجدنا أنفع الحديث لنا ما نفعنا فى أمر آخرتنا، من قال كذا فله كذا»[١].

وفيما يتعلق بما يجب اجتنابه والتخلى عنه فأضرب له مثلين أيضًا:

فمثلاً يتجنب الداعية الخوض فيما شجر بين الصحابة من خلاف، ويُمْسك عن التحدث فى الوقائع التى كانت بينهم، ولا يحمل فى قلبه إلا التقدير والتبجيل لجميعهم، مع الدعاء والاستغفار لعامتهم.

ومن جميل ما أُثر فى هذا أن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز تكلَّم البعض أمامه فيما جرى بين الصحابة، فقال: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [البقرة: ١٤١][٢].

وكذلك يتجنب الداعية الخوض فى المتشابه من الآيات، نحو آيات وأحاديث الصفات التى يقتضى ظاهرها التشبيه والتجسيم وإثبات الجوارح لله تعالى.

وعلى هذا الهدى سار سلف الأمة الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ فكانوا يضْرِبون صفحًا عن الكلام فى مثل هذه المسائل لقلة الفائدة منها.

يقول الإمام مالك بن أنس ـ رضى الله عنه ـ «الكلام فى الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه ـ نحو الكلام فى رأى جهم والقدر وكل ما أشبه ذلك ـ ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل، فأما الكلام فى دين الله وفى الله عز وجل فالسكوت أحبُّ إلىَّ، لأنى رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام فى الدين إلا فيما تحته عمل»[٣].

وقد ورد على لسان كثير من الأئمة ذمُّ التعرض لهذه المسائل، ولستُ بصدد ذكر هذه الأقوال، وإنما أحيل من أراد الاستزادة منها إلى الكتب التى تحدثت فى هذا الشأن[٤].

---

(١) المرجع السابق (جـ٢ ـ ص١١١).

(٢) العواصم من القواصم (ص٢٥٢) القاضى أبو بكر بن العربى بتحقيق محب الدين الخطيب ـ طبعة سنة ١٩٨٥ ـ المكتبة العلمية ـ بيروت ـ لبنان.

(٣) جامع بيان العلم وفضله (جـ٢ ـ ص١١٦).

(٤) انظر المرجع السابق (جـ٢ ـ ص١١٣: ص١٢٠)، وانظر أيضًا (صفة الفتوى والمفتى والمستفتى) =

(٤) الترفع عن الجدال طلبًا لتفريغ الأوقات لما هو أهم:

يحرص الداعية على أن يستفيد بكل لحظة فى حياته، ويضِنُّ بوقته أن يضيع سدى، فالواجبات عنده أكثر من الأوقات، ولا مجال للتفريط فى أغلى الأشياء وهو الوقت.

ومن الأمور التى تخدم الداعية فى هذا المجال أن يحرص فى دعوته على تجنب الجدال والخصومة مع المخالفين له فى الرأى، طالما استشعر أن الطرف الآخر يتصور أن ما يقول به هو الحق الذى لا يأتيه الباطل، وأن ما يقول به غيره باطل لا يحتمل الصواب.

والسر فى ذلك أن الجدال مع أمثال هؤلاء لن يصل أبدًا إلى نقطة اتفاق، فضلاً عن أنه يدع النفوس ممتلئة بالضغائن والإِحن.

يقول الإمام مالك بن أنس: «المراء يقسى القلب، ويورث الضغن»[(١)].

وتشير السنة النبوية إلى أن الجدال مظهر من مظاهر الضلالة بعد الهُدَى، ففى الحديث: «ما ضل قوم بعد هُدًى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»[(٢)].

وبسبب الجدال حدث حرمان المسلمين فى الصدر الأول من تحديد ليلة القدر، وامتنع النبى ﷺ عن كتابة كتاب لأمته ـ همَّ به فى مرض موته ـ حتى لا يختلفوا من بعده.

ومن ثم حرص دعاة الأمة الأوائل على التخلى عن هذا الخلق الذميم، ووجهوا ـ بأقوالهم وأفعالهم ـ إلى ذلك.

يقول الإمام أحمد بن حنبل: «لا يكون الرجل من أهل السنة حتى يدع الجدال، وإن أراد به السنة»[(٣)].

= (ص٤٤: ص٥٠) الإمام أحمد بن حمدان الحرانى الحنبلى، وانظر أيضًا (المجموع شرح المهذب) (جـ١ ـ ص٩٢).

(١) جامع بيان العلم وفضله (جـ١ ـ ص١٦٢).

(٢) رواه الترمذى، وقال عنه: حسن صحيح (جـ٥ ـ ص٣٧٨) كتاب تفسير القرآن ـ باب سورة الزخرف، ورواه ابن ماجه (جـ١ ـ ص١٩) المقدمة ـ باب اجتناب البدع والجدل، ورواه أحمد (جـ٥ ـ ص٢٥٢).

(٣) صفة الفتوى والمفتى والمستفتى (ص٤٨) الإمام أحمد بن حمدان الحرانى.

وقال أبو قلابة: «لا تجالسوا أهل الأهواء، ولا تجادلوهم، فإنى لا آمن أن يغمسوكم فى ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون»[١].

ومن سيرة سلف الأمة الصالح فى الترفع عن الجدال أسوق هذين المثلين:

(١) قال أبو حازم الأعرج: «رأيتنا فى مجلس زيد بن أسلم أربعين فقيها، أدنى خصلة فينا التواسى بما فى أيدينا، وما رأيت فيه متماريَيْن ولا متنازعين فى حديث لا ينفعنا»[٢].

(٢) دخل رجلان من أصحاب الأهواء على ابن سيرين فقالا: يا أبا بكر، نحدثك بحديث؟ قال: لا. قالا: فنقرأ عليك آية من كتاب الله؟ قال: لا، لتقومان عنى أو لأقومن؟ فخرجا. فقال بعض القوم: يا أبا بكر، وما كان عليك أن يقرآ عليك آية من كتاب الله تعالى؟ قال: إنى خشيت أن يقرآ علىَّ آية فيحرفانها فيقرّ ذلك فى قلبى»[٣].

فإذا وضعنا هذا السلوك الحسن ـ من حياة السلف الصالح ـ أمام أعيننا، وذهبنا نقارن بينه وبين واقع المسلمين المرّ فى عصرنا الحاضر لرأينا بُعْدَ الشقة بين الواقع والواجب.

إن تعاليم الإسلام تؤكد على أن المسلم عضو فى جسد، ولبِنَة فى بناء.

ولا أدل على هذه الحقيقة من كون المسلم فى كل ركعة من صلاته يتحدث بالأصالة عن نفسه، والنيابة عن جميع المسلمين قائلاً: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[٤].

وعلى الرغم من وضوح هذه الحقيقة إلا أن مسلمى اليوم أبوا إلا أن يضخموا مسائل الخلاف بينهم، حتى أضحت الأمة المسلمة أشلاء ممزقة، يستوى فى ذلك عوامُّ الناس، وبعض الدعاة الذين يُنْتَظَر منهم إنقاذ العالم من الضياع.

---

(١) سنن الدارمى (جـ١ ـ ص١٠٨).

(٢) تذكرة الحفاظ (ص١٢٤).

(٣) سنن الدارمى (ج١ ـ ص١٠٩).

(٤) سورة الفاتحة (٥ـ٦).

ولن يتحقق للعالم الإسلامى ما تصبو إليه آمال المسلمين إلا بالتئام الشمل، وتوحيد الصف، مع التماس العذر للمخالف، مما يجعل حبل الود موصولاً، وأواصر الأخوة باقية.

ولكى يتحقق هذا التقارب بين العاملين للإسلام والداعين إليه فإن من الواجب مراعاة الآتى:

(١) التزود بالكثير من المعارف، والاطلاع على أكبر قدر ممكن من حقائق الحياة، ومذاهب العلماء.

وذلك لأن سعة المعرفة تعطى لصاحبها سعة فى الأفق، وقدرة على تبيان الحقائق دون مبالغة فيها، أو تقليل من شأنها، وعلى العكس من ذلك تمامًا صاحب المعرفة المحدودة، والخبرة القليلة.

(٢) التحرك فى الحياة بدافع الإخلاص لله تعالى، وإيثار ما عنده على لذّات الحياة كلها، والرغبة فى نفع الناس بالإسلام دون التطاول به، والنظر إلى الناس على أننا وأنهم فى الإنسانية سواء، ولسنا أربابا لهم، أو قضاة عليهم.

(٣) الاستفادة من تطورات العصر الحاضر لتجديد أساليب الدعوة، وتطبيق بعض التعاليم على ضوء ما جدَّ فى الحياة من أحداث كبار[١].

هذه بعض الملاحظات التى يجب مراعاتها ونحن نسعى لرأب الصدع، وتوحيد الصف.

وفى ظل هذا الفهم يصبح الخلاف فى الرأى ظاهرة صحية تثرى المسلم بخصوبة المعلومات، وتؤهله لرؤية الموضوع الواحد من جميع أبعاده وزواياه، وذلك بدلاً من التناحر والتقاتل كما هو شأن الكثير من المسلمين اليوم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

---

(١) انظر (ظلام من الغرب) (ص٢٨٤: ص٢٩٤) فضيلة الشيخ محمد الغزالى ـ طبعة ثالثة سنة ١٩٦٥ ـ دار الكتب الحديثة.

ثانيًا: القسم الذى يتعلق بأسلوب الدعوة:

(١) الحذر من الفتوى بغير علم:

يحتاج الناس إلى الداعية ليحل لهم المشكلات، ويكشف لهم عن وجه الصواب فيما يطرأ عليهم فى جميع الحالات.

ومن الملاحظ أن الناس فى هذا المجال ترى فى الحديث إلى الداعية عونًا على تجاوز المحن، والخروج من المآزق، ومن ثمَّ يذكرون بين يديه من أحوالهم ما يستحيون من ذكره أمام ذويهم وأصدقائهم.

وإذا كان الأمر كذلك فإن الواجب على الداعية أن يحيط علمًا بما لهذا الموضوع من أهمية، وما يتعلق به من آداب، حتى لا يضر من حيث يظن أنه ينفع.

ويمكن تلخيص ما يتعلق بهذا الموضوع فى النقاط التالية:

(أ) أن يقدِّر خطورة موقع المفتى، باعتباره المبيِّن لهم حكم الله تعالى فيما هو حرام وما هو حلال وما هو بين ذلك، وأن يحمله ذلك على الاضطلاع بهذه المسئولية عن علم وفقه.

يقول ابن المنكدر: «العالِم بين الله تعالى وخلْقه، فلينظر كيف يدخل بينهم»[(١)].

ويقول الإمام ابن القيم: «إذا كان منصب التوقيع عن الملوك بالمحلِّ الذى لا يُنكَر فضله، ولا يجهل قدره، وهو من أعلى المراتب السنيَّات، فكيف بمنصب التوقيع عن رب الأرض والسموات؟ فحقيق بمن أقيم فى هذا المنصب أن يُعِدَّ له عدته، وأن يتأهب له أهبته، وأن يعلم قدر المقام الذى أقيم فيه، ولا يكون فى صدره حرج من قول الحق والصدع به، فإن الله ناصره وهاديه، وكيف وهو المنصب الذى تولاه بنفسه رب الأرباب، فقال تعالى: ﴿**وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ...**﴾[(٢)]»[(٣)].

---

(١) المجموع شرح المهذب (جـ١ ـ ص٧٣)، و(جامع البيان ـ شرح حديث ما ذئبان جائعان) (ص٢٤) ـ ابن رجب الحنبلى.

(٢) سورة النساء (١٢٧).

(٣) إعلام الموقعين (جـ١ ـ ص٧ ـ ص٨).

ويتفرع عن هذه النقطة عدة مسائل نشير إليها فيما يلى:

(١) أن المرء مسئول أمام الله تعالى عن كل كلمة قالها، أو حُكْم أشار به.

يقول الإمام أبو حنيفة: «من تكلم فى شىء من العلم وتقلده وهو يظن أن الله لا يسأله عنه: كيف أفتيت فى دين الله؟ فقد سهلت عليه نفسه»[١].

ويقول الإمام مالك بن أنس: «من أجاب فى مسألة فينبغى قبل الجواب أن يعرض نفسه على الجنة والنار وكيف خلاصه، ثم يجيب»[٢].

(٢) أن استشعار المرء بمسئوليته أمام الله عمَّا يفتى به الناس يجعله وجلاً من الإقدام على هذا المجال ما لم تتوفر له أدواته وإمكاناته، بل والخوف فى ظل توافر هذه الأدوات والإمكانات من تحمّل المسئولية.

يقول عطاء: «أدركت أقوامًا إن كان أحدهم ليسأل عن الشىء فيتكلم وإنه ليرعد»[٣].

«وكان ابن سيرين إذا سئل عن الشىء من الحلال والحرام تغيَّر لونه وتبدل، حتى كأنه ليس بالذى كان»[٤].

ويقول الإمام الشافعى: «ما رأيت أحدًا جمع الله تعالى فيه من آلة الفتيا ما جمع فى ابن عيينة أسكت منه عن الفتيا»[٥].

(ب) أن يدرك المرء خطورة الفتوى بغير علم، وأنها ترفع الوزر عن الآخذ بها، ويبوء القائل بها بالإثم كله.

يقول الصحابى الجليل سلمان الفارسى فى رسالة له إلى الصحابى الجليل أبى الدرداء رضى الله عنهما: «بلغنى أنك قعدت طبيبًا تداوى المرضى، فانظر، فإن كنت طبيبًا فتكلَّم فإن كلامك شفاء، وإن كنت متطببًا فالله الله لا تقتل مسلمًا»[٦].

---

(١) تقريب كتاب الفقيه والمتفقه (ص٣٠٨) الحافظ الخطيب البغدادى.

(٢) المجموع شرح المهذب (جـ١ ـ ص٧٤).

(٣) تقريب كتاب الفقيه والمتفقه (ص٣٠٨) الحافظ الخطيب البغدادى.

(٤) جامع البيان ـ شرح حديث ما ذئبان جائعان (ص٢٤) ابن رجب الحنبلى.

(٥) المجموع شرح المهذب (جـ١ ـ ص٧٤).

(٦) إحياء علوم الدين (جـ١ ـ ص١٢).

وعن ابن عباس قال: «من أفتى الناس بفتيا يعْمَى عنها فإنما إثمها عليه»[١].

وإليك ـ أخى الداعية ـ هذا المثل من الفتوى بغير علم، والذى كان سببًا فى إغضاب النبى ﷺ بل ودعائه على القائلين به:

عن جابر قال: «خرجنا فى سفر فأصاب رجلاً منا حجر فشجَّه فى رأسه ثم احتلم، فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لى رخصة فى التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات، فلما قدمنا على النبى ﷺ أخبر بذلك، فقال: قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذْ لم يعلموا، فإنما شفاء العِىّ[٢] السؤال. إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر (أو يعصب ـ شك موسى) على جرحه خرقة، ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده»[٣].

ويتفرع عن هذه النقطة مسائل عدة نشير إليها فيما يلى على سبيل الإجمال:

(١) أن يُمْسك الداعية عن الجواب فيما لم يتضح وجه الصواب فيه عملاً بقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً**﴾[٤].

(٢) أن يعلم بأن سكوته عمَّا لا يعلم خوفًا من الله لا يقل فى الثواب عن الكلام به إذا عُلِم.

يقول الإمام الشعبى: «لا أدرى نصف العلم ومن سكت ـ حيث لا يدرى ـ لله تعالى فليس بأقل أجرًا ممن نطق»[٥].

(٣) أن يضع نصب عينيه أن إحجامه عن الجواب فيما لا يعلم ـ وإن أصابه من ذلك بعض الحرج ـ أهون من السؤال بين يدى الله.

---

(١) تقريب كتاب الفقيه والمتفقه (ص ٣٠٠) الخطيب البغدادى.

(٢) العىّ: الجهل ـ هكذا فى النهاية (جـ٣ ـ ص٣٣٤) مادة: عيا.

(٣) أخرجه أبو داود، وسكت عنه (جـ١ ـ ص٩٤) كتاب الطهارة ـ باب فى المجروح يتيمم، وأخرجه ابن ماجه من رواية ابن عباس بسند منقطع (جـ١ ـ ص١٨٩) كتاب الطهارة ـ باب فى المجروح تصيبه الجنابة فيخاف على نفسه إن اغتسل، وأخرجه أحمد عن ابن عباس أيضًا (جـ١ ـ ص٣٣٠).

(٤) سورة الإسراء (٣٦).

(٥) إحياء علوم الدين (جـ١ ـ ص١١٧).

عن يحيى بن سعيد قال: «سئل ابن لابن عبد الله بن عمر عن شىء فلم يكن عنده فيه شىء، فقال له رجل: إنى لأُعظِمُ أن يكون مثلك ابن إمام هدى يُسئَل عن شىء لا يكون عنده فيه علم. قال: أعظم من ذلك ـ والله ـ عند الله وعند من عقل عن الله أن أقول بغير علم، أو أحدث عن غير ثقة»[١].

(٤) أن يعلم بأن عدم معرفته ببعض الأشياء لا تحط من قدره ـ كما يتصور البعض ـ بل هى دليل على قوة دينه، وعِظَم أمانته، بعكس من يتجرأ على الفتوى بغير علم لعدم الوقوع فى الحرج فإن مآله أن يفتضح أمره، ويشيع ـ بين الناس ـ جهله.

يقول القاسم: «إن من إكرام المرء نفسه أن لا يقول إلا ما أحاط به علمه»[٢].

ومن ثم رأينا الأئمة الأجلاء، وسلف الأمة الصالح من العلماء المحققين لا يتورَّعون أن يقولوا «لا ندرى» فيما لا علم لهم به.

والأمثلة على ذلك كثيرة لا حصر لها، ولكن أشير إلى بعضها على سبيل الإجمال:

(أ) عن عقبة بن مسلم قال: «صحبت ابن عمر أربعة وثلاثين شهرًا فكان كثيرًا ما يُسْأل فيقول: لا أدرى، ثم يلتفت إلىَّ فيقول: أتدرى ما يريد هؤلاء؟ يريدون أن يجعلوا ظهورنا جسرًا إلى جهنم»[٣].

(ب) سئل القاسم بن محمد بن أبى بكر عن شىء فقال: لا أحسنه، فقال السائل: إنى جئت إليك لا أعرف غيرك؟ فقال القاسم: لا تنظر إلى طول لحيتى، وكثرة الناس حولى، والله ما أحسنه. فقال شيخ من قريش جالس إلى جانب القاسم: يا ابن أخى الزمها، فوالله ما رأيتك فى مجلس أنبل منك اليوم. فقال القاسم: والله لأن يقطع لسانى أحب إلىَّ من أن أتكلم بما لا علم لى»[٤].

---

(١) الجامع لأخلاق الراوى، وآداب السامع (جـ٢ ـ ص٩٠) الخطيب البغدادى.

(٢) تقريب كتاب الفقيه والمتفقه (ص٣١٠) الخطيب البغدادى.

(٣) جامع بيان العلم وفضله (ج٢ ـ ص٦٨).

(٤) صفة الفتوى والمفتى والمستفتى (ص٧، ص٨) أحمد بن حمدان الحرانى، وكذا ذكره ابن عبد البر فى (جامع بيان العلم وفضله) (جـ٢ ـ ص٦٦).

(جـ) سئل الإمام الشعبى عن شىء فقال: «لا أدرى»، فقيل له: ألا تستحى من قولك لا أدرى وأنت فقيه أهل العراق؟ فقال: لكن الملائكة لم تستح حين قالت: ﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾(١).

(د) واشتُهر هذا الأمر عن إمام دار الهجرة الإمام مالك بن أنس، والذى قيل فى حقه: «لا يُفْتى ومالك بالمدينة».

قال ابن وهب: «لو كتبنا عن مالك لا أدرى لملأنا الألواح»(٢).

وعن الهيثم بن جميل قال: «شهدت مالكًا سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال فى ثنتين وثلاثين منها: لا أدرى. وعن مالك أيضًا: أنه ربما كان يُسْئَل عن خمسين مسألة فلا يجيب فى واحدة منها»(٣).

وعن عبد الرحمن بن مهدى قال: «كنا عند مالك بن أنس فجاءه رجل فقال له: يا أبا عبد الله جئتك من مسيرة ستة أشهر حمّلنى أهل بلدى مسألة أسألك عنها، قال: فسل، فسأله الرجل عن المسألة، فقال: لا أحسنها، قال: فبُهِتَ الرجل كأنه قد جاء إلى من يعلم كل شىء، فقال: أى شىء أقول لأهل بلدى إذا رجعت إليهم؟ قال: تقول لهم قال مالك: لا أحسن»(٤).

(٥) أن تكون عنده الشجاعة والجرأة فى العودة إلى الحق إذا علم أنه حَادَ عنه من قبل، وأن يعترف بذلك.

يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى كتاب له إلى أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنهما ـ: «لا يمنعنك قضاء قضيته بالأمس راجعت فيه نفسك، وهُدِيتَ فيه لرشدك أن ترجع فيه إلى الحق، فإن الحق قديم (يعنى أن شيئًا ما لا يبطَله) والرجوع إلى الحق أولى من التمادى فى الباطل»(٥).

ومن جميل ما يروى فى هذا عن عبد الرحمن بن مهدى أنه سأل شيخه عبد الله

---

(١) تقريب كتاب الفقيه والمتفقه (ص٣١١).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (جـ٢ ـ ص٦٧).

(٣) المجموع شرح المهذب (جـ١ ـ ص٧٤).

(٤) جامع بيان العلم وفضله (جـ٢ ـ ص٦٦).

(٥) جامع بيان العلم وفضله (جـ٢ ـ ص١٠٨).

ابن الحسن العنبرى عن مسألة فغلط فيها، فقال له: أصلحك الله، القول فيها كذا وكذا، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال: إذن أرجع وأنا صاغر. لأنْ أكون ذنبًا فى الحق أحب إلىَّ من أن أكون رأسًا فى الباطل[١].

(جـ) أن يعلم الداعية بأن منصب الفتيا تكليف لا تشريف.

ويتفرع عن هذه النقطة عدة مسائل نلخصها فيما يلى:

(١) أن الإنسان العاقل إذا ما وجد فرصة ليتحمل غيره المسئولية بادر بإلقائها عن عاتقه، حتى تبرأ ساحته من السؤال أمام الله، وعلى هذا سار سلف الأمة الصالح.

قال عبد الرحمن بن أبى ليلى: «أدركت فى هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ ما منهم أحد يُسْئَل عن حديث أو فتيا إلا ودَّ أن أخاه كفاه ذلك. وفى لفظ آخر: كانت المسألة تعرض على أحدهم فيردها إلى الآخر، ويردها الآخر إلى الآخر، حتى تعود إلى الأول»[٢].

(٢) أن تورّع الإنسان عن الفتيا، ورغبته فى أن يقوم غيره بهذه المهمة سبيل إلى معونة الله وتوفيقه له.

يقول الحافظ الخطيب البغدادى: «قلَّ من حرص على الفتوى، وسابق إليها، وثابر عليها إلا قلَّ توفيقه، واضطرب فى أمره. وإن كان كارهًا لذلك، غير مختار له ما وجد مندوحة عنه وقدر أن يحيل بالأمر فيه على غيره كانت المعونة له من الله أكثر، والصلاح فى فتواه وجوابه أغلب»[٣].

• أخى الداعية:

معذرة إذا كنت قد أطلت الحديث معك فى هذه النقطة لأن المقام يقتضى ذلك، وإن كنت أُلْفِتُ نظرك إلى أن هذا الذى كتبته بخصوص الفتوى وآدابها قليل من كثير سجله أئمتنا، وأسهبوا فى الحديث عنه.

---

(١) تهذيب التهذيب (جـ٧ ـ ص٧) الحافظ ابن حجر العسقلانى.

(٢) إحياء علوم الدين (جـ١ـ ص١١٩) وورد كلام ابن أبى ليلى فى جميع الكتب المهتمة بالحديث عن الفتيا.

(٣) تقريب كتاب (الفقيه والمتفقه) (ص٣٠٧) الحافظ الخطيب البغدادى.

فإن شئت مزيداً من البحث فى هذا الموضوع فعليك بكتاب (الفقيه والمتفقه) للحافظ الخطيب البغدادى، وكتاب (صفة الفتوى والمفتى والمستفتى) للإمام أحمد ابن حمدان الحرَّانى، فهما أجمع ما كُتب فى هذا المجال.

(٢) صرف الناس عن الرذائل دون التعرض لأسماء مرتكبيها:

من الأخلاق الهامة فى مجال دعوة الآخرين حرص الداعية على صرف الناس عن الآثام والأخطاء بمهاجمة أنواعها، وتقبيح من يقيم عليها، وذلك دون الإشارة إلى إنسان بعينه يفعل هذا الفعل أو ذاك.

ويُستأنس لهذا بما كان يفعله النبى ﷺ مع من يريد تأديبه وزجره، إذ كان لا يواجهه بعينه، بل يوجه نصيحته عامَّة للمخطئ وغيره فيقول: «ما بال أقوام..».

وهذا ـ فى نظرى ـ يحقق عدة فوائد:

(أ) أن تأخذ الدعوة طابع العموم الزمانى والمكانى إذ لا يخلو وقت أو مكان من المعاصى التى يجتهد الداعية فى محاربتها، فإن تحدث الداعية عن أوصاف الذنوب دون تحديد لفاعليها أفادت دعوته زمانًا ومكانًا.

(ب) ألا يفهم العاصون أن بينهم وبين الداعية خلافات شخصية ـ حين يحددهم بأسمائهم ـ فيحملهم ذلك على مزيد العناد، ومحاولة إيقاع الضرر بالداعية.

(جـ) أن اهتمام الداعية بمتابعة أحوال العصاة والتعرف على أشخاصهم للإعلان عنها سيضيع وقت الداعية، فضلاً عن أن الحديث عن أشخاص العصاة قد يذيع لهم شهرة ومعرفة، وبذا يسهم الداعية ـ من حيث لا يدرى ـ فى التمكين لهؤلاء العصاة.

(٣) اختيار القول المناسب فى الوقت المناسب:

شأن الداعية كشأن الطبيب يباشر علاج أنواع شتى من الأمراض، ويواجه أشخاصًا وظروفًا تختلف فى طبيعتها وعلاجها عن غيرها، وإذا كان الأمر كذلك فإن من الواجب على الداعية أن يتخير من الموعظة ما يناسب الزمان والمكان والحال، لأن البلاغة ـ كما قيل ـ رعاية مقتضى الحال.

وعن وهب بن منبه قال: «ينبغى للعالم أن يكون بمنزلة الطباخ الحاذق يعمل لكل قوم ما يشتهون من الطعام، وكذلكَ ينبغى للعالمِ أن يحدّث كل قوم بما تحتمله قلوبهم وعقولهم من العلم»(١).

ويستأنس لهذا بما فعله الإمام البخارى ـ رضى الله عنه ـ فى صحيحه حيث ترجم أبواب كتاب العلم بقوله: «باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية ألا يفهموا»(٢).

فإذا خالف الداعية هذا الترتيب فتحدث ـ مثلاً ـ فى مناسبات الزواج عن الطلاق، وخاطب المنصرفين عن الدنيا بالآيات والأحاديث التى تزهّد فيها، وناقش الملاحدة بلسان العاطفيين، إذا فعل الداعية ذلك فقد أضرَّ بنفسه ودعوته، وحكم على نصيحته بالرفض والإعراض من كل من سمعها.

ثالثا: القسم الذى يفيد الداعية فى أداء رسالته على وجه أكمل، وصورة أتم:

(١) تحرى أوقات النشاط للمدعوين، والعمل على استجماع همتهم:

يقول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: «إن للقلوب شهوة وإقبالاً، وإن للقلوب فترة وإدبارًا، فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها، ودعوها عند فترتها وإدبارها»(٣).

ويقول الحسن البصرى: «حدِّث القوم ما أقبلوا عليك بوجوههم، فإذا التفتوا فاعلم أن لهم حاجات»(٤).

ولا شك أن مراعاة الداعية لأوقات النشاط والحضور عند الناس يجعل للموعظة تأثيرًا فى نفوسهم، ورغبة فى المزيد منها، بعكس ما لو أُهمل هذا الأمر، فإن العظة ـ حينئذ ـ تكون ثقيلة على نفوسهم، مما يفوّت عليهم فرصة الانتفاع بها.

---

(١) الجامع لأخلاق الراوى، وآداب السامع (جـ٢ ـ ص١١٠).

(٢) صحيح البخارى (جـ١ ـ ص٣٧).

(٣) صفة الصفوة (جـ١ ـ ص٤١٦).

(٤) سنن الدارمى (جـ١ ـ ص١١٩) بتصرف يسير.

ويُستأنس لهذا المعنى بما ورد عن أبى وائل قال: «كان عبد الله - يعنى ابن مسعود - يذكِّرُ الناس فى كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن: لوددت أنك ذكرتنا كل يوم. قال: أما إنه يمنعنى من ذلك أنى أكره أن أُملَّكم، وإنى أتخوَّلكم[١] بالموعظة، كما كان النبى ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا»[٢].

ولكى يستجمع الداعية همَّة الحاضرين معه، ويضمن عدم شرودهم منه فإن عليه طرح الأسئلة عليهم، وسماع الجواب منهم، ليثرى جلسته بمشاركتهم فيها، فإن أصابوا أثنى عليهم، وإن أخطأوا لم يعدموا فائدة التكرار والتوضيح منه.

يقول الإمام النووى: «وينبغى للمعلم أن يطرح على أصحابه ما يراه من مستفاد المسائل، ويختبر بذلك أفهامهم، ويظهر فضل الفاضل ويثنى عليه بذلك، ترغيبًا له وللباقين فى الاشتغال والفكر فى العلم وليتدربوا بذلك ويعتادوه، ولا يعنف من غلط منهم فى كل ذلك، إلا أن يرى تعنيفه مصلحة له، فإن أُشكِل عليهم منه شىءٌ ما عاودوا الشيخ فى إيضاحه»[٣].

ويُستأنس لهذه المعانى بما كان يفعله رسول الله ﷺ مع أصحابه، حيث كان يطرح عليهم الكثير من الأسئلة، ويصوِّب لهم ما قد يخطئون فيه.

وذلك كقوله ﷺ لأصحابه: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فأخبرونى ما هى؟»[٤]. وقوله لمعاذ بن جبل: «يا معاذ: أتدرى ما حق الله على العباد؟.. إلخ»[٥]. وغير ذلك من الأحاديث الثابتة فى كتب السنة الصحاح.

---

(١) أتخولكم: أتعهدكم، من قولهم: فلان خائل مال، وهو الذى يصلحه ويقوم به .. كذا فى النهاية (جـ٢ - ص٨٨) مادة: خول.

(٢) أخرجه البخارى (جـ١ - ص٢٤) كتاب العلم - باب من جعل لأهل العلم أيامًا معلومة، وأخرجه مسلم (جـ٤ - ص٢١٧٣) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - باب الاقتصاد فى الموعظة، وأخرجه أحمد (جـ١ - ص٤٢٧).

(٣) المجموع شرح المهذب (جـ١ - ص٦٣).

(٤) ذكر الحديث بتمامه الإمام البخارى (جـ١ - ص٢١) كتاب العلم - باب قول المحدث حدثنا أو أخبرنا أو أنبانا، وكذلك فى نفس الكتاب - باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم، وذكره أيضًا الإمام مسلم (جـ٤ - ص٢١٦٤) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - باب مثل المؤمن مثل النخلة، وذكره الإمام أحمد (جـ٢ - ص٦١).

(٥) الحديث ذكره الإمام البخارى بتمامه (جـ٤ - ص٢٧٣) كتاب التوحيد - باب ما جاء فى دعاء =

(٢) مراعاة آداب درس العلم:

وضع العلماء جملة من الآداب تتعلق بالداعية فى درسه، منها ما يتعلق بهيئته، ومنها ما يتعلق بالطريقة المثلى لإلقاء حديثه، وغير ذلك من الآداب، والتى نجملها فيما يلى:

(١) أن يرتدى من الثياب أحسنها، وأن يتطهر من الأحداث والأنجاس، قاصدًا بذلك تعظيم العلم وتوقيره.

روى أن الإمام مالكًا ـ رضى الله عنه ـ كان إذا جاءه الناس لطلب الحديث اغتسل وتطيب، ولبس ثيابًا جددًا، ووضع رداءه على رأسه، ثم يجلس على منصةٍ، ولا يزال يبخر بالعود حتى يفرغ، وقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ[١].

(٢) أن يراعى التوسط فى الصوت أثناء الحديث بحيث يُسْمع الحاضرين، ولا يشوش على من سواهم.

وليكن حديثه على مهل، ولا يسرده سردًا ليتدبره هو ومن سمعه.

فعن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: «إن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم»[٢].

وفى رواية أخرى عنها أيضًا قالت: «كان كلام رسول الله ﷺ كلامًا فصْلاً يفهمه كل من سمعه»[٣].

= النبى ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، وذكره مسلم (جـ١ ـ ص٥٨) كتاب الإيمان ـ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا، وذكره الترمذى (ج ٥ ـ ص٢٥) كتاب الإيمان ـ باب ما جاء فى افتراق هذه الأمة، وذكره ابن ماجه (جـ٢ ـ ص١٤٣٥) كتاب الزهد ـ باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة، وذكره أحمد (جـ٣ ـ ص٢٦٠).

(١) تذكرة السامع والمتكلم (ص٣١) ابن جماعة.

(٢) أخرجه البخارى (جـ٢ ـ ص٢٧٣) كتاب المناقب ـ باب صفة النبى ﷺ، وأخرجه مسلم (جـ٤ ـ ص١٩٤٠) كتاب فضائل الصحابة ـ باب من فضائل أبى هريرة الدوسى رضى الله عنه، وأخرجه أبو داود (جـ٢ ـ ص٣١٤) كتاب العلم ـ باب فى سرْد الحديث، وأخرجه الترمذى بنحوه (جـ٥ ـ ص٦٠٠) كتاب المناقب ـ باب فى كلام النبى ﷺ، وأخرجه أحمد (جـ٦ ـ ص١١٨).

(٣) أخرجه أبو داود (جـ٢ ـ ص٦١١) كتاب الأدب ـ باب الهدى فى الكلام.

وفى رواية أخرى: «كان يتكلم بكلام بينه فصلٌ يحفظه من جلس إليه»[١].

(٣) وينبغى أن يراعى فى حديثه التوسط والاقتصاد، بحيث لا يكون طويلاً مملاً، أو قصيراً مخلاً، بل يراعى المصلحة فى التطويل وعدمه من جانب، ومدى استعداد الناس من جانب آخر.

يقول الجاحظ: «قليل الموعظة مع نشاط الموعوظ خير من كثير وافق من الأسماع نبوة، ومن القلوب ملالة»[٢].

ويقول الإمام الزهرى: «إذا طال المجلس كان للشيطان فيه نصيب»[٣].

ولئن يحرص الداعية على أن يُبْقى من حديثه شيئًا يعلّق قلوب السامعين بالرغبة فى العودة إليه ثانية على شوق، خير له من أن يُسْمِعهم ما لا رغبة لهم فيه ولا نشاط لهم حياله.

(٤) وينبغى على المعلم أيضًا أن يُتْقِن ما يعلمه لغيره، وألا ينتصب للتعليم فى شىء لا يُحْسِنُه، فإن ذلك يعرضه للمهانة والازدراء.

يقول الشِّبْلى ـ رحمه الله ـ: «من تصدَّر قبل أوانه فقد تصدَّى لهوانه»[٤].

(٥) وينبغى أن لا يُحَقِّر فى نفس المتعلم سائر العلوم التى لا يتعرَّض فى تدريسه لها.

يقول أبو حامد الغزالى: «المتكفل ببعض العلوم ينبغى ألا يقبِّح فى نفس المتعلم العلوم التى وراءه، كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير، وأن ذلك نقل محض وسماع وهو شأن العجائز، ولا نظر للعقل فيه، ومعلِّم الكلام ينفِّر عن الفقه ويقول: ذلك فروع وهو كلام فى حيض النسوان، فأين ذلك من الكلام فى صفة الرحمن، فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغى أن تُجْتَنب، بل المتكفل بعلم واحد ينبغى أن يوسع على المتعلم

---

(١) أخرجه الترمذى (جـ٥ ـ ص٦٠٠) كتاب المناقب ـ باب فى كلام النبى ﷺ، وأخرجه أحمد بنحوه (جـ٦ ـ ص٢٥٧).

(٢) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع (جـ٢ ـ ص١٢٨).

(٣) نفس المرجع والصفحة.

(٤) تذكرة السامع والمتكلم (ص٤٥).

طريق التعلم فى غيره، وإن كان متكفلا بعلوم فينبغى أن يراعى التدريج فى ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة»[١].

(٦) ومن الأمانة إذا حدَّث بشىء أن ينسب كل قول لقائله اعترافًا بالفضل لأصحابه، وحتى لا يتوهم السامعون أن ذلك محض اجتهاد من قائله.

يقول القاسم بن سلام: «إن من شكر العلم أن تجلس مع الرجل فتذاكره بشىء لا تعرفه، فيذكر لك الحرف عند ذلك، فتذكر ذلك الحرف الذى سمعته من ذلك الرجل فتقول: ما كان عندى فى هذا شىء حتى سمعت فلانا يقول فيه كذا وكذا. فإذا فعلت ذلك فقد شكرت العلم، ولا توهمهم أنك قلت هذا من نفسك»[٢].

(٧) وأخيرًا فإن من الواجب مراعاة أدب المجلس فى بدايته ونهايته من جهة افتتاحه بالحمد والثناء على الله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وكذلك قراءة شىء من القرآن، فإذا أراد أن يقوم دعا بدعاء الختم قائلاً: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك».

(٣) عناية الداعية بأحوال تلامذته:

من الأمور التى تحقق النجاح للداعية أن يتفقد تلاميذه، فيسأل عن غائبهم، ويعود مريضهم، ويعين محتاجهم حسب الإمكانات المتيسرة له.

يقول الحافظ الخطيب البغدادى: «وخدمة الفقيه أصحابه بنفسه مما يصفِّى منهم المودة، ويلقى فى قلوبهم المحبة»[٣].

وقيل لرجل: «بم سدت قومك؟ قال: ما سدتُهم حتى صرت عبدًا لهم»[٤].

وليكن قدوة الداعية فى ذلك رسول الله الذى كان يقول لأصحابه: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم»[٥].

---

(١) إحياء علوم الدين (جـ١ ـ ص٩٦).

(٢) الجامع لأخلاق الراوى، وآداب السامع (جـ٢ ـ ص١٥٤).

(٣، ٤) تقريب كتاب الفقيه والمتفقه (ص٢٨١).

(٥) أخرجه أبو داود (جـ١ ـ ص١١) كتاب الطهارة ـ باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة، وأخرجه النسائى بنحوه (جـ١ ـ ص٣٥) كتاب الطهارة ـ باب النهى عن الاستطابة بالروث، وأخرجه ابن ماجه (جـ١ ـ ص١١٤) كتاب الطهارة ـ باب الاستنجاء بالحجارة، والنهى عن الروث والرمة، وأخرجه أحمد (جـ٢ ـ ص ٢٥).

وعلى سبيل التمثيل لعناية الدعاة الأوائل بأحوال تلامذتهم أسوق إليك ـ أخى الداعية ـ هذا المثال:

عن ابن أبى وداعة قال: «كنت أجالس سعيد بن المسيب ففقدنى أيامًا، فلما جئته قال: أين كنت؟ قلت: توفيت أهلى فاشتغلت بها. فقال: ألا أخبرتنا فشهدناها؟ قال: ثم أردت أن أقوم فقال: هل استحدثت امرأة؟ فقلت: يرحمك الله ومن يزوجنى وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟ فقال: أنا. فقلت: أو تفعل؟ قال: نعم. ثم حمد الله تعالى وصلى على النبى ﷺ وزوّجنى على درهمين، أو قال: ثلاثة. قال: فقمت وما أدرى ما أصنع من الفرح، فصرت إلى منزلى وجعلت أتفكر ممن آخذ، وممن أستدين؟ فصليت المغرب، وانصرفت إلى منزلى، واسترحت، وكنت وحدى صائمًا، فقدمت عشائى لأفطر، وكان خبزًا وزيتًا، فإذا بآت يقرع، فقلت: من هذا؟ قال: سعيد. قال: ففكرت فى كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب، فإنه لم يُر منذ أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد، فقمت فخرجت فإذا سعيد بن المسيب، فظننت أنه قد بدا له، فقلت: يا أبا محمد: ألا أرسلت إلىَّ فآتيك؟ قال: لأنت أحق أن تُؤتى. قال: قلت فما تأمر؟ قال: إنك كنت رجلاً عزبًا فتزوّجت فكرهتُ أن تبيت الليلة وحدك، وهذه امرأتك، فإذا هى قائمة مِنْ خَلْفه فى طوله، ثم أخذها بيدها فدفعها بالباب وردَّ الباب، فسقطت المرأة من الحياء. إلى أن قال: «فإذا هى من أجمل الناس، وإذا هى أحفظ الناس لكتاب الله وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ، وأعرفهم بحق الزوج. وكانت بنت سعيد هذه قد خطبها عبد الملك بن مروان لابنه الوليد بن عبد الملك حين ولاه العهد، فأبى سعيد أن يزوجه»[1].

• أخى الداعية:

ويطول الكلام فى هذا المجال الحسَّاس من مجالات الدعوة، ولكنى خشية الإطالة أكثر من اللازم أكتفى بما ذكرت من التوجيهات، سائلاً الله تعالى أن يجعلنا من الدالين على الخير، والداعين إليه على بصيرة، إنه نعم المولى ونعم النصير.

* * *

(١) حلية الأولياء (جـ٢ ـ ص١٦٧: ١٦٨) بتصرف يسير ـ أبو نعيم الأصبهانى.

٢. الشجاعة

يتحرك الداعية فى هذه الحياة وهو على يقين بأن دعوة الإسلام حق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وأن سائر المبادئ المقطوعة الصلة بالله باطل لا ريب فيه.

ويترتب على هذه الحقيقة المركوزة فى نفس كل داعية مسلم أن الحق يجب أن يسود، وأن الباطل يجب أن يموت، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[1]، وقوله عز من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[2].

ولكى يحقق الدعاة هذا الهدف العظيم فإن من الواجب أن يفوق تحمسهم للحق ودعوة الآخرين له تحمس أهل الباطل لباطلهم، والتفافهم حول رايته.

ولا يتأتى هذا الأمر للدعاة ما لم يكونوا موصوفين بالشجاعة والجرأة فى مواجهة الصعاب - التى ولابد ستعترضهم - وألا تأخذهم فى الله لومة لائم، حتى تجد كلمة الحق طريقها إلى الجميع.

من أجل ذلك كانت الشجاعة صفة أساسية من صفات الداعية، وخلقًا لا ينفك عنه وهو يقوم برسالته فى هذه الحياة.

• أهمية الشجاعة فى سلوك الدعاة، وأمثلة عليها من حياتهم:

تتضح أهمية الشجاعة فى سلوك الدعاة من خلال ملاحظة ما يلى:

(١) أن أعباء الدعوة ومسئولياتها عظيمة جليلة، ومن ثمَّ لا يستطيعها المهازيل.

يقول فضيلة الشيخ محمد الغزالى: «الدعاة الموظفون لحراسة الإسلام هم جيش للدفاع عن الإيمان، يشبه الجيش الموكل بحراسة الأمن.. فإذا لم يكن الداعية المسلم شجاعًا، مطيقًا لأعباء رسالته، سريعًا إلى تلبية ندائها، جريئًا على

(١) سورة الأنفال (٣٩).

(٢) سورة التوبة (٣٣) وسورة الصف (٩).

المبطلين، مغواراً فى ساحاتهم، فخير له أن ينسحب من هذا المجال، وألاَّ يفضح الإسلام بتكلف ما لا يحسن من شئونه[١].

من أجل ذلك رأينا سيد الدعاة ﷺ يربِّى أصحابه على هذا المنهج؛ منهج الدعوة إلى الإسلام مع الاتصاف بالثبات ورباطة الجأش.

فعن عبادة بن الصامت ـ رضى الله عنه ـ قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى المنشط والمكره، وألاَّ ننازع الأمر أهله، وأن نقوم ـ أو نقول ـ بالحق حيثما كنَّا، لا نخاف فى الله لومة لائم»[٢].

والشاهد فى الحديث أن النبى ﷺ لم يكتف فى توجيهه بالإشارة إلى القيام بالحق أو القول به وفقط، وإنما أضاف ضرورة الجمع بين هذا وبين التمسك بالحق فى مواجهة اللائمين والمثبطين.

(٢) أن الشجاعة تلازم الصدق، فبقدْر ما يكون الداعية صادقًا يكون شجاعًا.

فإن استعاض الداعية عن الشجاعة والجرأة بالمداهنة والتملق للآخرين، دلَّ ذلك على قلة صدقه أو عدمه، وبالتالى قلة الفائدة منه.

عن سهل بن عبد الله التسترى قال: «لا يشم رائحة الصدق عبدٌ داهَنَ نفسه أو غيره»[٣].

ويقول فضيلة الشيخ محمد الغزالى: «هناك رجال يبنون وجاهتهم فى المجتمع العام على الارتباط بتقاليده كلها أو جلِّها، فلو نشأوا فى بلدٍ يعبد الأصنام لحسبوا من متممات كرامتهم الخاصة أن يسارعوا إلى تقديم القرابين لها.

وهذا الصنف من الناس سدنة كل عُرْفٍ شائع، أو قانون قائم، فهم يحترمون

---

(١) مع الله ـ دراسات فى الدعوة والدعاة (ص٢١١).

(٢) أخرجه البخارى (جـ٤ ـ ص٢٤٥) كتاب الأحكام ـ باب كيف يبايع الإمام الناس، وأخرجه مسلم بنحوه (جـ٣ ص١٤٧٠) كتاب الإمارة ـ باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية، وتحريمها فى المعصية، وأخرجه النسائى (جـ٤ ـ ص١٢٤) كتاب البيعة ـ باب البيعة على السمع والطاعة، وأخرجه ابن ماجه (جـ٢ ـ ص٩٥٧) كتاب الجهاد ـ باب البيعة، وأخرجه أحمد (جـ٥ ـ ص٣١٤).

(٣) المجموع شرح المهذب (جـ١ ـ ص٣٧).

الأوضاع المقررة من قبل، لأنها مقررة من قبل فحسب.

وهؤلاء لا يصلحون للسير فى موكب الإصلاح أبدًا، بل هم عقبات كل إصلاح»[١].

من أجل هذا ـ وغيره ـ أكدت السنة النبوية على ضرورة اتصاف المرء المسلم بالشجاعة فى قول الحق، ففى الحديث عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قام خطيبًا فكان فيما قال: «ألا لا يمنعن رجلاً هيبةُ الناس أن يقول بحق إذا علمه»[٢].

وفى رواية أخرى عن أبى سعيد أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحقر أحدكم نفسه. قالوا: يا رسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: يرى أمرًا، لله عليه فيه مقال ثم لا يقول فيه. فيقول الله عز وجل له يوم القيامة: ما منعك أن تقول فىَّ كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس. فيقول: فإياى كنتَ أحق أن تخشى»[٣].

وتدل كلمات سلف الأمة الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ أن العبد الذى تحمله هيبة الناس على كتمان الحق لينال عندهم حظوة يُجازى بعكس مقصوده فتنزع هيبة الله منه.

يقول عبد الله بن عبد العزيز العمرى: «من ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من مخافة المخلوقين نُزِعَتْ منه هيبة الله تعالى، فلو أمر بعض ولده أو بعض مواليه لاستخفَّ به»[٤].

من هنا حرص الدعاة إلى الله تعالى على خُلُق الشجاعة، ومواجهة الباطل دون تخاذل أو تراجع.

---

(١) فى موكب الدعوة (ص٦) بتصرف يسير ـ طبعة رابعة سنة ١٩٦٥ ـ دار الكتب الحديثة.

(٢) أخرجه ابن ماجه، واللفظ له (جـ٢ ـ ص١٣٢٨) كتاب الفتن ـ باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأخرجه الترمذى ضمن حديث طويل، وقال عنه: حديث حسن صحيح (جـ٤ ـ ص٤٨٣) كتاب الفتن ـ باب ما جاء فيما أخبر النبى ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة، وأخرجه أحمد (جـ٣ ـ ص١).

(٣) أخرجه ابن ماجه (جـ٢ ـ ص١٣٢٨) كتاب الفتن ـ باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وقال عنه البوصيرى فى الزوائد: إسناده صحيح، ورجاله ثقات، وأخرجه أحمد (جـ٣ ـ ص٣٠).

(٤) صفة الصفوة (جـ٢ ـ ص١٨١).

ودفعهم إلى هذا الخلق النبيل شيئان لا غنى لأىِّ داعية صادق عنهما، وهما:

(١) إيثار ما عند الله تعالى، والعمل على تحقيق رضاه، والدعوة إلى دينه، وتفضيل ذلك كله على عطاءات المخلوقين وهباتهم، باعتبار أن النافع الضارَّ، والمعز المذل هو الله تبارك وتعالى.

(٢) الرضا بما قسم الله من الرزق ـ قليلاً أو كثيراً ـ دون تطلع إلى شهوات التنعم، أو طمع فى الارتقاء ولو على حساب الحق.

يقول فضيلة الشيخ محمد الغزالى: «كم من داعٍ يبصر الحق، ويقدر على التذكير به، ولكنه يُحتَبَسُ فى حلقه فلا يسمع به أحد.

لماذا؟ لأنه لو نطق لحرم من هذا النفع، أو لغضب عليه هذا الرئيس، أو لفاته هذا الحظ.. فهو ـ إيثاراً لمتاع الدنيا ـ يلزم الصمت، ويظلم اليقين.

ولو كان عفيف النفس، راضيًا بما تيسر من عيش، مكتفيًا بالقليل مع أداء الواجب عن الكثير مع تضييعه لكان له موقف آخر»[١].

وحتى يتضح المقال بالمثال، ويتأيَّد الكلام المجرد بشواهد الواقع أسوق إليك ـ أخى الداعية ـ هذه الأمثلة:

(١) تمتلئ حياة النبى ﷺ بالكثير من المواقف الدالة على الشجاعة والجرأة فى الحق، وعدم المداهنة للباطل حتى صارت أمنية الكافرين أن يلين لهم جانب النبى ﷺ ويسايرهم فيما هم فيه، وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿**وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ**﴾[٢].

وواضح من نصِّ الآية أن ذلك كان أمنية لهم، لكن الرسول ﷺ لم يُنِلْهم إياها.

ومن مواقفه ﷺ الشجاعة فى الحق، وعدم التفريط فى دعوته ورسالته هذا الموقف:

أورد ابن هشام فى السيرة: أن قريشًا لما أهمَّهم أمر النبى ﷺ ذهبوا إلى عمه

(١) مع الله ـ دراسات فى الدعوة والدعاة (ص٢١٥).

(٢) سورة القلم (٩).

أبى طالب ذات يوم وقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سنًا وشرفًا ومنزلةً فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا عنه.

وحينئذ بعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ وقال له: يا ابن أخى: إن قومك قد جاءوا فقالوا لى كذا وكذا، فأبق علىَّ وعلى نفسك ولا تحمّلنى من الأمر ما لا أطيق.

وحينئذ نطق النبى ﷺ بعبارته المشهورة «يا عمِّ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»[1].

وحفظ هذا الموقف الشجاع من رسول الله ﷺ - وغيره من المواقف - دعوة الإسلام من أن تتقاذفها الأهواء، حتى أتم الله نعمته، وأكمل دينه، وعمَّ خيره على العالمين.

(٢) ومن الأمثلة الدالة على شجاعة الدعاة أيضًا، وخوفهم من الله دون سواه ما كان من أمر الداعية الفقيه سعيد بن جبير مع الطاغية الحجاج بن يوسف الثقفى.

ويتلخص هذا الموقف فيما يلى:

عندما صمم الحجاج على قتل سعيد بن جبير - مثلما حدث مع كثيرين غيره - أرسل جنودًا فجاءوا به، وأدخلوه عليه، ودار بينهما الحوار التالى:

قال الحجاج: ما اسمك؟.

ردّ عليه سعيد قائلاً: سعيد بن جبير.

قال الحجاج: بل أنت شقى بن كُسَيْر.

قال سعيد: بل كانت أمى أعلم باسمى منك.

قال الحجاج: شقيت أنت وشقيت أمك.

قال سعيد: الغيب يعلمه غيرك.

---

(١) سيرة ابن هشام (جـ١ - ص٢٦٨) بتصرف يسير - طبعة مكتبة التوفيقية - بدون تاريخ.

قال الحجاج: لأبدلنك بالدنيا نارًا تلظى.

قال سعيد: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهًا.

قال الحجاج: فما بالك لم تضحك؟

قال سعيد: وكيف يضحك مخلوق خلق من الطين، والطين تأكله النار.

قال الحجاج: فما بالنا نضحك؟.

قال سعيد: لم تستوِ القلوب.

وفكر الحجاج فى أن يستميل قلب سعيد بن جبير بالمغريات والماديات، فأمر باللؤلؤ والزبرجد والياقوت فجمعه بين يدى سعيد بن جبير.

فقال له سعيد: إن كنت جمعت هذا لتفتدى به من فزع يوم القيامة فقد أخطأت، وإلاَّ ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت، ولا خير فى شىء جمع للدنيا إلاَّ ما طاب وزكا.

ثم دعا الحجاج بالعود والناى، فلما ضُرِبَ بالعود، ونُفخ فى الناى بكى سعيد ابن جبير.

فقال له الحجاج: ما يبكيك؟ أهو اللهو؟

قال سعيد: بل هو الحزن، أما النفخ فقد ذكرنى يومًا عظيمًا، يوم ينفخ فى الصور، وأما العود فشجرة قطعت فى غير حق، وأما الأوتار فإنها أمعاء الشياه يبعث بها معك يوم القيامة.

فقال الحجاج: ويلك يا سعيد.

فقال سعيد: الويل لمن زحزح عن الجنة وأُدخِلَ النار.

فقال الحجاج: اختر يا سعيد أى قتلة تريد أن أقتلك؟.

فقال سعيد: اختر لنفسك يا حجاج، فوالله ما تقتلنى قتلة إلاَّ قتلك الله مثلها فى الآخرة.

قال: أفتريد أن أعفو عنك؟.

قال: إن كان العفو فمن الله، وأمّا أنت فلا براءة لك ولا عذر.

قال الحجاج: اذهبوا به فاقتلوه. فلما خرج من الباب ضحك، فأُخبِرَ الحجاج بذلك فأمر برده.

فقال: ما أضحكك؟.

قال سعيد: عجبت من جرأتك على الله، وحلم الله عنك.

قال الحجاج: اقتلوه.

فقال سعيد: وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين.

قال الحجاج: شدوا به لغير القبلة.

قال سعيد: فأينما تولوا فثم وجه الله.

قال الحجاج: كبوه لوجهه.

قال سعيد: منها خلقناكم، وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى.

قال الحجاج: اذبحوه.

قال سعيد: أما إنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله. خذها منى حتى تلقانى يوم القيامة.

ثم توجه سعيد بن جبير بالدعاء إلى الله قائلاً: «اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدى».

وقُتل سعيد بن جبير رحمه الله، وعاش الحجاج بعده خمس عشرة ليلة يعانى من المرض ثم مات، وكان ينادى بقية حياته قائلاً: «ما لى ولسعيد بن جبير، كلما أردت النوم أخذ برجلى»[1].

(٣) ولمزيد التأكيد على أهمية هذه الصفة فى حياة الدعاة وعنايتهم بها أسوق إليك ـ أخى الداعية ـ هذا المثل من حياة الإمام الأوزاعى رضى الله عنه.

لما دخل عبد الله بن على ـ عمُّ السفاح الذى أجلى بنى أمية عن الشام ـ دمشق طلب الأوزاعى، فتغيب عنه ثلاثة أيام ثم حضر بين يديه.

---

(١) حلية الأولياء (جـ٤ ـ ص٢٩٣: ٢٩٤) بتصرف.

قال الأوزاعى: دخلت عليه وهو على سرير وفى يده خيزرانة، وحوله الحرَّاس عن يمينه وشماله معهم السيوف مصلتة، فسلمت عليه فلم يرد، ونكت بتلك الخيزرانة التى فى يده، ثم قال: يا أوزاعى: ما ترى فيما صنعنا من إزالة أيدى أولئك الظلمة عن العباد والبلاد؛ أجهادًا أو رباطًا هو؟

قال الأوزاعى: فقلت: أيها الأمير: يقول رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى. . .إلخ».

قال: فنكت بالخيزرانة أشد مما كان ينكت، وجعل من حوله يقبضون أيديهم على قبضات سيوفهم، ثم قال: يا أوزاعى: ما تقول فى دماء بنى أمية؟.

قال الأوزاعى: فقلت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلاَّ بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزانى، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

قال: فنكت بها أشد من ذلك، ثم قال: ما تقول فى أموالهم؟.

قال الأوزاعى: إن كانت فى أيديهم حرامًا فهى حرام عليك أيضًا، وإن كانت لهم حلالاً فلا تحل لك إلاَّ بطريق شرعى.

قال: فنكت أشد مما كان ينكت قبل ذلك، ثم قال: ألا نوليك القضاء؟.

قال الأوزاعى: إن أسلافك لم يكونوا يشقون علىَّ فى ذلك، وإنى أحب أن يتم ما ابتدءونى به من الإحسان.

فقال الأمير: كأنك تحب الانصراف؟.

قال الأوزاعى: إن ورائى حرمًا وهم محتاجون إلى القيام عليهن وسترهن، وقلوبهن مشغولة بسببى. . قال: وانتظرت رأسى أن يسقط بين يدى، فأمرنى بالانصراف.

فلما خرجت إذا برسوله من ورائى، وإذا معه مائتا دينار، فقال: يقول لك الأمير: استنفق هذه.

قال الأوزاعى: فتصدقت بها، وإنما أخذتها خوفًا»[1]. اهـ.

---

(١) البداية والنهاية (جـ١٠ ـ ص١١٨) بتصرف.

ويطول الكلام ـ أخى الداعية ـ فى ذكر الأمثلة الدالة على شجاعة الدعاة إلى الله تعالى، وإعلانهم الحق دون أن يخافوا فى الله لومة لائم، ففيما ذكرت كفاية فى الدلالة على المطلوب، سائلاً الله تعالى أن يؤيدنا بالحق ويؤيد الحق بنا.

• توجيهات للداعية فى هذا المجال:

لا يخلو هذا المجال ـ كسابقه ـ من ضرورة وضع ضوابط يستنير بها الداعية لتحقيق المصلحة بدلاً من المفسدة، والمنفعة بدلاً من المضرة، ونلخص هذه الضوابط فيما يلى:

١ ـ أن الشجاعة لا تعنى السب والشتم والإيذاء، فهذه أمور يرقى الداعية بمستواه عن الاتصاف بها، عملاً بقوله تعالى: ﴿**وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ**﴾[١]. وقوله ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذىء»[٢].

ولا يتعارض هذا مع ما ثبت عن رسول الله ﷺ من الدعاء باللعن على أصحاب بعض الأوصاف، كلعنه ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، والمخنثين من الرجال، والمترجلات من النساء، والواصلة والمستوصلة.. إلخ، فإن هذا وأمثاله ينصبُّ على أوصاف لا أشخاص.

وفقه الدعوة يجيز لصاحبه أن يلوم ويعيب أصحاب السلوك المعوج بالتوجيه العام الذى يشملهم ويشمل غيرهم، مثلما كان يفعل النبى ﷺ حينما كان يرى سلوكًا معيبًا، فكان يقول: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا..».

٢ ـ أن الشجاعة لا تعنى الغلظة والقسوة، فالشجاعة أن تقول الحق ولو كان مُرًّا مع مراعاة سائر الآداب المطلوبة فى الدعوة من كونها بالحكمة والموعظة الحسنة، فى حين أن الغلظة تعنى أن توجه من تريد توجيهه بالجفاء والفظاظة والشدة، مما يحمل المدعو على مزيد من العناد والإنكار وصدق الله إذ يقول:

---

(١) سورة الإسراء (٥٣).

(٢) أخرجه الترمذى وحسنه (جـ٤ ـ ص٣٥٠) كتاب البر والصلة ـ باب ما جاء فى اللعنة، وأخرجه أحمد (جـ١ ـ ص٤١٦).

﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾[١].

فإذا استلزمت بعض المواقف من الداعية أن يشتد على من يدعوه ـ لعلمه أن المصلحة فى ذلك ـ فينبغى مراعاة أن ذلك لا يصلح فى جميع الأوقات، ولا ينفع مع كل الناس، وكذلك ينبغى ألاَّ يتجاوز الداعية حدود الحكمة حتى لا ينهى عن منكر فيقع فيما هو أشد، ويؤدى ذلك إلى حدوث فتنة.

٣ ـ أن الشجاعة لا تعنى التَّهوُّر، فالشجاعة أن تكون صلبًا فى المواقف التى تستأهل، وأن تكون مستعدًا للتضحية فيما هو نافع، وأما التهور فهو الاستعداد للتضحية بلا ضرورة أو منفعة.

وفقنا الله تعالى لأن تتجمل دعوتنا بخلق الشجاعة، فلا مداهنة، ولا نفاق، ولا رياء، وإنما سير على منهاج الصالحين من أنبياء الله ورسله والتابعين لهم بإحسان، والذين زكَّاهم الله بقوله: ﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلاَّ الله وكفى بالله حسيبا﴾[٢].

* * *

(١) سورة آل عمران (١٥٩).

(٢) سورة الأحزاب (٣٩).

٣. الصبر والتضحية

تحتاج أى قضية من القضايا أو مبدأ من المبادئ ـ للحصول على ثمرة مرجوّة فيه ـ أن يصبر صاحبه عليه، ويتحمل فى سبيله المشاق، فلا يتصور غُنْمٌ لا غرم معه.

والدعوة إلى الله تعالى ـ كأى قضية من القضايا ـ تحتاج من أصحابها إلى البذل والتضحية، والصبر على ملاقاة المكاره فى سبيلها، وإلاّ صار الداعى كمن يحرث فى ماء، أو ينفخ فى هواء.

من أجل هذا كان اتّصاف الداعية فى سلوكه بالصبر على ملاقاة الصعاب، والاستعداد للتضحية أمرًا لا مناص منه لكل من أراد التوفيق والسداد فى دعوته إلى الله.

• أهمية هذه الصفة فى حياة الدعاة، وأمثلة عليها من حياتهم:

ترجع أهمية هذه الصفة فى حياة الدعاة إلى عدة عوامل نلخصها فيما يلى:

١ ـ أن الناس تأنس بالدعاة وترى فيهم الإنقاذ والخلاص من كثير مما ينوبهم، ولذا يلجأون إليهم سائلين، ويفصحون لهم عن دواخلهم شاكين، على أمل أن يجدوا لديهم ما يزيل همومهم، ويعيد الطمأنينة إلى نفوسهم.

ويستلزم ذلك أن يكثر المترددون على بيت الداعية، والمقتحمون عليه أوقات راحته، وكل من هؤلاء يرى أن حاجته أهم شىء فى الكون، وأن على الداعية أن يصغى له وينصت ولو على حساب الآخرين.

وإزاء هذا لابد للداعية من التحلّى بالصبر، والتجمّل بطول البال حتى تؤتى الدعوة ثمرتها، وتحقق رسالتها.

٢ ـ أن الداعية سيواجه جيوشًا جرّارة من أصحاب العقائد الباطلة تتفانى فى سبيل إقرارها ودعوة الناس إليها، وتبذل فى سبيل ذلك المليارات فى كل يوم.

فإذا طمع الداعية فى التغلب على أولئك المفسدين من غير بذل من ماله ووقته وجهده فقد أعرب عن فشله، وذهبت جهوده سدى.

يقول الدكتور يحيى إسماعيل فى كتابه «فى موكب الصبر وصحبة الصابرين»(١) «الذى يحمل هدى الله للدنيا وما فيها ما لم يكن له حظ من الصبر يفوق حظ المتربصين به المعاندين له كان عمله فى الناس شبيهًا بالمصل الضعيف أمام الجراثيم المدمرة، لا يلبث أمامها طويلاً حتى تأتى عليه». اهـ.

ومن الضرورى أيضًا ألاَّ تعجب جهود الدعاة أصحاب هذه العقائد الباطلة أو من يتأثر بهم، فتبدأ المضايقات والمناوشات للدعاة، مما يترتب عليه تعرضهم للأذى أحيانًا، وملاقاتهم للمكاره فى سبيل إحقاق الحق.

ويستلزم هذا من الداعية أن يوطن نفسه على تحمل مثل هذه المكاره، والتى أشار القرآن الكريم إلى أنها قرينة التمسك بالحق والدعوة إليه، فقال تعالى على لسان لقمان الحكيم: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾(٢).

يقول الإمام ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية: «عَلِمَ أن الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر لابد أن يناله من الناس أذى فأمره بالصبر»(٣).

وقال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(٤).

والشاهد فى الآية الكريمة أن الله تعالى قد أكد على وقوع الأذى بالمؤمنين بقوله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ...﴾ فأدخل على الجملة لام التوكيد ونونه، واستدعى ذلك أن يدعوهم فى عقب هذا الخبر إلى التحلى بالصبر، والتخلى عن الجزع.

من أجل هذا - وغيره - ورد الأمر بالصبر، وبيان ما أعده الله للصابرين فى كثير من آيات القرآن الكريم، وأحاديث النبى الأمين ﷺ، وكلمات الأئمة، مما لا يتسع المجال لذكره كله، ومن ثَمَّ نكتفى بالإشارة إلى بعضها.

ففى بيان الثواب المُعَدّ للصابرين عند الله تعالى يقول الله فى كتابه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى

(١) المرجع المذكور (ص٢٩) - دار التوزيع والنشر الإسلامية - عدد رقم ٥ من سلسلة نحو النور.

(٢) سورة لقمان (١٧).

(٣) تفسير ابن كثير (جـ٣ - ص٤٤٦).

(٤) سورة آل عمران (١٨٦).

الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١].

وفى بيان منزلة الصبر بين سائر خصال الإيمان يقول النبى ﷺ: «ما أُعطِى أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»[٢].

ويقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا خير فى جسد لا رأس له»[٣].

وحتى يتضح المقال بالمثال أسوق إليك - أخى الداعية - هذه الأمثلة التى تدل على الابتلاء والتمحيص للدعاة إلى الله على مدى التاريخ الإنسانى.

١ - ونبدأ ذلك بالحديث عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم:

(أ) فقد تعرَّضَ بعضهم للقتل بأيدى الظلمة والعتاة، وسجَّل ذلك ربنا فى كتابه فقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾[٤]. وفى أثر عن ابن مسعود - رضى الله عنه - تأكيداً على هذا المعنى يقول: «قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبى من أول النهار، وأقاموا سوق بقلهم من آخره»[٥].

(ب) كذلك تعرض الأنبياء للأذى المادى مما هو دون القتل، فألقى الخليل - عليه السلام - فى النار، ورُمى نوح - عليه السلام - بالضلالة، وهود - عليه السلام - بالسفاهة، وأدميت عقب الحبيب المصطفى ﷺ من آثار الضرب حال عودته من الطائف، ولم يتمكن من دخول بلده حينئذ إلاَّ فى جوار المطعم بن عدى أحد المشركين.

---

(١) سورة الزمر (١٠).

(٢) أخرجه البخارى (جـ١ - ص٢٥٧) كتاب الزكاة - باب الاستعفاف عن المسألة، وأخرجه مسلم (جـ٢ - ص٧٢٩) كتاب الزكاة - باب فضل التعفف والصبر، وأخرجه أبو داود (جـ١ - ص٤١٧) كتاب الزكاة - باب فى الاستعفاف، وأخرجه الترمذى (جـ٤ - ص٣٧٤) كتاب البر والصلة - باب ما جاء فى الصبر، وأخرجه النسائى (جـ٥ - ص٧١) كتاب الزكاة - باب الاستعفاف عن المسألة، وأخرجه أحمد (جـ٣ - ص٩٣).

(٣) صفة الصفوة (جـ١ - ص٣٢٦).

(٤) سورة آل عمران (٢١).

(٥) تفسير ابن كثير (جـ١ - ص٣٥٥).

وتدل آيات القرآن الكريم على أن تعرض الأنبياء للأذى قدر مشترك بينهم جميعًا، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾[١].

٢ ـ ويستمر الابتلاء والتمحيص للفئات المؤمنة من غير الأنبياء، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله، وما ضعفوا، وما استكانوا.

وإليك ـ أخى الداعية ـ هذه الأمثلة من واقع أصحاب النبى محمد ﷺ:

(أ) يقول ابن إسحاق فى السيرة: «إن قريشًا تذامروا بينهم على مَنْ فى القبائل منهم من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على مَنْ فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم»[٢].

٣ ـ ويستمر الابتلاء فى حياة سلف الأمة الصالح من غير الصحابة، فما لانت لهم قناة، ولا بدا منهم عجز، بل ثبات على الحق، وقوة فى اليقين.

وإليك ـ أخى الداعية ـ هذين المثلين من حياة عالمين جليلين لا يزال الناس يغترفون من علمهما وفضلهما إلى يومنا هذا، وهما: الإمام أحمد بن حنبل، والإمام ابن تيمية.

(أ) لقد تعرَّض الإمام أحمد بن حنبل لفتنة أثارها المعتزلة فى عصره:

وهى فتنة القول بخلق القرآن وشايعهم فى هذا بعض الملوك والأمراء من بنى العبَّاس، وأنزلوا البلاء بكل من يقول بخلاف قولهم.

ولقد تمسك الإمام أحمد باعتقاد أهل السنة فى القول بأن القرآن كلام الله، وصفات الله قديمة، فهو غير مخلوق.. وعرَّضه ذلك للأذى والابتلاء فما وهن وما ضعف.

يقول أحمد بن داود أبو سعيد الواسطى: «دخلت على أحمد الحبس قبل الضرب، فقلت له فى بعض كلامى: يا أبا عبد الله: عليك عيال، ولك صبيان، وأنت معذور.. كأنى أسهل عليه الإجابة.

فقال لى أحمد بن حنبل: إن كان هذا عقلك يا أبا سعيد فقد استرحت»[٣].

---

(١) سورة الفرقان (٣١).

(٢) سيرة ابن هشام (جـ١ ـ ص٢٠٧).

(٣) طبقات الحنابلة (جـ١ ـ ص٢٣) ابن أبى يعلى ـ طبعة سنة ١٣٥٠هـ ـ مطبعة الاعتدال ـ دمشق.

وتدل كلمات الإمام أحمد على أن نصرة الدين تحتاج من المرء إلى صبر وتضحية، وأن من أصابه الجبن والخور فقد استراح من تحمّل عبء هذه الدعوة، ولكنه فقد - فى مقابل ذلك - عزّ الدنيا، وسعادة الآخرة.

(ب) وننتقل إلى شيخ الإسلام ابن تيمية: وما تعرَّض له من إيذاء يتمثل فى السجن الطويل الأمد، فما أظهر شكاية، ولكن سعادة غامرة تنطق بها عباراته.

يقول الإمام ابن القيم تلميذه: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدَّس الله روحه - يقول: «إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة». وقال لى مرَّة: «ما يصنع أعدائى بى؟ أنا جنتى وبستانى فى صدرى، إن رحت فهى معى لا تفارقنى. إن حبسى خلوة، وقتلى شهادة، وإخراجى من بلدى سياحة».. وقال لى مرة: «المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه». ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]، وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرّهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه»[1].

• أخى الداعية:

ويطول الكلام عن تضحيات الدعاة من أجل الدعوة التى وهبوها أرواحهم، وبذلوا لها النفس والنفيس فى سبيل علو كلمتها، ورفعة رايتها، وهم على يقين بأن ظلمة الليل لابد أن تنجلى، وأنفاس الباطل لابد وأن تنتهى، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[2].

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص٤٤: ٤٥).

(٢) سورة الروم (٥٨: ٦٠).

• توجيهات للداعية فى هذا المجال:

لقد بيّن الله تعالى فى كتابه أن الابتلاء لأهل الإيمان ضرورة لبيان صفاء المعدن، وصدق الإيمان، فقال تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾[١]، وقال أيضًا: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾[٢].

وإزاء هذه الحقيقة القرآنية، والتى أيدتها شواهد الواقع من حياة الدعاة المخلصين ـ كما مرَّ فى السطور القليلة الماضية ـ يجب على الداعية أن يضع أمام عينيه هذه الحقائق:

١ ـ أن وقوع البلاء ببعض الدعاة ليس معناه ـ كما يتصور البعض ـ أن خطأً معينًا وقع فيه هؤلاء إذ من الممكن أن يكون الابتلاء لرفع درجتهم، وعلو مكانتهم.

ومما يدل على هذا من الحديث النبوى ما جاء عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: «قلت: يا رسول الله، أىُّ الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان فى دينه رقَّة ابتلى على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض، ما عليه خطيئة»[٣].

وفقه الداعية لهذه المسألة يمنعه من التطاول على الدعاة إلى الله إذا تعرضوا للإيذاء، بل ويجعله ذلك يتهم نفسه، ويراجع حساباته لعله يكون قد أخطأ الطريق.

ومن كلمات الداعية المعاصر الشيخ محمد متولى الشعراوى ما معناه: «إذا لم يُبْتَل الداعية لم يأخذ حظه من ميراث النبوة كاملاً»، وهو يشير بهذا الكلام إلى أن العلماء ورثة الأنبياء، وقد أكد القرآن الكريم والسنة النبوية على وقوع البلاء بهم

---

(١) سورة محمد: (٣١).

(٢) سورة العنكبوت (٢).

(٣) أخرجه الترمذى (جـ٤ ـ ص٦٠١) كتاب الزهد ـ باب ما جاء فى الصبر على البلاء، وقال عنه: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه (جـ٢ ـ ص١٣٣٤) كتاب الفتن ـ باب الصبر على البلاء، وأخرجه أحمد (جـ١ ـ ص١٧٢).

جميعًا، فإذا لم يُبْتَلَ الداعية أخذ حظه من ميراث النبوة فى جانب، وفاته ذلك فى جانب آخر.

ولا يعنى ذلك أن يصطدم الداعية بغيره حبًا فى وقوع البلاء به، أو حتى مجرد تمنى وقوعه به، فإن السنة قد علَّمَتنا ـ حتى لا نغتر بأنفسنا ـ ألاَّ نتمنى البلاء، بل علينا أن نسأل الله العفو والعافية، ففى الحديث: «لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا..»[١].

يقول الإمام النووى: «كثرت الأحاديث فى الأمر بسؤال العافية، وهى من الألفاظ العامة المتناولة لدفع جميع المكروهات فى البدن والباطن، فى الدين والدنيا والآخرة»[٢].

٢ ـ أن الصبر لا يعنى ـ كما يتصور البعض ـ الخنوع والاستسلام، فحاشا لله تعالى أن يوصى الرسل والمؤمنين بشىء فيه ذلة واستكانة، أو خنوع واستسلام.

إن الصبر على البلاء يعنى ألا يضيق المرء ذرعًا بما يواجه دعوته من عقبات، بل عليه أن يستقبل الشدائد بالرضا والتسليم، وأن يبقى على مدى الأيام صلب المراس، فلا تلين له قناة، ولا يفتر له عزم.

وعليه ـ إلى جانب ذلك ـ أن يتعامل مع الشدائد بكياسة المؤمن وفطنته، فإذا رأى عقبة فى طريق دار حولها ومضى إلى ما خلفها، وأثبت ذاته ووجوده فى مجالات لا حرج عليه من العمل فى دائرتها.

يقول أستاذنا البهى الخولى فى كتابه «تذكرة الدعاة»[٣]: «اعلم أن مثل الداعية القوى المؤمن كمثل السيل المنحدر من شواهق الجبال.. فيه منه قوة الاندفاع، وفيه منه للناس سر الانتفاع، ولكن السيل لا يعجل إلى العقبات أو الهضاب فيمزقها،

---

(١) رواه البخارى (جـ٢ ـ ص١٦٤١) كتاب الجهاد ـ باب كان النبى ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس، وأخرجه مسلم (جـ٣ ـ ص١٣٦٢) كتاب الجهاد والسير ـ باب كراهة تمنى لقاء العدو، والأمر بالصبر عند اللقاء، وأخرجه أبو داود (جـ٢ ـ ص٤٣) كتاب الجهاد ـ باب فى كراهية تمنى لقاء العدو.

(٢) شرح النووى على صحيح مسلم (جـ١١ ـ ص٤٦).

(٣) المرجع المذكور ص٢٥٣ بتصرف يسير، وانظر أيضًا نفس المرجع (ص٢٦٦: ٢٦٨).

بل يدور حولها ويحيط بأطرافها، ويمضى إلى ما خلفها، ويتركها معزولة عما عداها، ثم يعلو ماؤه، ويغزر فيضه، فيرتفع على جوانبها بالتدريج حتى يغطى قممها، ويخضع لسلطانه رءوسها الشامخة.

فرسالتك ـ أيها الداعية ـ قد نزلت من الماء لا من الجبل، وأنت سرُّ اندفاعها وانتفاع قلبك بها، وأنت الذى يجب أن تسبح بدعوتك فى كل مكان، فإذا صادفتك عقبة من قانون عتيد، أو شخصية طاغية، فلا تعرض لها بغير ما يعرض لها السيل؛ ادعها بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا تقف عندها فذلك خرق وجهل. بل افعل ما يفعل السيل؛ دُر حولها، وامض فى سبيلك إلى ما وراءها، وادع الناس إلى جانبك حتى تغدو منعزلة عما عداها، ويقنعها الواقع بقوة أمر الله، أو يغيبها أمر الله عن الأنظار». اهـ.

ومما يؤيِّد هذا من مأثور الحكمة قولهم: «كن فى الفتنة كابن اللَّبون، لا ضرع فيُحْلب، ولا ظهر فيُرْكب».

فما أكثر المجالات التى تهتف بالداعية ليبنى فيها لبنة، أو يسد فيها ثغرة.

فلتبادر ـ أخى الداعية ـ إلى العمل الدءوب لأجل الدعوة، التى لم يكن لنا ـ ولن يكون ـ وزن عند الله إلاَّ بها، والتضحية فى سبيلها.

* * *

٤. عناية الداعية بما يصلح به أمر معيشته

الدعوة إلى الله تعالى عمل جليل، وجهد عظيم يحتاج إلى أفراد قادرين دائمًا على العطاء دون فتور أو كلال، وأذهان خالية من الهموم والمشاغل حتى يتفرغ أصحابها لمباشرة واجبات الدعوة دون إعاقة أو تعطيل. والدعاة إلى الله تعالى - كسائر البشر - لهم ولأهليهم حاجات ومتطلبات، فكل منهم لا يستغنى عمَّا يسد جوعته، ويوارى عورته.

ومن هنا وجب على الداعية أن يحرص على استصلاح أمر معيشته، وتوفير حاجته وحاجات أولاده من مطعم ومشرب ومسكن وملبس، وذلك حتى يتفرغ لأداء رسالته على الوجه الأكمل دون تقصير أو اضطراب.

• أهمية هذه الصفة فى حياة الدعاة، وأمثلة عليها من حياتهم:

تتضح أهمية هذه الصفة فى حياة الدعاة من خلال ملاحظة النقاط التالية:

(١) **أنَّ توجُّه الداعية لأداء رسالته - وقد توفرت حاجات نفسه وبيته - يجعله مقبلاً على دعوته دون تشتت أو تمزيق بين متطلبات الحياة وأعباء الدعوة، فى حين أن نقصان هذه الحاجات يصيب المرء بالتوتر، ويُشِلُّ عقله عن التفكير.**

يقول الإمام الشافعى: «لا تشاور من ليس فى بيته دقيق فإنه مولَّهُ العقل»[(١)].

وقال الإمام ابن عساكر: «حضرت مجلس يزيد بن هارون فأملى ثلاثين حديثًا فحفظتها، فجئت إلى منزلى أعلق، فعلقت منها ثلاثة، فجاءت الجارية وقالت: مولاى: فنى الدقيق، فنسيت سبعة وعشرين وبقيت ثلاثة»[(٢)].

ويقول الإمام الشافعى مشيرًا إلى هذا المعنى أيضًا.

لا يدرك الحكمة مَنْ عُمْرُهُ ... يكدح فى مصلحة الأهل

ولا ينال العلم إلاَّ فتى ... خالٍ من الأفكار والشغل

---

(١) فضل العلم (ص١٢١) أبى عبد الله محمد بن سعيد بن رسلان - طبعة أولى سنة ١٩٨٧ - دار العلوم الإسلامية.

(٢) هامش تذكرة السامع والمتكلم (ص٢٠٨).

لو أن لقمان الحكيم الذى سارت به الركبان بالفضل
بُلى بفقر وعيال لما فرَّق بين التِّبْن والبقل[١]

٢ ـ أن عناية الداعية بما يصلح به معيشته يعينه على الاستغناء عن الناس، مما يجعل مكانته فى نفوسهم مرموقة، وكلمته فيهم مسموعة.

ومما يروى فى هذا أن أعرابيًا سأل أهل البصرة: من سيدكم؟ قالوا: الحسن [يعنون الحسن البصرى]، قال: بِمَ سادكم؟ قالوا: احتاج الناس إلى علمه، واستغنى هو عن دينارهم. فقال: ما أحسن هذا»[٢].

وقال أيوب السختيانى ـ رضى الله عنه ـ: «الزم سوقك، فإنك لا تزال كريمًا على إخوانك ما لم تحتج إليهم»[٣].

ومن هنا فقد حرص سلف الأمة الصالح على التخلق بهذا الخلق، وبدا ذلك واضحًا فى أقوالهم وسلوكهم.

ومن أقوالهم فى هذا الشأن ما يلى:

١ ـ يقول أبو الدرداء ـ رضى الله عنه ـ: «من فقه الرجل المسلم استصلاحه معيشته»[٤].

٢ ـ ويقول أبو سليمان الدارانى ـ رحمه الله ـ: «ليس العبادة عندنا أن تصفَّ قدميك وغيرك يُفتُّ لك، ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبد، ولا خير فى قلب يتوقع قرع الباب يتوقع إنسانًا يجيئه يعطيه شيئًا»[٥].

ومن سلوكياتهم فى هذا الشأن ما يلى:

١ ـ روى أن سلمان الفارسى ـ رضى الله عنه ـ اشترى وسقًا[٦] من طعام،

---

(١) ديوان الإمام الشافعى (ص٧١).
(٢) هداية المرشدين (ص٩٧) على محفوظ.
(٣) حلية الأولياء (جـ٣ ـ ص١١) أبو نعيم الأصبهانى.
(٤) جامع بيان العلم وفضله (جـ٢ ـ ص١٩) ابن عبد البر.
(٥) صفة الصفوة (جـ٤ ـ ص٢٣٠) ابن الجوزى.
(٦) الوسق: قال فى النهاية (جـ٥ ـ ص١٨٥) مادة وسق: الأصل فى الوسق: الحِمْل، وكل شىء وسقته فقد حملته، وهو يساوى بالكيل ستين صاعًا.

فلقيه زيد بن صوحان ومولاه سالم، فقال له زيد: يا أبا عبد الله: تفعل هذا وأنت صاحب رسول الله ﷺ؟ قال: «إن النفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت وتفرغت للعبادة، ويئس منها الوسواس»[١].

٢ ـ وعن ابن أبى مليكة قال: كان ربما سقط الخطام من يد أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ قال: فيضرب بذراع ناقته فينيخها فيأخذه. قال: فقالوا له: أفلا أمرتنا نناولكه؟ قال: إن حبيبى رسول الله ﷺ أمرنى ألاَّ أسأل الناس شيئًا»[٢].

• توجيهات للداعية فى هذا المجال:

١ ـ لا يتعارض سعى المرء لتوفير حاجته وحاجة ذويه مع ما دعت إليه الشريعة من عدم الركون إلى الدنيا، ووصفها بأنها متاع الغرور، وذلك إذا حرص المرء على أوامر ربه، ولم يشغله شىء عن الاتصال بمولاه.

عن سفيان بن عيينة قال: «ليس من حب الدنيا طلبك ما لابد منه»[٣].

وعن سعيد بن جبير قال: «الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله فنعّم المتاع ونعم الوسيلة»[٤].

٢ ـ أنَّ التقرب إلى الله تعالى لا يكون بتعذيب النفس بحرمانها من حاجتها، أو بارتداء الثياب الدون وغير ذلك، وإنما يكون بالتزام طاعة الله تعالى فيما وهبه للمرء، وأن يكون شاكرًا عند الرخاء، صابرًا عند البلاء.

يقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه: «لو أن رجلاً أخذ جميع ما فى الأرض وأراد به وجه الله تعالى فهو زاهد، ولو أنه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله تعالى فليس بزاهد»[٥].

وانطلاقًا من هذا المعنى رأينا الدعاة إلى الله تعالى يُظْهرون نعمة الله عليهم فى ملبسهم وهيئتهم دون أن يروا ذلك متعارضًا مع ما يدعون الناس إليه ويأمرونهم به.

(١) صفة الصفوة (جـ١ ـ ص٥٥٠) ابن الجوزى.
(٢) أخرجه أحمد (جـ١ ـ ص١١).
(٣) صفة الصفوة (جـ٢ ـ ص٢٣٢).
(٤) هداية المرشدين (ص٢٣٧) على محفوظ.
(٥) إحياء علوم الدين (جـ١٠ ـ ص١٨٠٩).

عن عبد الملك بن عبد الحميد الميمونى قال: «ما أعلم أنى رأيت أحدًا أنظف ثوبًا، ولا أشد تعاهدًا لنفسه فى شاربه وشعر رأسه وشعر بدنه، ولا أنقى ثوبًا وأشده بياضًا من أحمد بن حنبل»(١).

وعن يحيى بن محمد الشهيد قال: «ما رأيت محدثًا أورع من يحيى بن يحيى، ولا أحسن لباسًا منه»(٢).

وتنفيذ الداعية لقوله تعالى فى وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾(٣) تنفيذه لمضمون هذه الآية ضمان له من الانحراف إلى جهة الإفراط أو التفريط.

يقول الإمام الحسن البصرى رضى الله عنه: «إياكم وما شغل من الدنيا، فإن الدنيا كثيرة الأشغال، لا يفتح رجل على نفسه باب شغل إلاَّ أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب»(٤).

فإن أهمل الداعية أخذ نفسه بالوسط فى هذه المسألة، وأغرق نفسه فى حب الدنيا، والتنافس على ملذاتها، فقد عرَّض نفسه لمقت الله وغضبه، وذهاب نور العلم وثمرته.

عن مالك بن دينار قال: «قلت للحسن: ما عقوبة العالم إذا أحب الدنيا؟ قال: موت القلب، فإذا أحب الدنيا طلبها بعمل الآخرة، فعند ذلك ترحل عنه بركات العلم، ويبقى عليه رسمه»(٥).

ويقول الحسن البصرى أيضًا: «ما أعزَّ أحد الدرهم إلاَّ أذلَّه الله»(٦).

ومن جانب آخر فإن ميل الداعية إلى التشدد فى تلبية- حاجات نفسه وولده يُعرضه للتقصير فى واجباته نحو دعوته وربه، ومن ثمَّ وجَّه النبى ﷺ إلى

---

(١) صفة الصفوة (جـ٢ ـ ص٣٤٠).

(٢) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع (جـ١ ـ ص٣٨١).

(٣) سورة الفرقان (٦٧).

(٤) حلية الأولياء (جـ٢ ـ ص١٥٣).

(٥) البداية والنهاية (جـ٩ ـ ص٢٦٨) الحافظ ابن كثير.

(٦) حلية الأولياء (جـ٢ ـ ص١٥٢).

الأسلوب الأمثل فى التعامل مع طيبات الحياة، وذلك فى قصة النفر الثلاثة الذين قال أحدهم: أما أنا فأصلى الليل أبدًا. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا.

فلما علم النبى ﷺ بخبرهم قال لهم ولأمثالهم: «أما والله إنى لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»[(١)].

فليحرص الداعية على أن يأخذ نفسه بالوسط فى هذا الأمر، وليقنع بما رزقه الله تعالى طلبًا للفلاح والنجاح، ففى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافًا[(٢)]، وقنَّعه الله بما آتاه»[(٣)].

ويقول الإمام الشافعى:

رأيت القناعة رأس الغنى ... فصرت بأذيالها مُمْتَسِكْ

فلا ذا يرانى على بابه ... ولا ذا يرانى به منهمك

فصرت غنيًا بلا درهم ... أمرُّ على الناس شبه الملك[(٤)]

اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التى فيها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر.

* * *

(١) رواه البخارى (جـ٣ ـ ص٢٣٧) ـ كتاب النكاح ـ باب الترغيب فى النكاح، وأخرجه مسلم بنحوه (جـ٢ ـ ص١٠٢٠) كتاب النكاح ـ باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ووجد مؤنة، واشتغال من عجز عن المؤن بالصيام، وأخرجه النسائى بنحوه أيضًا (جـ٦ ـ ص٥٠) كتاب النكاح ـ باب النهى عن التبتل، وأخرجه أحمد (جـ٣ ـ ص٢٤١).

(٢) كفافًا: قال فى النهاية (جـ٤ ـ ص١٩١) مادة: كفف: «الكفاف هو الذى لا يفضل عن الشىء ويكون بقدر الحاجة إليه».

(٣) أخرجه مسلم (جـ٢ ص٧٣٠) كتاب الزكاة ـ باب فى الكفاف والقناعة، وأخرجه ابن ماجه بنحوه (جـ٢ ص١٣٨٦) كتاب الزهد ـ باب القناعة، وأخرجه أحمد (جـ٢ ـ ص١٦٨).

(٤) ديوان الإمام الشافعى (ص٦٨).

الفصل الثانى

الأخلاق فى مجال التعامل العام مع الناس

١. الرفق بالمدعوين، والتيسير عليهم

يحرص الداعية على أن تهيمن الدعوة على تصرفات الناس، وتحكم سلوكهم، فليس هدفه ـ فقط ـ أن يَدْخُلَ الناسُ فى الإسلام بالنطق بالشهادتين، وإنما يهدف إلى أن يدخل الإسلام فى الناس، بحيث يُرَى الإسلام فى سلوكهم شكلاً ومضمونًا، وأقوالاً وأفعالاً.

وإزاء هذا الواجب الضخم سيواجه الداعية صنوفًا شتى من الناس، وأخلاقًا متنوعة من فئات المجتمع.

ولكى ينجح الداعية فى التعامل مع شتى الطبقات، وتحت كافة الظروف فلابدَّ من التحلّى بالرفق فى الدعوة إلى الله، وأن يتصف ـ فى تعامله ـ بلين الجانب، وسهولة المعاشرة حتى يفتح ـ لدعوته ـ مغاليق القلوب، وينفذ ـ بنصحه ـ إلى أعماق النفوس.

ومن هنا كان اتصاف الداعية بالرفق والتيسير فى دعوته إلى الله شيئًا أساسيًا فى سلوكه إذا أراد السداد والصواب.

• أهمية هذه الصفة فى حياة الدعاة، وأمثلة عليها من حياتهم:

تتضح أهمية هذه الصفة فى حياة الدعاة من خلال ملاحظة ما يأتى:

١ ـ أن الداعية يبغى بدعوته هداية الناس إلى طاعة الله، واستنقاذهم مما يسخطه ويغضبه، وليس الأمر ـ بالنسبة له ـ مجرد أداء الواجب لتقوم الحجة على الناس وفقط.

ولا يتسنى للداعية أن يقوم بهذا الدور إلاَّ إذا اتصف بالحلم وطول النَّفس، والتزم الرفق ولين الجانب.

يقول الأستاذ فتحى يكن: «الداعية لا تكون دعوته بحمل الأفكار والنظريات المجرَّدة إلى مَنْ حوله: قبلوها أم رفضوها، وإنما أن يعيش هذه الأفكار معهم، ويترجمها لهم على أرض الواقع أفعالاً وأخلاقًا وممارسات.

والداعية لا تكون دعوته بمفاصلة الناس وإقامة الحجة عليهم، وإنما بأخذ كافَّة الأسباب التى تؤدى إلى هدايتهم.

فهو من موقع الحب لهم، والغيرة عليهم، والرحمة بهم يكابد من أجل استنقاذهم من حمأة الجاهلية وشقوتها إلى نعيم الإسلام، وذلك فهو لا يسارع إلى مدابرتهم ومقاطعتهم ومفاصلتهم، وهذا كله يحتاج منه إلى حلم ورفق.

إن على الداعية أن يعتبر نفسه مربيًا للناس ومعلمًا لهم، وإن عليه ـ ليكون ناجحًا فى تربيته وتعليمه ـ ألاَّ يعاملهم كأنداد، وألاَّ يتعامل معهم كندٍّ، وهو إن فعل ذلك أصبح مثلهم، وفقد عنصر القوامة عليهم»[١]. اهـ.

٢ ـ أن الله تعالى فطر الناس على قبول الحق والتفافهم حول صاحبه، وبخاصة إذا كان على علم ومعرفة وفيرين.

روى الأوزاعى عن حسان بن عطية قال: «ما ازداد عبد علمًا إلاَّ ازداد الناس منه قُربًا رحمة من الله تعالى»[٢].

فإذا امتنَّ الله على الداعية بالتفاف الناس حوله، ثم وجدوه غليظ القلب، سيئ المعاملة لانفضوا من حوله، وتركوه يستأنس بالتثاؤب ويركن إلى البطالة.

من أجل هذا ـ وغيره ـ حثَّت الشريعةُ على ضرورة الاتصاف بهذا الخلق ليكون التوفيق والسداد بإذن الله.

وأول ما يطالعنا فى هذا المقام قول الله تعالى لسيِّد الدعاة ﷺ: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾[٣].

وعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة: إن

---

(١) الاستيعاب فى حياة الدعوة والداعية (ص٣٤).

(٢) حلية الأولياء: (جـ٦ ـ ص٧٤).

(٣) سورة آل عمران (١٥٩).

الله رفيق يحب الرفق، ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف، وما لا يعطى على ما سواه»[١].

وعنها أيضًا: أنه ﷺ قال: «إن الرفق لا يكون فى شىء إلاَّ زانة، ولا يُنْزَعُ من شىء إلاَّ شانه»[٢]. والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة.

ومن أقوال سلف الأمة الصالح نختار هذه الأقوال:

يقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه: «ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه؟ قالوا: بلى. قال: من لم يقنِّط الناس من رحمة الله، ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يؤمِّنهم من مكر الله..»[٣].

ومن مأثور الحكمة: «ليكن أمرك بالمعروف بالمعروف، ونهيك عن المنكر غير منكر»[٤].

وعن عثمان بن طالوت قال: سمعت الأصمعى ينشد:

ولم أرَ مثل الرفق فى أمره ... أخرج للعذراء من خدرها

من يستعن بالرفق فى أمره ... قد يُخرج الحية من جحرها[٥]

وقال أعرابى: «من لانت كلمته وجبت محبته»[٦].

وحتى يتأيَّد الكلام بشواهد الواقع أسوق إليك ـ أخى الداعية ـ هذه الأمثلة:

١ ـ عن أبى أمامة رضى الله عنه: أن فتًى شابًا أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول

---

(١) أخرجه مسلم (جـ٤ ـ ص٢٠٠٤) كتاب البر والصلة والآداب ـ باب فضل الرفق، وأخرجه أبو داود (جـ٢ ـ ص٦٠٥) كتاب الأدب ـ باب فى الرفق، وأخرجه ابن ماجه (جـ٢ ـ ص١٢١٦) كتاب الأدب ـ باب الرفق، وأخرجه أحمد (جـ١ ـ ص١١٢).

(٢) أخرجه مسلم (جـ٤ ـ ص٢٠٠٤) كتاب البر والصلة والآداب ـ باب فضل الرفق، وأخرجه أبو داود (جـ٢ ـ ص٣) كتاب الجهاد ـ باب ما جاء فى الهجرة وسكنى البدو، وأخرجه أحمد (جـ٦ ـ ص٥٨).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (جـ٢ ـ ص٥٥).

(٤) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (ص٩) الإمام ابن تيمية ـ المكتبة القيمة ـ بدون تاريخ.

(٥) الجامع لأخلاق الراوى، وآداب السامع (جـ١ ـ ص٢٠٩).

(٦) نفس المرجع (جـ١ ـ ص٣٥٠).

الله: ائذن لى بالزنا؟ فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه[١]، فقال: ادنه، فدنا منه قريبًا، قال: فجلس. قال: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله، جعلنى الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم. قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلنى الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أتحبه لأختك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلنى الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم. قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا والله، جعلنى الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم. قال: أفتحبه لخالتك: قال: لا والله جعلنى الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم. قال: فوضع يده عليه، وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصّن فرجه، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شىء»[٢].

هذا، وتزخر السنة بالكثير من مواقف النبى ﷺ التى استعمل فيها الرفق فلانت له القلوب، واستجابت له النفوس حتى أمكنه أن يصل بالهدى إليها.

ولولا خشية الإطالة لأتيت بها جميعًا، وصدق الله إذ يقول فى صفته ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٣].

٢ ـ أورد أبو نعيم فى كتابه «حلية الأولياء»[٤] أن صلة بن أشيم وأصحابه مرَّ بهم فتى يجرُّ ثوبه، فَهَمَّ أصحاب صلة أن يأخذوه بألسنتهم أخذًا شديدًا، فقال صلة: دعونى أكفكم أمره. فقال: يا ابن أخى إن لى إليك حاجة، قال: وما حاجتك؟ قال: أحب أن ترفع إزارك. قال: نعم، ونعمى عين، فرفع إزاره. فقال صلة لأصحابه: هذا كان أمثل مما أردتم، لو شتمتموه وآذيتموه لشتمكم. اهـ.

٣ ـ وعن أبى قلابة ـ رضى الله عنه ـ أن أبا الدرداء ـ رضى الله عنه ـ مرَّ على رجل قد أصاب ذنبًا فكانوا يسبونه. فقال: «أرأيتم لو وجدتموه فى قليب[٥] ألم

(١) مه: اسم فعل أمر بمعنى: اكفف.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (جـ٥ ـ ص٢٥٦).

(٣) سورة التوبة (١٢٨).

(٤) المرجع المذكور (جـ٢ ـ ص٢٣٨).

(٥) القليب: البئر التى لم تُطْوَ. هكذا فى النهاية (جـ٤ ـ ص٩٨) مادة: قلب.

تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: نعم. قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله الذى عافاكم. قالوا: أفلا نبغضه؟ قال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخى»[١].

هذا ويطول الكلام - أخى الداعية - مع الأمثلة الدالة على التزام الرفق فى حياة الدعاة، ولكن فيما ذكرت كفاية، وسنرى مزيدًا من الأمثلة فى النقطة التالية، لارتباطها الوثيق بالرفق فى مجال الدعوة إلى الله.

• بين الرفق والتيسير:

إذا ملأ الله قلب الداعية بالرحمة على خَلْقِه، ولمس الرفق شغاف قلبه انبعث فى سلوكه حب التيسير على الناس والرفق بهم.

وحب الداعية للتيسير لا يتولَّد من فراغ، وإنما تدفعه إليه تعاليم الإسلام متمثلة فى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

ففى مَعْرض الحديث القرآنى عمَّا يريده الله تعالى بخلقه يقول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[٢].

وفى توجيه النبى ﷺ إلى الأسلوب الأمثل فى التعامل مع الآخرين فى مجال الدعوة وغيره يقول النبى ﷺ: «يسِّروا ولا تُعَسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا»[٣].

يقول الإمام النووى فى تعليقه على هذا الحديث: «إنما جمع فى هذه الألفاظ بين الشىء وضده لأنه قد يفعلهما فى وقتين، فلو اقتصر على «يسِّروا» لصدق ذلك على من يسَّر مرة أو مرات وعسَّر فى معظم الحالات، فإذا قال: «ولا تعسِّروا» انتفى التعسير فى جميع الأحوال من جميع وجوهه، وهذا هو المطلوب»[٤].

ولم يكتف النبى ﷺ بالدعوة القولية المجرَّدة، بل ضمَّ إليها الأسوة الطيبة،

---

(١) صفة الصفوة (جـ١ - ص٦٤).

(٢) سورة البقرة (١٨٥).

(٣) أخرجه البخارى (جـ١ - ص٢٤) كتاب العلم - باب من كان النبى ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كى لا ينفروا، وأخرجه مسلم (جـ٣ - ص١٣٥٨) كتاب الجهاد والسير - باب فى الأمر بالتيسير وترك التنفير، وأخرجه أبو داود (جـ٢ - ص٦١١) كتاب الأدب - باب فى كراهية المراء، وأخرجه أحمد (جـ٤ - ص٣٩٩).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى (جـ١٢ - ص٤١).

والقدوة الحسنة فيما كان يباشره من أعمال.

فعن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: «ما خيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين قطُّ إلاَّ أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه»[١].

وحين أحسَّ النبى ﷺ بتسلل روح التشدد إلى نفوس بعض أصحابه قاوم هذا الاتجاه، وأعاد الأمور إلى ما ينبغى أن تكون عليه من التوازن والاعتدال.

فعن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ، فلما أُخبِرُوا كأنهم تقالُّوها[٢]، فقالوا: وأين نحن من النبى ﷺ؟ قد غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فإنى أصلى الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا.

فجاء رسول الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إنى لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»[٣].

يقول الحافظ ابن حجر: «... والرغبة عن الشىء الإعراض عنه إلى غيره، والمراد: من ترك طريقتى، وأخذ بطريقة غيرى فليس منى، ولَمَّح بذلك إلى طريق الرهبانية فإنهم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم الله تعالى»[٤].

وقد أثمرت هذه التوجيهات النبوية ثمرتها فى مجتمع الصحابة ـ الذين هم خير

---

(١) أخرجه البخارى (جـ٤ ـ ص٦٩) كتاب الأدب، باب قول النبى ﷺ: يسروا ولا تعسروا، وكان يحب التخفيف واليسر على الناس، وأخرجه مسلم (جـ٤ ـ ص١٨١٣) كتاب الفضائل ـ باب مباعدته ﷺ للآثام، واختياره من المباح أسهله، وأخرجه أبو داود (جـ٢ ـ ص٦٠١) كتاب الأدب ـ باب فى التجاوز فى الأمر، وأخرجه أحمد (جـ٦ ـ ص١١٤).

(٢) تقالوها: أى عدُّوها قليلة.

(٣) أخرجه البخارى (جـ٣ ـ ص٢٣٧) كتاب النكاح ـ باب الترغيب فى النكاح، وأخرجه مسلم بنحوه (جـ٢ ـ ص١٠٢٠) كتاب النكاح ـ باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، وأخرجه النسائى بنحوه (جـ٢ ـ ص٥٠) كتاب النكاح ـ باب النهى عن التبتل، وأخرجه أحمد (جـ٣ ـ ص٢٤١).

(٤) فتح البارى (جـ١٩ ـ ص١٢٦).

القرون بشهادة الرسول ﷺ لهم - فأضحت حياتهم مثلاً رائعًا فى التزام التيسير واجتناب التعسير.

فعن عمر بن إسحاق قال: «لَمَنْ أدركت من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر ممن سبقنى منهم، فما رأيت قومًا أيسر سيرةً، ولا أقلَّ تشديدًا منهم»(١).

فما أجمل أن يترسَّم الدعاة خط هؤلاء السلف الصالح، فإنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. والله أعلم.

• توجيهات للداعية فى هذا المجال:

ونحن بصدد الحديث عن ضرورة اتِّصاف الداعية بالرفق والتيسير فى الدعوة إلى الله تعالى نرى أن من الناس من أساء الفهم لمقاصد الشريعة من هذا الخُلُق فأفرط فى استعماله أو فرَّط فيه، وكلاهما حاد عن جادَّة الطريق، وانحرف عن المنهاج السوىِّ.

فالذين أفرطوا فى استعمال هذا المبدأ تصوروا أن الرفق والتيسير يبيح لهم تحليل الحرام، فراحوا يطوِّعون مبادئ الدين ونصوصه لما تمليه عليهم أهواؤهم وليس العكس.

وانطلاقًا من هذا الفهم المعوج تسمع لأحدهم ينادى بفصل الدين عن الدولة تَمشيًا مع سياسة العلمانيين، وتسمع لآخر يبيح التعامل الربوى الجارى فى العصر الحاضر، ويلوى عنق النصوص ، وترى آخر يبيح للمرأة التبرج والتعرِّى بحجة أن نصوص القرآن فى هذا ليست قطعية، وأن هذا الأمر يدخل فى مجال الحرية الشخصية لكل امرأة، وآخر يعتبر اتهام غير المسلمين بالكفر لونًا من التنطُّع... إلخ.

ولئن كان الدافع لأحد هؤلاء سوء النية وخبث الطوية فحسابه على الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وأمَّا إن تصور أن هذا مقتضى ما تمليه تعاليم الإسلام من السماحة واللين والدعوة بالتى هى أحسن فقد ضلَّ وأضلَّ.

إن تعاليم الإسلام لا تعنى بالرفق واللين الميوعة والتسيب.

---

(١) سنن الدارمى (جـ١ - ص٥١).

ولتقرأ معى ـ أخى الداعية ـ هذه النصوص القرآنية والنبوية لتقف على حقيقة المراد من هذا الأمر.

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾[١].

وقال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[٢].

تأمل معى كلمة ﴿غِلْظَةً﴾ وكلمة ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ لتعلم أن الشدة فى موضعها لا تنافى اللين بل هى عين الحكمة، ومقتضى الرحمة.

واسمع معى إلى هذه القصة من حياة النبى ﷺ لترى كيف كان يشتد حين يستلزم الأمر ذلك، فى الوقت الذى وصفه ربه فى كتابه بأنه بالمؤمنين رءوف رحيم.

عن أبى مسعود رضى الله عنه قال: أتى رجل النبى ﷺ فقال: إنى لأتأخر عن صلاة الغداة[٣] من أجل فلان مما يطيل بنا. قال: فما رأيت رسول الله ﷺ قط أشد غضبًا فى موعظة منه يومئذ. قال: فقال: «يا أيها الناس إنَّ منكم منفِّرين، فأيُّكم ما صلَّى بالناس فليتجوَّز[٤]، فإن فيهم المريض والكبير وذا الحاجة»[٥].

فانظر ـ أخى الداعية ـ إلى ملاحظة الصحابى لردِّ الفعل عند رسول الله ﷺ إزاء هذه الشكوى، حيث يقول: «فما رأيت رسول الله ﷺ قط أشد غضبًا فى موعظة منه يومئذٍ».

---

(١) سورة التوبة (١٢٣).

(٢) سورة النور (٢).

(٣) صلاة الغداة: صلاة الصبح.

(٤) فليتجوَّز: فليخفف.

(٥) أخرجه البخارى (جـ٤ ـ ص٦٧) كتاب الأدب ـ باب ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله، وأخرجه مسلم بنحوه (جـ١ ـ ص ٣٤٠) كتاب الصلاة ـ باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة فى تمام، وأخرجه ابن ماجه (جـ١ ـ ص٣١٤) كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ـ باب ما يجب على الإمام، وأخرجه أحمد (جـ٤ ـ ص١١٩).

ولو كان الغضب لله يتنافى مع الرفق واللين لما ساغ لرسول الله ﷺ أن يفعله.

ومن هذا يتبين لك ـ أخى الداعية ـ ما ذكرته لك فى أن الرفق واللين لا يعنى التساهل والمداهنة فى حدود الله، وإنما هو وضع الأمور فى مواضعها مع استخدام الوسائل كلٌّ فى موضعه.

وصدق الشاعر إذ يقول:

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا

مُضرٌّ كوضع السيف فى موضع الندى

وأورد أبو حامد الغزالى فى كتابه «إحياء علوم الدين»[1] خبرًا عن سفيان أنه قال لأصحابه: «تدرون ما الرفق؟ قالوا: قل يا أبا محمد. قال: «أن تضع الأمور مواضعها، الشدة فى موضعها، واللين فى موضعه، والسيف فى موضعه، والسوط فى موضعه». اهـ.

فإذا تركنا هذا الصنف المُفْرط فى استعمال الرفق حتى خرج به عن مضمونه إلى التهاون والتسيب، لرأينا أن ثمة فريقًا آخر من الناس فرَّط فى استعمال ما دعا إليه الإسلام من الرفق والتيسير، فبدا فى سلوكه وعباداته ومعاملاته أميل إلى التشديد والتعسير، وكأن اليسر ـ فى نظر الواحد منهم ـ ليس من الإسلام فى شىء.

ولا يتسع المجال للتعرض لصور التفريط فى سلوك هؤلاء القوم، وبيان الموقف الصحيح منها، ولكنى أخصُّ بالذكر مظهرين يسىء الكثيرون الفهم فيهما، وهما:

١ ـ العلاقة بين العزائم والرخص فى حياة الدعاة.

٢ ـ الفرق بين ما اتفق عليه العلماء وما اختلفوا فيه.

ففيما يتعلق بالأمر الأول نرى كثيرًا من الناس السالكين طريق الدعوة ينهجون نهج التشديد فى فتاواهم ويلزمون كافة الناس بما هو أورع وأحوط لدينهم.

ومع عظيم تقديرنا لمن يسلكون هذا المسلك فإن من الواجب مراعاة إمكانات الناس وقدراتهم فى التحمل، فما يحسنه التقىُّ الورع لا يحسنه كل أحد.

---

(١) المرجع المذكور (جـ٩ ـ ص١٦٧٤).

فإن تعامل المرء مع الناس جميعًا على أنهم فى القدرة على التحمل سواء فأفتى دائمًا بما هو أشق وأشد، ورفض ما هو أيسر وأرفق تورُّعًا واحتياطًا فإن ذلك يؤدى فى نهاية الأمر إلى أن تفقد تعاليم الإسلام يُسْرها، ويحدث فى نفوس الناس نفور منها، وكراهية لها.

ومن ثمَّ كره سلف الأمة الصالح التزام خط التشديد دائمًا مؤكدين على أن العلم الكثير يحمل صاحبه على التيسير لا التعسير.

يقول الإمام الجليل سفيان الثورى: «إنما العلم عندنا الرخصة من ثقة، فأمَّا التشديد فيحسنه كل أحد»(١).

وإلى جانب هذا رأينا فى سلوك السلف الصالح حرصًا على الورع والتقوى فى خاصَّة أنفسهم، فإذا تعلق الأمر بالناس أجابوا بما فيه الرخصة والتيسير.

ولقد مرّ بك ـ أخى الداعية ـ فى حديثنا عن الصلة بالله تعالى فى معرض الكلام عن الورع قول كل من الإمامين الجليلين: أبى حنيفة، وسفيان الثورى: «لأنْ أخرَّ من السماء أهون علىَّ من أن أفتى بتحريم قليل النبيذ، وما شربته قط، ولا أشربه»(٢).

وذكر فى ترجمة التابعى الجليل محمد بن سيرين أنه كان أرجى الناس لهذه الأمة، وأشدهم أزرًا على نفسه.

وذكر فى ترجمة الإمام المزنى صاحب الإمام الشافعى أنه كان أشد الناس تضييقًا على نفسه فى الورع، وأوسعه فى ذلك على الناس.

ومن أراد مزيدًا من التعرُّف على هذه القضية، وخطورة التزام التشديد دائمًا فليقرأ ما كتبه الداعية الإسلامى الشيخ/ يوسف القرضاوى فى كتابه «الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف» فلقد وُفق هذا العالم الجليل فى أن يضع النقط على الحروف، وأن يعطى كل ذى حق حقه، دون مجاملة لأحد على حساب آخر.. فجزاه الله خيرًا.

---

(١) صفة الفتوى والمفتى والمستفتى (ص٣٢) ابن حمدان الحرانى.

(٢) عمدة القارى ـ شرح صحيح البخارى (جـ١ ـ ص٣٣٤) بدر الدين العينى.

وأما الأمر الثانى فإن كثيراً من الناس يخطئون فى فهمه ـ كذلك ـ مما يترتب عليه خلط بين المسائل وبعضها، فلا تمييز بين منصوص عليه ومُجتَهدٍ فيه، وبين متفق عليه ومُختَلفٍ فيه.. إلخ.

وينتج عن هذا الخلط أن ينهج المرء نهجًا معينًا، أو يتبنى رأيًا بذاته ثم يتعصب له، ويرمى من خالفه بالابتداع أو بالاستهتار فى الدين.. وهذا تشديد وتعسير ليس من دين الله فى شىء.

من أجل ذلك رأينا سادتنا العلماء يؤكدون على ضرورة معرفة اختلاف الفقهاء لمن يتصدَّر للدعوة، حتى لا يكون ممن علم شيئًا، وغابت عنه أشياء، فيردّ ـ من حيث لا يعلم ـ ما هو أوثق وأضمن.

عن عثمان بن عطاء عن أبيه قال: «لا ينبغى لأحد أن يفتى الناس حتى يكون عالمًا باختلاف الناس، فإنه إن لم يكن كذلك ردَّ من العلم ما هو أوثق من الذى فى يديه»[١].

وكذلك أكدوا على ضرورة أن يفرِّق المرء ـ عند إنكاره ـ بين المُجْمع عليه والمُختَلَف فيه.

يقول الإمام النووى: «العلماء إنما ينكرون ما أجمع عليه، أمَّا المُختلف فيه فلا إنكار فيه، لأن على أحد المذهبين كل مجتهد مصيب، وهذا هو المختار عند كثيرين من المحققين أو أكثرهم، وعلى المذهب الآخر المصيب واحد والمخطئ غير متعين لنا، والإثم مرفوع عنه، لكن إن ندبه ـ على جهة النصيحة ـ إلى الخروج من الخلاف فهو حسن محبوب مندوب إلى فعله برفق، فإن العلماء متفقون على الحث على الخروج من الخلاف إذا لم يلزم منه إخلال بسنة، أو وقوع فى خلاف آخر»[٢].

من أجل هذا رأينا علماء الأمة الأفاضل لا يُلزمون أحدًا باجتهادهم، ولا يلقون بالتهم على مخالفيهم، وإنما أدب رفيع فى النظر إلى اجتهاد الآخرين، وإعطاءٌ لكل ذى حق حقه.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (جـ٢ ـ ص٥٧).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى (جـ٢ ـ ص٢٣).

روى أن الإمام الجليل أحمد بن حنبل سُئِلَ عن مسألة فى الطلاق فقال: إذا فعله يحنث. فقال له السائل: إن أفتانى أحد بأنه لا يحنث «يعنى: يصح»؟ فقال: نعم، ودله على من يفتيه بذلك[١].

وحين استشار أبو جعفر المنصور الإمام مالك «إمام دار الهجرة» فى أن يحمل الناس على الموطأ حَمْلاً، وأن يَدَعُوا ما سواه من الاجتهادات والأقوال، حين هَمَّ أبو جعفر أن يصنع ذلك رفض الإمام مالك وقال: «يا أمير المؤمنين: لا تفعل، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، وعملوا به ودانوا به من اختلاف الناس - أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم - وإنَّ ردَّهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار كل بلد لأنفسهم»[٢].

ولو كان إلزام الناس باجتهاد معين هو الصواب لبادر إليه الإمام مالك، وبخاصَّة أن الفرصة قد هُيِّئت له، ولكنه كرجل فقيه عالم رأى ألاَّ يلزم الناس بغير ما ألزمهم الله، فجزاه الله عنا خير الجزاء.

• أخى الداعية:

ويطول الكلام ويطول فى مثل هذه المسائل الحسَّاسة، ولكن - كعادتى معك - أطرق لك الباب، وأحيلك إلى مظانِّ التفصيل فى أكثر المسائل إلى الكتب المتخصصة، ترغيبًا وتشويقًا إلى القراءة والبحث من كتب الأئمة والعلماء، جزاهم الله خير الجزاء.

ولذا فإنى أقتصر على ما ذكرته فى هذه الصفة، وأسأل الله أن يوفقنا جميعًا لما فيه رضاه.

* * *

(١) صفة الفتوى والمفتى والمستفتى (ص٨٢) أحمد بن حمدان الحرَّانى الحنبلى.

(٢) جامع بيان العلم وفضله (جـ١ - ص١٦٠).

٢. طلاقة الوجه ولزوم البشر مع اجتناب ما يشين من المزاح وفضول الكلام

الوجه من الإنسان هو المرآة العاكسة لما يدور فى نفسه وأعماقه، وهو العنوان الذى يدلُّ على صاحبه ،فيؤلِّف حوله القلوب، أو ينفرها منه.

ولئن كان عمل الداعية يرتبط ـ فى أغلبه ـ بالناس، فإن عليه أن يتجنب التَّجهم فى وجوههم، وأن تعلو صفحة وجهه علائم البِشْر والسرور، حتى تتألَّفه القلوب، وتجتذب إلى دعوته النفوس.

يقول ابن عيينة: «البشاشة مصيدة المودة، والبرُّ شىء هين: وجه طليق، وكلام ليِّن»(١).

ولأهمية هذه الصفة فى حياة المسلم ـ فضلاً عن الداعية ـ فقد حرص النبى ﷺ على أن تنساب هذه الصفة فى حياة المسلم، مع تأكيده ﷺ على أن ذلك من القُرُبات التى تُحْسَبُ للمرء عند الله.

فعن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخا لك بوجه طَلْقٍ»(٢) أى: سهل منبسط.

ولم يكتف النبى ﷺ فى ذلك بالدعوة القولية، بل أعطى للدعاة القدوة من نفسه ﷺ، فكان حسَنَ الاستقبال لأصحابه، هاشًا باشًا فى وجوههم.

فعن عبد الله بن الحارث بن حزم قال: «ما رأيت أحدًا أكثر تبسُّمًا من رسول الله ﷺ»(٣).

---

(١) فيض القدير ـ شرح الجامع الصغير (جـ٣ ـ ص٢٢٦) العلاَّمة المناوى.

(٢) أخرجه مسلم (جـ٤ ـ ص٢٠٢٦) كتاب البر والصلة والآداب ـ باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، وأخرجه الترمذى بنحوه (جـ٤ ـ ص ٣٤٧) كتاب البر والصلة ـ باب ما جاء فى طلاقة الوجه وحُسْن البِشْر/ وأخرجه أحمد (جـ٥ ـ ص١٧٣).

(٣) أخرجه الترمذى وحسَّنه (جـ٥ ـ ص٦٠١) كتاب المناقب ـ باب فى بشاشة النبى ﷺ، وأخرجه أحمد (جـ٤ ـ ص ١٩٠).

وكان ﷺ قدوة حسنة فى تأليف القلوب من حوله، فلم يكن مع أصحابه معقِّدًا ولا متجهمًا، وإنما معاشرة لهم بالمعروف، ومشاركة لهم فيما ليس بمعصية.

فعن خارجة بن زيد بن ثابت قال: دخل نفر على زيد بن ثابت فقالوا: حدثنا ببعض حديث رسول الله ﷺ فقال: «وما أحدثكم؟ كنت جاره فكان إذا نزل الوحى أرسل إلىَّ فكتبت الوحى، وكان إذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا، فكل هذا أحدثكم عنه»[١].

يقول العلاَّمة المناوى فى تعليقه على مثل هذه الأحاديث: «وفيه ردٌّ على العالم الذى يُصَعِّر خده للناس كأنه معرض عنهم، وعلى العابد الذى يعبس وجهه ويقطب جبينه كأنه منزه عن الناس، مستقذر لهم أو غضبان عليهم»[٢].

• توجيهات للداعية فى هذا المجال:

إذا كان تعاليم الإسلام قد حثَّت على طلاقة الوجه ـ كما اتضح من الكلام السابق ـ فإن ذلك لا يعنى الخروج عن حد الالتزام فى الكلام والفعال.

ومن ثمَّ وجب على الداعية أن يراعى فى هذا الأمر عدة أشياء، تهذِّب من سلوكه، وتدفعه إلى الاستفادة بكل لحظة وكل كلمة.

ونلخص توجيهاتنا للدعاة فى هذا المجال فى النقاط التالية:

١ ـ لا بأس أن يمزج الداعية حديثه بشىء من المزاح ترويحًا للنفوس، واستثارة للنشاط، واستدفاعًا للكسل، وذلك تأسيًا برسول الله ﷺ الذى كان يمازح أصحابه.

ويجب مراعاة أمرين فى هذا المجال:

أ ـ أن يلتزم المرء الصدق، فلا يدفعه حبٌّ إدخال السرور على الناس إلى الكذب.

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله إنك تداعبنا. قال:

---

(١) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (جـ٩ ـ ص١٧) وقال عنه: رواه الطبرانى، وإسناده حسن.
(٢) فيض القدير ـ شرح الجامع الصغير (جـ٣ ـ ص٢٢٦).

«إنى لا أقول إلا حقًا»[١].

وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا زعيمٌ ببيت فى ربض الجنة[٢] لمن ترك المِراء[٣] وإن كان محقًا، وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه»[٤].

ب ـ ألاَّ يكون المزاح ديدنه وعامَّة كلامه، فإن ذلك يحطّ من قدره، ويحمل على استخفاف الناس به.

وإلى هذا المعنى يشير الشاعر بقوله:

أفد طبعك المكدود بالهمِّ راحة ... براح، وعلله بشىء من المزح

ولكن إذا أعطيته المزح فليكن ... على قدر ما يُعْطَى الطعام من الملح

ويقول الحافظ الخطيب البغدادى فى كتابه «الجامع لأخلاق الراوى، وآداب السامع»[٥]: «إنما يُسْتَجَازُ من المزاح يسيره ونادره وطريفه الذى لا يخرج عن حد الأدب وطريقة العلم، فأمَّا متصله وفاحشه وسخيفه وما أوغر منه الصدور وجلب الشر فإنه مذموم، وكثرة المزاح والضحك يضع من القدر، ويزيل المروءة». اهـ.

٢ ـ يجب على الداعية أن يرقى إلى مستوى الدعوة التى ينتسب إليها، ويحمل رايتها، ويعنى ذلك أن يسمو بأخلاقه عن التدنِّى، وأفعاله وأقواله عن السقوط والتبذل.

وفى هذا قيل: «من تمام آلة العالم أن يكون مهيبًا وقورًا، بطىء الالتفات، قليل الإشارة، لا يصخب، ولا يلعب، ولا يجفو، ولا يلغو»[٦].

ويقول الإمام الأوزاعى: «كنا قبل اليوم نضحك ونلعب، أمَّا إذْ صرنا أئمة

(١) أخرجه الترمذى، وقال عنه: حسن صحيح (جـ٤ ـ ص٣٥٧) كتاب الأدب ـ باب ما جاء فى المزاح، وأخرجه أحمد (جـ٢ ـ ص٣٤٠).

(٢) ربض الجنة: ما حولها خارجًا عنها.

(٣) المراء: الجدال.

(٤) أخرجه أبو داود (جـ٢ ـ ص٦٠٤) كتاب الأدب ـ باب فى حسن الخلق.

(٥) المرجع المذكور (جـ١ ـ ص١٥٦).

(٦) جامع بيان العلم وفضله (جـ١ ـ ص١٧٧) ابن عبد البر.

يُقْتَدَى بنا فلا نرى أن يسعنا ذلك، وينبغى أن نتحفظ»[١].

ويستتبع ذلك ـ بالتالى ـ أن يحرص الداعية على ما يصون وقاره ومهابته، ويحافظ على مروءته وكرامته، تأسيًا برسول الله ﷺ الذى ضرب لنا أروع المثل فى توقيه لما يثير حوله الشبهات.

فعن على بن الحسين رضى الله عنهما «أن صفية زوج النبى ﷺ أخبرته أنها جاءت رسول الله ﷺ تزوره فى اعتكافه فى المسجد فى العشر الأواخر من رمضان، فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت تنقلب، فقام النبى ﷺ معها يقلبها[٢]، حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة مرَّ رجلان من الأنصار فسلما على رسول الله ﷺ، فقال لهما النبى ﷺ: على رسْلِكما، إنما هى صفية بنت حيى. فقالا: سبحان الله يا رسول الله، وكبر عليهما، فقال النبى ﷺ: إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئًا»[٣].

ويؤخذ من هذا الحديث أن الداعية ينبغى أن يترفَّع عما يسىء به الظن وإن حسنت النية، وأن يتحرَّز عما يخرم مروءته وإن وثق الناس به، واطمأنوا إليه.

ويجب على الداعية ـ كذلك ـ أن ينأى بنفسه عن مجالس السوء، وألاَّ يخوض مع الخائضين فى لهوهم وباطلهم، توقيرًا للعلم الذى يحمله، والدعوة التى ينتسب إليها.

يقول لقمان الحكيم لابنه: «يا بنى: اختر المجالس على عينك، وإذا رأيت قومًا يذكرون الله فاجلس معهم، فإنك إن تكن عالمًا ينفعك علمك، وإن تكن جاهلاً يعلموك، ولعلَّ الله أن يطلع عليهم برحمة فيصيبك بها معهم، وإذا رأيت قومًا لا

---

(١) البداية والنهاية (جـ١٠ ـ ص١١٩) الحافظ ابن كثير.

(٢) يقلبها: يردها إلى منزلها.

(٣) أخرجه البخارى (جـ١ ـ ص٣٤٦) كتاب الاعتكاف ـ باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد، وأخرجه مسلم (جـ٤ ـ ص١٧١٢) كتاب السلام ـ باب بيان أنه يستحب لمن رؤى خاليًا بامرأة، وكانت زوجته أو محرمًا له، أن يقول: هذه فلانة، ليدفع ظن السوء به، وأخرجه أبو داود (جـ١ ـ ص٦٢٤) كتاب الصوم ـ باب المعتكف يدخل البيت لحاجته، وأخرجه ابن ماجه (جـ١ ـ ص٥٦٦) كتاب الصيام ـ باب فى المعتكف يزوره أهله فى المسجد، وأخرجه أحمد (جـ٦ ـ ص٣٣٧).

يذكرون الله فلا تجلس معهم، فإنك إن تكن عالمًا لا ينفعك علمك، وإن تكن جاهلاً زادوك غبًا ـ أو عيًا ـ ولعل الله أن يطَّلع عليهم بعذاب فيصيبك معهم»[١].

اللهم أدِّبنا بأدب الإسلام وخلِّقنا بأخلاق القرآن، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين.

* * *

(١) سنن الدارمى (جـ١ ـ صـ١٠٥).

الخاتمة

بعد هذه الدراسة حول أهم أخلاق الدعاة إلى الله تعالى، بشقيها: النظرى والتطبيقى، يسعدنى أن أضع - باختصار - نتائج هذه الدراسة، وأوضِّح - من خلال ذلك - مسئولية كل منا، حتى يكون العلم نافعًا، وحجة لنا لا علينا.

١ - اتَّضح لنا من خلال هذه الدراسة أن الدعاة إلى الله تعالى هم صمام الأمان، وسبيل الحماية للفرد والمجتمع على السواء.

٢ - ويستتبع ذلك - بالتالى - ضرورة الحرص على العناية بإعداد هذه الفئات، والاضطلاع بمسئولية تكوينها وتربيتها من قِبَلِ الحكومات والجمعيات فى بلاد العالم الإسلامى.

٣ - اتضح لنا - كذلك - أهمية الجانب الخُلُقى فى حياة الدعاة، ووضح لنا من خلال الأمثلة والنماذج أن الدعوة لن تؤتى ثمرتها، وتحقق هدفها بالخطب الرَّنانة، والعبارات البليغة، وإنما بالقدوة الحسنة يؤثِّر الداعية فيمن حوله بإذن الله.

• ويستتبع ذلك أمرين:

أ - أن نحرص فى مناهجنا عامَّة - ومناهج كليات الدعوة ومعاهدها خاصة - على أن يكون الجانب العملى التطبيقى مبثوثًا فيما نقدِّمه من دراسات وأبحاث، فليس العلم ما حُفِظَ، وإنما العلم ما نفع.

ب - أن يُعْتَنَى - فى إعداد الدعاة - بالتربية مع التعليم، وتهذيب النفوس مع تثقيف العقول، ويكون ذلك بإتاحة الفرصة للطلاب والدارسين كى يعيشوا جوَّ الدعوة عمليًا عن طريق تنظيم دراسة داخلية أو نحوه.

• وختامًا:

أقدِّم هذا الجهد المتواضع بين يدى ربى، متضرعًا إليه أن يغفر زلَّتى، ويقيل عثرتى.

كما أسأله جلَّ وعلا أن يغفر لوالدىَّ وأساتذتى، وأن يجعلنى - مع الدعاة إليه

ـ على قلب رجل واحد، حتى نلقاه وهو عنّا راضٍ.

رب أدخلنى مدخل صدق، وأخرجنى مخرج صدق، واجعل لى من لدنك سلطانًا نصيرًا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

أ.د. طلعت محمد عفيفى سالم

عميد كلية الدعوة بالقاهرة

الفهارس

- فهرست الأحاديث النبوية
- فهرست المراجع
- فهرست الموضوعات

فهرست الأحاديث النبوية

الحديث	الصفحة
إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة	١٢٤
أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم	٣٧
ألا أنبئكم بخير أعمالكم	٤٢
ألا وإن فى الجسد مضغة	٩٠
أما والله إنى لأخشاكم لله	١٧٣
إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا	١٠
إن الله أوحى إلىَّ أن تواضعوا	٧٢
إن الله رفيق يحب الرفق	١٧٥
إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة	٨٨
أنا أغنى الشركاء عن الشرك	٥٢
أنا مع عبدى حيثما ذكرنى	٤١
إن أول الناس يُقْضى يوم القيامة عليه	٥٣
أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة	١٨٨
إن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم	١٤٧
إن الرفق لا يكون فى شىء إلاَّ زانه	١٧٦
إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم	١٨٩
إن العبد إذا أخطأ خطيئة	٢٧
إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم	١٤٩
إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها	١٤٦
إن منكم منفرين	١٨١
إنه طرأ علىَّ حزبى من القرآن	٤٨

إنى لا أقول إلا حقًا	١٨٨
أى الناس أشد بلاء، قال: الأنبياء	١٦٦
أيها الناس: أفشوا السلام	٣٨
بدأ الإسلام غريبًا	٨٧
بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة	٥٨
بايعنا رسول الله على السمع والطاعة	١٥٢
تذكرت قيام الليل	٤١
ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم	٥٤
عُرِضَتْ عَلَى الأمم	١٢٩
على رسلكما، إنما هى صفية بنت حيى	١٨٩
قام النبى ﷺ حتى تورمت قدماه	٣٨
قتلوه قتلهم الله	١٤٠
قد أفلح من أسلم، ورزق كفافًا	١٧٣
قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض	٨٧
كان النبى ﷺ يذكر الله على كل أحيانه	٤٣
كان النبى ﷺ يدعو: اللهم اغفر لى خطيئتى	٨٠
كان رسول الله ﷺ يتكلم بكلام بينه فصل	١٤٨
كان كلام رسول الله ﷺ كلامًا فصلاً	١٤٧
كان النبى ﷺ يتخولنا بالموعظة	١٤٦
الكبر بطر الحق	٧٣
الكيس من دان نفسه	٤٨
فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا	١٢٦
لولا أن تكون من الصدقة لأكلتها	٣١
ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان	١٥٩
ما أعطى أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر	١٦٣

ما خير رسول الله بين أمرين إلا اختار أيسرهما	١٧٩
ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم	٦٣
ما رأيت أحدًا أكثر تبسمًا من رسول الله ﷺ	١٨٦
ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلاَّ أوتوا الجدل	١٣٥
ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله	٤٢
ما كان النبى ﷺ يصنع فى بيته	٧٩
ما نقصت صدقة من مال	٤٠
مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكره مثل الحى والميت	٥٠
مثل القائم على حدود الله والواقع فيها	١٢٠
من أتى فراشه وهو ينوى أن يقوم يصلى من الليل	٥٣
من بدا جفا	٦٥
من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه الله	٥٨
من سئل عن علم فكتمه	١٢٨
من سره أن يلقى الله غدا مسلمًا	٣٤
من صلى الغداة فى جماعة ثم قعد يذكر الله	٤٤
من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب	٣٤
من قال سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة	٤٩
من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له	٤٩
من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين	٨٩
لا تتمنوا لقاء العدو	١٦٧
لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق	١٨٦
لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره	١١١
لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به	٣٠
لا يحقر أحدكم نفسه	١٥٣
لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله	٤٣

يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار ١١٤
يخرج قوم من أمتى يقرءون القرآن ٩٢
يسروا ولا تعسروا ١٧٨
يا معاذ: والله إنى لأحبك ٣٣
يا معاذ: أتدرى ما حق الله على العباد؟ ١٤٦
ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا ٣٧
يوشك الأمم أن تداعى عليك ٨٧

* * *

فهرست المراجع

(أ)

١ ـ إحياء علوم الدين ـ الإمام أبو حامد الغزالى ـ طبعة دار الشعب.
٢ ـ أخلاق العلماء ـ أبو بكر الآجرى ـ طبع دار الدعوة ـ بدون تاريخ.
٣ ـ أدب الدنيا والدين ـ أبو الحسن الماوردى ـ طبعة أولى سنة ١٩٨١ ـ دار اقرأ ـ بيروت.
٤ ـ الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار ـ الإمام النووى ـ طبعة رابعة سنة ١٩٥٥ ـ طبعة عيسى الحلبى.
٥ ـ الاستيعاب فى حياة الدعوة والداعية ـ فتحى يكن ـ طبعة سادسة سنة ١٩٨٥م ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
٦ ـ الإصابة فى تمييز الصحابة ـ الحافظ ابن حجر العسقلانى ـ طبعة سنة ١٩٧٨ ـ دار الفكر ـ بيروت.
٧ ـ إعلام الموقعين ـ ابن قيم الجوزية ـ طبعة ١٩٦٨ ـ مكتبة الكليات الأزهرية.
٨ ـ اقتضاء العلم العمل ـ الحافظ الخطيب البغدادى ـ طبعة رابعة سنة ١٣٩٧هـ ـ المكتب الإسلامى ـ بتحقيق محمد ناصر الدين الألبانى.
٩ ـ إلى الإسلام من جديد ـ أبو الحسن الندوى ـ طبعة المختار الإسلامى ـ بدون تاريخ.
١٠ ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ المكتبة القيمة ـ بدون تاريخ.

(ب)

١١ ـ البداية والنهاية ـ الحافظ ابن كثير ـ طبعة ثالثة سنة ١٩٧٨ ـ مكتبة المعارف ـ بيروت.

١٢ ـ بهجة المجالس، وأنس المجالس ـ أبو عمر يوسف بن عبد البر ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ بدون تاريخ.

(ت)

١٣ ـ التبشير والاستعمار ـ د/ عمر فروخ ـ د/ مصطفى الخالدى.
١٤ ـ تحقيق كلمة الإخلاص ـ ابن رجب الحنبلى ـ طبعة ثانية سنة ١٩٨٤ ـ دار الفتح ـ بتحقيق الدكتور أسامة عبد العظيم.
١٥ ـ تذكرة الحفاظ ـ الإمام الذهبى ـ طبع دار المعارف.
١٦ ـ تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم ـ بدر الدين ابن جماعة الكنانى ـ طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ بدون تاريخ.
١٧ ـ تذكرة الدعاة ـ البهى الخولى ـ طبعة ثامنة سنة ١٩٨٧م ـ دار التراث.
١٨ ـ تفسير القرطبى ـ طبعة دار الشعب.
١٩ ـ تفسير ابن كثير ـ طبعة عيسى الحلبى.
٢٠ ـ تقريب كتاب الفقيه والمتفقه ـ الحافظ الخطيب البغدادى ـ الناشر زكريا على يوسف ـ بدون تاريخ.
٢١ ـ تلبيس إبليس ـ أبو الفرج ابن الجوزى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٢٢ ـ تهذيب التهذيب ـ الحافظ ابن حجر العسقلانى ـ طبعة أولى ـ دار صادر ـ بيروت.

(ث)

٢٣ ـ ثقافة الداعية ـ الدكتور يوسف القرضاوى ـ طبعة ثامنة سنة ١٩٨٦ ـ مكتبة وهبة.

(ج)

٢٤ ـ جامع بيان العلم وفضله ـ أبو عمر يوسف بن عبد البر ـ طبعة ثانية سنة ١٩٦٨م ـ المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

٢٥ ـ جامع العلوم والحكم ـ ابن رجب الحنبلى ـ طبع مكتبة الدعوة الإسلامية ـ بدون تاريخ.

٢٦ ـ جامع البيان شرح حديث ما ذئبان جائعان ـ ابن رجب الحنبلى ـ مكتبة الفرقان ـ بدون تاريخ.

٢٧ ـ الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ـ الحافظ الخطيب البغدادى ـ طبعة سنة ١٩٨٣ ـ مكتبة المعارف بالرياض ـ بتحقيق الدكتور محمود الطحان.

٢٨ ـ الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى ـ ابن قيم الجوزية ـ مطبعة المدنى ـ بتحقيق الدكتور محمد جميل غازى.

(ح)

٢٩ ـ الحث على حفظ العلم، وذكر كبار الحفاظ ـ أبو الفرج ابن الجوزى ـ طبعة أولى سنة ١٩٨٥ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٣٠ ـ حلية الأولياء ـ الحافظ أبو نعيم الأصبهانى ـ طبعة رابعة سنة ١٩٨٥م ـ دار الكتاب العربى.

(خ)

٣١ ـ الخصائص العامة للإسلام ـ الدكتور يوسف القرضاوى ـ طبعة أولى سنة ١٩٧٧م ـ مكتبة وهبة.

(د)

٣٢ ـ ديوان الإمام الشافعى ـ جمع وتعليق محمد عفيف الزعبى ـ طبعة ثالثة سنة ١٩٧٤م ـ دار الجيل ـ بيروت.

(ر)

٣٣ ـ الروح ـ ابن قيم الجوزية ـ دار أبى بكر الصديق ـ إسكندرية ـ بدون تاريخ.

(ز)

٣٤ ـ الزهد ـ عبد الله بن المبارك ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ بتحقيق الشيخ عبد الرحمن الأعظمى.

٣٥ ـ الزواجر عن اقتراف الكبائر ـ ابن حجر المكى الهيتمى ـ طبعة ثانية سنة ١٩٧٠م ـ مطبعة مصطفى الحلبى.

(س)

٣٦ ـ سنن أبى داود ـ طبعة ثانية سنة ١٩٨٣ ـ مطبعة مصطفى الحلبى.

٣٧ ـ سنن الترمذى ـ طبعة ثانية سنة ١٩٧٥م ـ مطبعة مصطفى الحلبى.

٣٨ ـ سنن النسائى ـ طبعة أولى سنة ١٩٦٤م ـ مطبعة مصطفى الحلبى.

٣٩ ـ سنن ابن ماجه ـ بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ـ طبعة سنة ١٩٧٢م ـ مطبعة عيسى الحلبى.

٤٠ ـ سنن الدارمى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ بدون تاريخ.

٤١ ـ سيرة ابن هشام ـ طبعة مكتبة التوفيقية ـ بدون تاريخ.

(ش)

٤٢ ـ الشعر مع الله والذرة ـ إبراهيم بديوى ـ طبع دار الاعتصام.

(ص)

٤٣ ـ صحيح البخارى ـ طبعة عيسى الحلبى ـ بدون تاريخ.

٤٤ ـ صحيح مسلم ـ بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ـ طبعة أولى سنة ١٩٥٦م ـ مطبعة عيسى الحلبى.

٤٥ ـ صحيح مسلم بشرح النووى ـ المطبعة المصرية ـ بدون تاريخ.

٤٦ ـ صحيح الجامع الصغير ـ محمد ناصر الدين الألبانى ـ طبعة ثالثة سنة ١٩٨٢م ـ المكتب الإسلامى.

٤٧ ـ الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ـ الدكتور يوسف القرضاوى ـ كتاب الأمة الثانى سنة ١٤٠٢هـ.

٤٨ ـ صفة الصفوة ـ أبو الفرج ابن الجوزى ـ طبعة رابعة سنة ١٩٨٦م ـ دار المعرفة ـ بيروت.

٤٩ ـ صفة الفتوى والمفتى والمستفتى ـ أحمد بن حمدان الحرَّانى ـ طبعة ثالثة سنة ١٣٩٧هـ ـ المكتب الإسلامى ـ بيروت.

(ط)

٥٠ ـ طبقات الحنابلة ـ ابن أبى يعلى ـ طبعة سنة ١٣٥٠هـ ـ مطبعة الاعتدال ـ دمشق.

٥١ ـ طبقات الشافعية الكبرى ـ تاج الدين عبد الوهاب السبكى ـ طبعة أولى سنة ١٩٦٨ ـ طبعة عيسى الحلبى.

(ظ)

٥٢ ـ ظلام من الغرب ـ محمد الغزالى ـ طبعة ثالثة سنة ١٩٦٥م ـ دار الكتب الحديثة.

(ع)

٥٣ ـ العلم والعلماء ـ أبو بكر الجزائرى ـ دار الكتب السلفية ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.

٥٤ ـ عمدة القارى ـ شرح صحيح البخارى ـ بدر الدين العينى ـ طبعة أولى سنة ١٩٧٢ ـ مطبعة مصطفى الحلبى.

٥٥ ـ العواصم من القواصم ـ أبو بكر بن العربى ـ طبعة سنة ١٩٨٥م ـ المكتبة العلمية ـ بيروت ـ بتحقيق محب الدين الخطيب.

(غ)

٥٦ ـ الغارة على العالم الإسلامى ـ ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافى.

(ف)

٥٧ ـ فضل العلم ـ أبو عبد الله محمد بن سعيد بن رسلان ـ طبعة أولى سنة ١٩٨٧م ـ دار العلوم الإسلامية.

٥٨ ـ فيض القدير ـ شرح الجامع الصغير ـ العلاَّمة عبد الرءوف المناوى ـ طبعة ثانية سنة ١٩٧٣م ـ دار المعرفة ـ بيروت.

٥٩ ـ فى ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ طبعة عاشرة سنة ١٩٨١م دار الشروق.

٦٠ ـ فى موكب الدعوة ـ محمد الغزالى ـ طبعة رابعة سنة ١٩٦٥م ـ دار الكتب الحديثة.

٦١ ـ فى موكب الصبر، وصحبة الصابرين ـ دكتور يحيى إسماعيل ـ عدد رقم (٥) من سلسلة نحو النور ـ دار التوزيع والنشر الإسلامية.

(ل)

٦٢ ـ لسان العرب ـ ابن منظور ـ دار المعارف.

٦٣ ـ لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف ـ ابن رجب الحنبلى ـ دار الفتح ـ بدون تاريخ.

(م)

٦٤ ـ المجموع شرح المهذب ـ الإمام النووى ـ بتحقيق محمد نجيب المطيعى ـ بدون تاريخ.

٦٥ ـ مجمع الزوائد ـ الحافظ نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى ـ طبع مكتبة القدسى ـ بدون تاريخ.

٦٦ ـ مدارج السالكين ـ ابن قيم الجوزية ـ طبعة أولى سنة ١٩٨٢م ـ دار التراث العربى.

٦٧ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل ـ طبعة المكتب الإسلامى للطباعة والنشر ـ بدون تاريخ.

٦٨ ـ مع الله ـ دراسات فى الدعوة والدعاة ـ محمد الغزالى ـ طبعة رابعة سنة ١٩٧٦م ـ دار الكتب الحديثة.

٦٩ ـ معالم فى الطريق ـ سيد قطب ـ طبعة تاسعة سنة ١٩٨٢م ـ دار الشروق.

٧٠ ـ مع الرعيل الأول ـ محب الدين الخطيب ـ طبعة ثامنة سنة ١٤٠٠هـ ـ المطبعة السلفية ـ القاهرة.

٧١ ـ مفتاح دار السعادة ـ ابن قيم الجوزية ـ مكتبة الفاروق الحديثة ـ بدون تاريخ.

٧٢ ـ من أخلاق السلف ـ أحمد فريد ـ بدون تاريخ أو اسم مطبعة.

٧٣ ـ منتخب كنز العمال بهامش مسند الإمام أحمد ـ المتقى الهندى ـ طبعة المكتب الإسلامى للطباعة والنشر.

٧٤ ـ المنطلق ـ محمد أحمد الراشد ـ طبعة ثانية سنة ١٩٧٦م ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٧٥ ـ الموافقات ـ الإمام الشاطبى ـ طبع بدار المعرفة ـ بيروت ـ بدون تاريخ.

(ن)

٧٦ ـ نفحات ولفحات «ديوان شعر» ـ الدكتور يوسف القرضاوى ـ طبعة ثانية سنة ١٩٨٨م ـ دار الصحوة ـ القاهرة.

٧٧ ـ النهاية فى غريب الحديث والأثر ـ ابن الأثير ـ طبعة المكتبة الإسلامية ـ بدون تاريخ.

(هـ)

٧٨ ـ هداية المرشدين ـ على محفوظ ـ طبعة تاسعة سنة ١٩٧٩م ـ دار الاعتصام.

(و)

٧٩ ـ الوابل الصيب من الكلم الطيب ـ ابن قيم الجوزية ـ طبعة خامسة سنة ١٤٠٠هـ ـ مكتبة الدعوة الإسلامية.

٨٠ ـ الورع ـ الإمام أحمد بن حنبل ـ طبعة ثانية سنة ١٤٠١هـ ـ المكتب السلفى.

* * *

فهرست الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة
● المقدمة	٣
● مدخل الدراسة	٧
أهمية وجود الدعاة	٩
أهمية تكوين الدعاة	١٣
أهمية الجانب الخلقى فى حياة الدعاة	١٧
● الباب الأول: **الأخلاق النفسية للداعية**	٢٣
تمهيد	٢٥
● الفصل الأول: **الأخلاق القلبية**	٢٦
١ ـ الصلة بالله تعالى	٢٦
٢ ـ الإخلاص	٥١
٣ ـ التواضع	٦٩
٤ ـ قوة الثقة بالله تعالى	٨٣
● الفصل الثانى: **الأخلاق الظاهرية**	٩٠
تمهيد	٩٠
١ ـ الحرص على طلب العلم	٩١
٢ ـ الحرص على العمل بالعلم	١٠٨
● الباب الثانى: **الأخلاق الاجتماعية للداعية**	١١٧
تمهيد	١١٩
● الفصل الأول: **الأخلاق فى مجال الدعوة القولية**	١٢٣
١ ـ حرص الداعية على دعوة الآخرين وتعليمهم	١٢٣
٢ ـ الشجاعة	١٥١
٣ ـ الصبر والتضحية	١٦١

٤ ـ عناية الداعية بما يصلح به أمر معيشته ١٦٩
● الفصل الثانى: أخلاق فى مجال التعامل العام مع الناس ١٧٤
١ ـ الرفق بالمدعوين، والتيسير عليهم ١٧٤
٢ ـ طلاقة الوجه ولزوم البِشْر مع اجتناب ما يشين من المزاح وفضول الكلام ١٨٦
● الخاتمة ١٩١
● الفهارس ١٩٣
١ ـ فهرست الأحاديث ١٩٥
٢ ـ فهرست المراجع ١٩٩
٣ ـ فهرست الموضوعات ٢٠٧

* * *